سلسلة النبي والعترة

أمير المؤمنين

الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام

فوزي آل سيف

دار المحجة البيضاء

أمير المؤمنين

الإمام عليٌّ بن أبي طالب عليه السلام

الرويس - خلف محفوظ ستورز بناية رمال

هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ - ٠١/٥٤١٢١١
ص.ب: ٥٤٧٩ / ١٤ - E-mail:almahajja@terra.net.lb
www.daralmahaja.com / info@daralmahaja.com

أمير المؤمنين

الإمام عليٌّ بن أبي طالب عليه السلام

فوزي آل سيف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدِّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

1/ ما بين نور الوحي النازل على رسول الله ﷺ المشيِّد لأمير المؤمنين عليه السلام أبراج الثناء والمنزلة العالية، وكلام رسول الله الذي صرح بأنه «لو اجتمع الناس على حب عليّ بن أبي طالب لما خلق الله النار»، وغيره من الأحاديث.

وبين ما قاله بعض العلماء من أنه عليه السلام قد «كتمت مناقبَه أولياؤه خوفًا وأعداؤه حسدًا، ثمّ ظهر من بين الكتمين ما ملأ الخافقين»، وبعضهم الآخر يقول وقد أعلن عجزه عن وصفه، «وما أقول في رجل تعزى إليه كل فضيلة، وتنتهي إليه كل فرقة، وتتجاذبه كل طائفة، فهو رئيس الفضائل وينبوعها وأبو عذرها، وسابق مضمارها، ومجلي حلبتها، كل من بزغ فيها بعده فمنه أخذ، وله اقتفى، وعلى مثاله احتذى».

وقال بعدَهم غيرهم فوق ذلك ودونه، فما عساي أن أقول في هذه الصفحات؟

نعم يمكن لي القول: هذه الصفحات هي لافتة ولاءٍ، وعنوان هويةٍ، وإشارة خريطةٍ. وكأني وأنا أخاطب أمير المؤمنين ولي الله أتمثل ما جاء في كتاب الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾[1].

2/ في هذا الكتاب بدأت ـ كما هو الحال في سائر كتب سيرة المعصومين من هذه السلسلة ـ بعرض غير مفصل لسيرة حياته عليه السلام، من ما قبل ميلاده إلى حين استشهاده، وبعدها بنحو موسع إلى أدواره في أيام من سبقه زمانًا في الحكم وهو من الأدوار المتشابكة، كما تعرضت إلى تقييمه لتلك الفترة من خلال الخطبة الشقشقية، وكان لا بدَّ من التعرض إلى الحروب والمعارك التي شنّت عليه صلوات الله عليه، فتعرضنا لمواقفه مع الناكثين والقاسطين والمارقين، وتوقفت قليلًا لإلقاء بعض الضوء على ما جاء في الرواية المعروفة في مقتله وشهادته في مسجد الكوفة، وبعدها أشرت سريعًا إلى برنامجه الإصلاحي في الأمة وحكومته.

وتعرضت لجانب من مظلوميته عليه السلام بين المسلمين سواء في أيامه أو تلك المستمرة إلى يومنا هذا! وإذا كانت مناقبه قد ملأت

(1) يوسف: 88.

الكتب بالرغم من المحاربة لها بالكتمان والتأويل الباطل إلا أنها لا تزال تشع كنور هادٍ للوصول إلى إمامته، وأخيرًا أشرت إلى شيء من تراثه العلمي، وألقيت نظرة على حياته الأسرية، كل ذلك بغرض التعريف ببعض سيرة هذا الإمام العظيم.

3/ ينبغي أن أذكر القراء الكرام بما لا يخفى عليهم عادة، وهو أنني في أثناء نقل النصوص من مصادرها ولا سيما كتب مدرسة الخلفاء، لم أغيّر فيها شيئًا، بالرغم مما يعتريها من الملاحظة مثل التزامهم ـ للأسف ـ بالصلاة الناقصة من آل النبي، وأمثالها. وتركت ذلك لإدراك القارئ الكريم أن نقلها بهذه الصورة، ونقل أمثالها من العبارات، لا يعني الموافقة عليها.

كما سيلاحظ القارئ الكريم الإكثار من الاستشهاد بكتب ومصادر مدرسة الخلفاء، وينبغي أن أشير هنا إلى أن ذلك لا لسبب أنها أوثق أو أكثر مصداقية، وإنما لجهة أخرى وهي أنه في المواضيع التي يكون فيها طرفان مختلفان من المدرسة والمصادر، فإنه لا بدَّ من الاستشهاد ـ قدر الإمكان ـ بالمصادر التي يقبلها الخصم، ولا يأباها ـ في حدود الإلزام ـ صاحب الاستدلال والاستشهاد.

4/ تـمَّ اختيار عنـوان «أميـر المؤمنين» لأنـه اللقب الذي يناسبه دون غيـره، وهو مقتضـى ولايتـه المفروضـة علـى كل مؤمـن ومؤمنة، ومسـلم ومسلمة.

فـإن هـذا اللقـب وإن تنـزل إلـى الدرجـة التي قـال عنهـا دعبـل الخزاعـي، متأسـفًا علـى مـا آل إليـه أمـر المسـلمين حيـن أصبحـت الخلافـة يتنازعهـا المنحرفـون والمغنـون صـار لقـب أميـر المؤمنيـن هـو بهـذا المسـتوى:

إنْ كانَ إبراهيـمُ مضطلعًـا بهـا فلتصلحـنْ مـنْ بعـدهِ لمخـارق
ولتصلحـنْ مـنْ بعـدِ ذاكَ لزلـزلٍ ولتصلحـنْ مـنْ بعـدهِ للمـارقِ
أنَّـى يُكـونُ، وليـسَ ذَاكَ بكائِـنٍ يـرثُ الخلافـةَ فاسـقٌ عـنْ فاسـقِ

إلا أن هـذا اللقـب فـي حقيقتـه إنمـا هـو مفصـل علـى مقـاس عليّ بـن أبـي طالـب عليه السلام، حتـى لقـد ورد النهـي عـن تلقيـب أئمـة الهـدى مـن أبنائـه بهـذا اللقـب، ووجـه النهـي بالقـول أنـه خـاص بالإمـام عليه السلام.

5/ أشـكر جميـع الإخـوة والأخـوات الذيـن شـاركوني فـي إعـداد هـذا الكتـاب وقدمـوا مسـاعدة طيبـة فـي ذلـك لجهـة اختصـار فتـرة إنجـازه وأسـأل الله سـبحانه لهـم الأجـر الجزيـل، وأن يحشـرهم وإيّانـا فـي شـفاعة أميـر المؤمنيـن عليه السلام وولـده، كمـا

أشكر بالضرورة أسرتي الحبيبة حيث يجودون بوقت كان يمكن أن يصرف فيهم وعليهم، ويوفرون بذلك فرصة جميلة للانشغال بالإعداد والكتابة. فأسأل الله أن يشركهم في ثواب هذا كله. كما أذكر والديّ رحمهما الله فلهما الفضل الأكبر ـ بعد نعمة الله ـ في كل ما أنا فيه. وأسأل الله أن يجعل لهما النصيب من الأجر والمثوبة.

فوزي بن المرحوم محمد تقي آل سيف
في يوم وفاة النبي المصطفى ﷺ
28/ صفر/ 1445
تاروت ـ القطيف ـ المملكة العربية السعودية

الإمام عليّ
ما قبل الميلاد إلى الاستشهاد

1 / عالم ما قبل الميلاد

يخطئ البعض حين يتصور أن الحياة بجميع مراحلها تبدأ يوم يخرج المرء من بطن أمه وتنتهي حين يدخل مرة أخرى في جوف التراب.

لقد صحح الدين والأنبياء هذا الخطأ وأخبروا الناس بأن الحياة كما تسبق الولادة بفترات طويلة، كذلك لا تنتهي بمجرد العودة للتراب.

وتتعدد الإشارات لعالم ما قبل الحياة (البيولوجية) كما تتكثر النصوص بشأن عالم المعاد والحياة الآخرة. والذي يرتبط بنا في هذه السطور هو العالم الأول؛ فيأتي أحيانًا بعنوان عالم الذر[1]

(1) ما جاء في تفسير ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰۛ شَهِدْنَآۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾[الأعراف: 172] قال القرطبي في تفسيره: اذكر لهم مع ما سبق من تذكير المواثيق في كتابهم ما أخذت من المواثيق من العباد يوم الذر؛ وشرع في ذكر =

وأخرى عالم الأنوار أو ما قبل آدم[1] وهكذا.

وربما لأجل ذلك التصور الخاطئ يرد هؤلاء ما ورد من الأحاديث والروايات الذاكرة لفضائل النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وعترته المرتبطة بتلك العوالم.

ومن جملة ما رده النهج الأموي انطلاقًا مما سبق هو الحديث الذي نقله إمام المذهب الحنبلي أحمد، في كتابه فضائل الصحابة،» عن سلمان قال: سمعت حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «كنا أنا وعليّ نورًا بين يدي الله عز وجل، قبل أن يخلق آدم بأربعة عشر ألف عام، فلما خلق الله آدم قسم ذلك النور جزأين، فجزءٌ أنا، وجزءٌ عليٌّ عليه السلام».[2]

= الأقوال **ومنها**: معنى الآية أن الله تعالى أخرج من ظهور بني آدم بعضهم من بعض. قالوا ومعنى وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم دلهم بخلقه على توحيده..

وفي مدرسة أهل البيت يوجد رأيان: **الأول**/ حين خلق آدم ظهر أبناؤه على صورة الذر إلى آخر نسل له من البشر «وطبقًا لبعض الروايات ظهر هذا الذر أو الذرات من طينة آدم نفسه» وكان لهذا الذر عقل وشعور كاف للاستماع والخطاب والجواب، فخاطب الله سبحانه الذر قائلًا الست بربكم؟!.فأجاب الذر جميعًا: بلى شهدنا. **والثاني**/ إن المراد من هذا العالم وهذا العهد هو عالم الاستعداد «والكفاءات»، و«عهد الفطرة» والتكوين والخلق. فعند خروج أبناء آدم من أصلاب آبائهم إلى أرحام الأمهات، وهم نطف لا تعدو الذرات الصغار، وهبهم الله الاستعداد لتقبل الحقيقة التوحيدية.

(1) الشيباني؛ أبو بكر بن أبي عاصم: كتاب السُّنَّة، ومعه ظلال الجنة للألباني 1/ 179عن «ميسرة الغجر قال: قلت: يا رسول الله متى كتبت نبيًّا قال: «وآدم بين الروح والجسد». قال الألباني عنه: إسناده صحيح.

(2) الشيباني؛ أحمد بن حنبل: فضائل الصحابة 2/ 662.

ولعل هذا المعنى توزع على أحاديث كثيرة نقلت عن رسول الله ﷺ، منها قوله: «خلقت أَنا وَعليّ من نور وَاحِد قبل أَن يخلق الله آدم بأَرْبعَة آلَاف عَام فَلَمَّا خلق الله آدم ركب ذَلِك النُّور فِي صلبه فَلم يزل فِي شَيْء وَاحِد حَتَّى افْتَرقَا فِي صلب عبد الْمطلب فَفِيّ النُّبُوَّة وَفِي عَليّ الْخلَافَة».[1]

ونظير ذلك في كتب الإمامية كثير[2].

من هذا الحديث ونظرائه ستكون بداية حياة الإمام عليّ عليه السلام مقترنة بحياة رسول الله ﷺ، فهما نور واحد. ونورهما سابق على خلق آدم، وبناء عليه سيكون هذا من ذاك وذاك من هذا، ولحمه لحمه ودمه دمه، وسيبقى هذا إلى ما بعد الوجود في الدنيا.

الفرق الوحيد قبل ذلك هو في انقسام ذلك النور بعد عبد المطلب جد النبي في ابنيه: والد النبي عبد الله، ووالد عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

إن الانطلاق من هذه النقطة سيسهل على الناظر الكثير من المنازل والمقامات التي كانت لعليّ من رسول الله ﷺ. من

(1) الديلمي؛ أبو شجاع: الفردوس بمأثور الخطاب 2/ 191.

(2) قد جمع المرحوم الري شهري في موسوعة الامام عليّ بن أبي طالب 4/ 408، عددا وافرا من الأحاديث تحت عنوان: أنا وعليّ من نور واحد، وتحت عنوان: من شجرة واحدة.

ولادته في الكعبة إلى فتح بابه على المسجد النبوي دون سائر الأبواب (فالأمران داخلان في تطهيرهم من الرجس) ومن تربية النبي له إلى مؤاخاته إلى تزويجه فاطمة بأمر الله، إلى وصايته، وولايته على الناس وأنه أولى بهم من أنفسهم كما كان رسول الله.. كلها تسير في مسار منسجم وطبيعي.

2 / ولادته في الكعبة

وُلد عليّ بن أبي طالب بن عبد المطلب: في الثالث عشر من شهر رجب سنة 30 بعد عام الفيل وتصادف السنة (العاشرة) قبل بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم. وكان ذلك الميلاد المبارك في داخل الكعبة المشرفة في حادثة لم تُسبَق ولم تُلحَق في تاريخ البشر. إذ احتوت من الكرامات جهات متعددة نشير إليها فيما يأتي.

وقبل أن نأتي على أصل الحادثة ـ الكرامة، أشير بشكل سريع ـ على أمل التفصيل فيما بعد ـ إلى أن المناقب والفضائل التي تذكر لرسول الله أو للإمام عليّ أو سائر الأئمة، ليس المراد منها فقط بيان مجد هذا الرجل أو عظمة مقامه، وإنما بالإضافة إلى ذلك، بيان أنه حجة الله على خلقه وأن الله اختصه بما لم يمنحه سائر الخلق ومن الطبيعي بعدها أن لا يستنكر كونه نبيًّا ـ كما هو حال النبي المصطفى ـ أو وصيًّا كما هو حال عليّ المرتضى.

إن هذه الأحاديث المشيرة إلى المقامات العالية والدرجات الاستثنائية هي بمثابة (إشارات مرور) للصراط المستقيم و(خريطة سير) للمقصد وهو الاهتداء للحجة الإلهي. وسيأتي عند الحديث عن فضائل الإمام شرح لهذا المعنى.

نعود لشرح أصل الحادثة؛ قصة الميلاد في الكعبة:

فقد ذكر الشيخ الصدوق ﵀ (ت381هـ) ولادة الإمام في الكعبة في عدد من مؤلفاته بسنده إلى.. «سعيد بن جبير، قال: قال يزيد بن قعنب: كنت جالسًا مع العباس بن عبد المطلب وفريق من عبد العزى بإزاء البيت الحرام إذ أقبلت فاطمة بنت أسد أم أمير المؤمنين ﵇ وكانت حاملة به تسعة أشهر، وقد أخذها الطلق فقالت: ربي إني مؤمنة بك وبما جاء من عندك من رسل وكتب، وإني مصدقة بكلام جدي إبراهيم الخليل ﵇، وأنه بنى البيت العتيق، فبحق الذي بنى هذا البيت وبحق المولود الذي في بطني لما يسرت عليّ ولادتي.

قال يزيد بن قعنب: فرأينا البيت وقد انفتح عن ظهره، ودخلت فاطمة وغابت عن أبصارنا والتزق الحائط، فرمنا أن يفتح لنا قفل الباب، فلم ينفتح فعلمنا أن ذلك أمر من الله تعالى، ثم خرجت بعد الرابع وبيدها أمير المؤمنين ﵇، ثم قالت: إني فضلت على

من تقدمني من النساء، لأن آسية بنت مزاحم عبدت الله سرًّا في موضع لا يحب أن يعبد الله فيه إلا اضطرارًا، وأن مريم بنت عمران هزت النخلة اليابسة بيدها حتى أكلت منها رطبًا جنيًا، وإني دخلت بيت الله الحرام وأكلت من ثمار الجنة وأرزاقها، فلما أردت أن أخرج هتف بي هاتف يا فاطمة سميه عليًّا فهو عليٌّ والله العليّ الأعلى يقول: إني شققت اسمه من اسمي وأدبته بأدبي ووقفته على غامض علمي وهو الذي يكسر الأصنام في بيتي وهو الذي يؤذن فوق ظهر بيتي ويقدسني ويمجدني فطوبى لمن أحبه وأطاعه وويل لمن عصاه وأبغضه».[1]

وحيث أننا قد تعرضنا لهذا الموضوع بتفاصيله في كتابنا أعلام الأسرة النبوية، في البحث عن فاطمة بنت أسد أم أمير المؤمنين عليه السلام، فلا أرى داعيًا لإعادة الكتابة والبحث فيه، بل سأنقل ما كتبته هناك حيث قلت: «ذكر المحدثون والمؤرخون ومنهم الحاكم النيشابوري في كتابه المستدرك على الصحيحين أن أمر ولادتها إياه في الكعبة من الأحاديث المتواترة، فقال وهو يرد على دعوى مصعب الزبيري بأنه لم يولد قبل ولا بعد حكيم أحدٌ،

(1) ابن بابويه؛ محمد بن عليّ بن الحسين: معاني الأخبار ص 62، والأمالي 195.

قال وهِـمَ (أي توهـم) مصعب في هـذا: «فقـد تواترت الأخبـار[1] أن فاطمـة بنت أسـد ولـدت أمير المؤمنيـن عليّ بن أبـي طالب كـرم الله وجهـه فـي جـوف الكعبـة»[2].

ولمـن أراد مزيـدًا مـن التحقيـق وتفصيـل النظـر فـي رواة روايـات حكيـم وميزانهـا السـندي، فليرجـع للكتـب المختصـة فـي هـذا الموضـوع.[3] إلا أنـه فـي موضـع آخـر قـال إنـه لـم يولـد قبـل الإمـام ولا بعـده فـي البيـت أحـد سـواه! إذ نقـل الكنجـي الشـافعي (ت658هـ) عـن الحاكـم: «ولـد أميـر المؤمنيـن عليّ بـن أبـي طالب بمكة فـي بيـت الله الحـرام ليلـة الجمعة لثـلاث عشـرة ليلـة خلت من رجـب سـنة ثلاثيـن مـن عـام الفيـل، ولـم يولـد قبلـه ولا بعـده مولـود

(1) الناظر لما نقل عن النيشابوري صاحب المستدرك يلاحظ، ثلاثة أنماط من معالجة قضية الولادة في الكعبة فهو في احدى الروايات يشير إلى أن حكيم بن حزام قد وُلد في الكعبة «سمعت أبا الفضل الحسن بن يعقوب، يقول: سمعت أبا أَحْمَد محمّد عبد الوهاب، يقول: سمعت عليّ بن عثام العامري، يقول: ولد حكيم بن حزام في جوف الكعبة، دخلت أمه الكعبة فمخضت فيها فولدت في البيت» ويمرّ عليها، ثم تأتي رواية أخرى في موضع آخر في كتابه المستدرك وفيها، ينفي أن يكون حكيم وحده الذي وُلد فيها بل تواترت الأخبار في شأن عليّ ﷺ، ويعتبر مصعبًا الزبيري واهمًا في قوله بأن حكيمًا هو الوحيد! ثم في موضع ثالث كما نقله عنه الكنجي الشافعي في كفاية الطالب / 407 يصرح بأن المولود في الكعبة هو عليٌّ ﷺ ولم يولد قبله ولا بعده مولود فيها!! ويحتمل أن تكون هذه الرواية الثالثة هي التي تتفق مع ما يعتقده!

(2) النيشابوري؛ المستدرك على الصحيحين 3/ 550.

(3) **ومنها**: عليّ وليد الكعبة للعلامة الأردوبادي، وكتاب فضائل أمير المؤمنين عليّ ﷺ المنسوبة لغيره للدكتور جواد كاظم منشد النصر الله.

في بيت الله الحرام سواه، إكرامًا له بذلك، وإجلالًا لمحله في التعظيم.»[1]

وقد تبنى هذا الرأي عامة شيعة أهل البيت، ومعهم فريق كبير من سائر المسلمين، بينما عدل بهذه المنقبة فريق آخر، كما عدلوا بقتله مرحبًا إلى محمد بن مسلمة الأنصاري، عدلوا بهذه المنقبة إلى حكيم بن حزام بن خويلد!

فقد ذكر مسلم النيشابوري في صحيحه وهو أقدم من ذكر هذه المنقبة مرسلة من غير سند، عند الحديث عن حكيم هذا قال: ومن مناقبه أنه ولد في الكعبة، قال بعض العلماء ولا يعرف أحد شاركه في هذا!!

وينبغي تسجيل هاتين النقطتين هنا: **الأولى** أنه لم يعثر على ذاكر لهذه المنقبة لحكيم بن حزام قبل مسلم بن الحجاج النيشابوري المتوفى سنة 261هـ. إلا ما سيأتي من ذكر الزبير بن بكار لها.

والثانية أن ذكره لها هو من غير إسناد! بل هو رأي من جهته أو اعتقاد له! وهذا مما يضعفه. فإذا كان مسلمُ لدى البعض معتبرًا فإنما هو من جهة كونه محدِّثًا وراويًا. وهو هنا لم يروِ!

(1) الشافعي الكنجي؛ كفاية الطالب في مناقب أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب / 407.

وأوضح منه في الارسال وعدم وجود السند من جاء بعده[1] كالنووي وابن حجر العسقلاني وغيرهم. بل لقد أوضح ابن حجر مصدر تلك الفكرة، ومن أين جاءت فقد قال ابن حجر العسقلاني (توفي 852هـ) قائلًا: «وحكى الزبير بن بكار أن حكيم بن حزام ولد في جوف الكعبة، قال وكان من سادات قريش في الجاهلية والإسلام».[2]

فإن الزبير بن بكار الأسدي القرشي (من نسل عبد الله بن الزبير) المتوفى سنة 256هـ. لا يمكن أن يروي عنه ابن حجر مباشرة فالكلام عنه مرسل، ونفسه الزبير بن بكار الذي يفصله عن حكيم بن حزام نحو 200 سنة عن وفاته، أيضًا خبره عنه مرسل، نعم لما كان حكيم بن حزام بن خويلد يكون ابن عم الزبير بن العوام بن خويلد (والزبير بن بكار من نسله)، فقد تمت سرقة هذه المنقبة ونسبت له، ثم شاعت وانتشرت. وليس بعيدًا أن يكون مسلم بن الحجاج النيشابوري قد نقل ذلك عن الزبير بن بكار الزبيري من غير أن ينسبها صراحة له، ولعله لإمكان تطرق التهمة إليه باعتبار أنه يكون ابن عم لجده الزبير!

(1) انتهى الدكتور جواد النصر الله إلى نتيجتين بعد بحثه التفصيلي:1 ـ إن روايات ولادة حكيم مرسلة بأكملها، فلا توجد هناك رواية واحدة كاملة الإسناد. 2 ـ لو قلنا بصحة الولادة مع ضعف رواياتها فإنها جاءت مصادفة وليست نتيجة قصد من أم حكيم بن حزام.

(2) العسقلاني؛ ابن حجر؛ تهذيب التهذيب 2/ 44.

ولم يكن يستطيع أحدٌ لا في زمان الأمويين ولا العباسيين أن ينسب لأمير المؤمنين عليه السلام الفضائل الثابتة له.[1]

ميزات حكيم بن حزام!

ولعلك تسأل ما هي ميزة حكيم بن حزام على سائر البشر؟ هل في أنه لم يسلم إلا بعد الفتح ويعني ذلك أنه أسلم بعد نحو عشرين سنة من بداية بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم (13 سنة في مكة + 6 سنوات حتى تمَّ فتحها من المدينة)؟ وهل في أنه عُدّ من المؤلفة قلوبهم[2] الذين كانت ترضخ لهم الرضائخ لكي يبقوا على ظاهر الإسلام؟

يفترض أن الولادة داخل الكعبة مقام تعظيم وتشريف، لماذا؟

لأنه يتم به تجاوز القانون، الذي يقضي بأن ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾[3] فلا بدَّ أن يكون البيت طاهرًا، ومعلوم

(1) فإنه لما طلب خالد القسري وهو أحد ولاة بني أمية من محمد بن شهاب الزهري أن يكتب له سيرة النبي ومغازيه، وكان يعرف موقف خالد القسري من الإمام عليّ عليه السلام سأله ابن شهاب الزهري قائلًا: «إنه يمر بي الشيء من سير عليّ بن أبي طالب فأذكره؟ فقال خالد: لا، إلا أن تراه في قعر الجحيم». ينظر الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني ج 22 / 281 وأما العباسيون فيكفي قصة المحدث الجهضمي الذي نقل أن من أحب النبي وعليًّا وابنيه وفاطمة عليهم السلام كان مع رسول الله في الجنة، فأمر به أن يضرب ألف سوط لولا وساطات نفت عنه تشيعه لعليّ بن أبي طالب!!

(2) قاله عنه ابن عبد البر؛ في الاستيعاب 1/ 362، والمؤلفة قلوبهم: يطلق على قسم من المسلمين ممن كان اعتقادهم الداخلي بالإسلام ضعيفًا فكانوا يعطون مبالغ مالية لكي يثبتوا على دين الإسلام، فهو ليس منقبة وإنما مثلبة وغمز.

(3) البقرة: 125.

أن أي امرأة تلد لا بدَّ أن تنفس والنفاس حالة مجانبة للطهارة المادية والمعنوية، هذا من جهة ومن أخرى أن الكعبة هي أقدس بقعة كما هو المركوز في أذهان المسلمين بل غير المسلمين فالذي يولد فيها يفترض أن يكون له مميزات تؤهله لهذا!

نعم له ميزة لعلها تكون قد شفعت له وهي أنه من أقارب الزبيريين لأن الزبير بن العوام بن خويلد وهو كذلك حكيم بن حزام بن خويلد فهم معه أبناء عمومة. ولما بُدئ بكتابة السيرة والتاريخ الإسلامي فإن قسمًا كبيرًا منه كان مما كتبه الزبيريون عروة والزبير بن بكار.

كانت الخطوة الأولى إنكار بعض المعاندين المتقدمين هذه المنقبة لأمير المؤمنين وإلصاقها بحكيم بن حزام.

وأما الخطوة الثانية فهي من بعض المتأخرين وهي بعد أن لم يتم لهم ما أرادوا من الخطوة الأولى إلغاء كونها منقبة، قالوا ما هي قيمة أن يولد أحدهم في الكعبة؟ الكعبة التي ملئت بالأصنام لا قيمة للولادة فيها فلو يولد الشخص في بيته أفضل من أن يولد في وسط الأصنام!!

إذن. فعلامَ التهالك من قبل المتقدمين على إثباتها لفلان؟ وعلى أنه لم يولد أحد قبله ولا بعده فيها؟ وأن هذا كما قال مسلم بن الحجاج: قول العلماء؟!

وهل الولادة في الكعبة لا سيما في الصورة الإعجازية[1] التي جرت في شأن فاطمة بنت أسد وولادتها أمير المؤمنين هي كولادة الشخص في وسط بيته؟ وهل أن وجود الأصنام فيها بفعل الكفار يجعلها بلا قيمة؟ لقد قال الله سبحانه في الصفا والمروة وهما لا يبلغان شيئًا من قداسة الكعبة ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾[2] على أثر تردد بعض المسلمين من السعي بينهما لوجود أصنام على الطرفين. فأخبرهم الباري أنهما من شعائر الله وأن وجود تلك الأصنام بفعل الكفار لا يضر بشعاريتها»[3].

3/ والده ووالدته

أما والده فأبو طالب شيخ البطحاء ومؤمن قريش الذي كتم إيمانه فآتاه الله أجره مرتين، وبينما كان عنوان نصرة النبي وكفالته أيام حياته فقد صار بعد ذلك عنوانًا لطعن شانئي عليّ أمير المؤمنين فيه، عندما أصروا على كفره، ولا يزالون وكل ذلك إنّما هو لضرب منزلة ابنه عليّ عليه السلام. وقد ألف علماؤنا وعلماء مدرسة

(1) راجع الصورة التي تنقلها رواية الشيخ الصدوق التي مرت آنفًا.

(2) البقرة / 158.

(3) آل سيف؛ فوزي: أعلام من الأسرة النبوية / 65. من جميل التوفيقات أنني أحرر هذه الصفحات بجوار مشهد أمير المؤمنين عليه السلام، أسأل الله أن يرزقنا شفاعته عليه السلام.

الخلفاء المنصفون كتبًا أقاموا فيها البراهين والأدلة على سبقه إلى الإيمان وستره إسلامه، وقد أشرنا إلى شيء منها في ترجمة شخصيته في أعلام الأسرة النبوية.

وكذلك الحال في شأن والدته المكرمة فاطمة بنت أسد عليها السلام، السابقة إلى الإسلام، والكافلة للنبي فترة شبابه، والتي عبّر عنها النبي صلى الله عليه وآله وسلم، بأنها أمه بعد أمه! ولمن رام شيئًا من ذكر سيرتها وسيرة زوجها أبي طالب فليرجع إلى الكتاب المذكور.

4/ اهتمام النبي بابن عمه عليّ

كان النبي المصطفى ـ ولما يبعث بالنبوة بعدُ ـ وعمره ثلاثون سنة يحيط هذا الوليد الهاشمي بأكثر أنحاء الاهتمام والعناية، حتى كان يحمله ويسترفقه في نوادي قريش ـ في عرض متعمد ـ لبيان شدة العلاقة بل الالتصاق والتربية، ولقد تحدث عليّ عليه السلام عن هذا فقال: «ولقد علمتم موضعي من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالقرابة القريبة، والمنزلة الخصيصة، وضعني في حجره وأنا وليد، يضمني إلى صدره، ويكنفني في فراشه، ويمسني جسده، ويشمني عرفه، وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه، وما وجد لي كذبة في قول، ولا خطلة في فعل».[1]

هذا الاهتمام المبكر مع أنه لم يكن هناك حتى هذا الوقت نبوة

(1) الامام عليّ: نهج البلاغة ص 300 وقد استفاد بعضهم من هذه الكلمات عصمته عليه السلام.

فعلية ولا رسالة أو دعوة لا يمكن فهمه إلا في ضوء ما سبق ذكره من أنهما نور واحد، وأن هذا من الإعداد المبكر لشخصيته عليه السلام، حتى صار «أديب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم».[1]

ويكشف هذا النص عن المرحلة الزمنية التي جرت فيها هذه التفاصيل وهي فيما نعتقد دون الأربع سنوات من عمر عليّ عليه السلام. فكان النبي يأخذ عليًّا من منزله ويهتم به ذلك الاهتمام الكبير.

وربما يكون في السنة الخامسة من عمر عليّ، والخامسة والثلاثين من عمر رسول الله صلى الله عليهما وآلهما عندما أخذ المصطفى عليًّا من منزله بشكل كامل، ليُقرّه في بيته (وكان قد مرَّ على زواجه بخديجة نحو عشر سنوات). فقد مرّ على قريش سنة جدباء، فمر النبي ـ والعباس بن عبد المطلب ـ على أبي طالب واقترحا عليه أن يخففا عنه عبء عياله، فضم العباس إليه جعفرًا وأخذ النبي المصطفى عليًّا إلى منزله.

ويتكلم الإمام عن هذه المرحلة بقوله: «ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل أثر أمه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علمًا، ويأمرني بالاقتداء به، ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء، فأراه ولا يراه غيري[2]».

(1) البروجردي؛ حسين: جامع أحاديث الشيعة 13/ 615. «أنا أديب الله وعليّ أديبي».
(2) نهج البلاغة، ص 300.

وعلى رأس الأربعين من عمر رسول الله ﷺ، والعاشرة من عُمر عليّ كانت بعثة رسول الله بالرسالة.

5/ عليٌّ من بعثة النبي إلى هجرته

هل يمكن أن نقول أسلم عليّ؟ أو آمن؟ ومتى لم يكن كذلك؟ على كل حال فقد كان الأول الذي عرض عليه الإيمان بنبوة النبي محمد ﷺ، وبالطبع كان الأول الذي أظهر اعتقاده بالله الواحد الأحد وبنبيه المبعوث للناس كافة. والتركيز على هذه الأولية المطلقة كان منهج أهل البيت بينما إفساد هذه الأولية المطلقة بجعلها نسبية كانت طريقة المنهج الأموي.

فقد حاول ذلك المنهج أن ينكر أن عليًّا هو الأول، ولكن هل يمكن حجب الشمس؟ فسعى بعد ذلك لتنسيبها، فقال: نعم هو أول من أسلم! لكن من الصبيان. وأول من أسلم من الرجال فلان! وأول من أسلم من العبيد فلتان! وأول من أسلم من الحبشة كذا! وبهذه الطريقة حاولوا إسقاط أولية إسلامه. وإعطائها لغيره[1] ثم تقدم ذلك الاتجاه الأموي خطوة أخرى فقالوا شتان

(1) أسد الغابة، ج 1، ابن الأثير، ص 91 الطريف أن ذلك مروي على لسان أمير المؤمنين ﷺ، فهم يقولون أنه يوم قبض أبو بكر: «جاء عليّ بن أبي طالب ﷺ مسرعًا باكيًا مسترجعًا وهو يقول اليوم انقطعت خلافة النبوة حتى وقف على باب البيت الذي فيه أبو بكر ثم قال رحمك الله يا أبا بكر كنت أول القوم إسلامًا وأخلصهم إيمانًا وأكثرهم يقينًا وأعظمهم غناء..».

بين إسلام شخص ناضج كبير السن، وبين إسلام صبي غير بالغ! والتقدم إذن سيكون لإسلام الناضج البالغ! فألغوا هذه الميزة عنه عليه السلام في مرحلتين.

في المقابل ركز اتجاه أهل البيت على هذه الجهة: فقد ذكرها الإمام عليّ عليه السلام مرارًا وبحزم[1] كما أكدها أئمة الهدى عليهم السلام في مناسبات متكررة بالإضافة للمؤرخين الأثبات.

خليفة النبي وإمام ووصي من يوم الدار

في السنة الثالثة لبعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أعلن النبي في عشيرته الأقربين بأن عليًّا هو خليفته ووصيه والإمام على الخلق بعده، وكان هذا مفاجئًا لهم، حيث فيهم أولو السّنّ والجاه، فنصبه كذلك على الجميع. كما سوف يكون محرجًا لمن بعدهم ممن زعموا أن إسلام عليّ بن أبي طالب أدنى درجة من إسلام البعض من كبار السن! فإذا بالنبي في (ضربة معلم) يقول لهم إن إسلام

(1) في موسوعة الإمام عليّ عليه السلام؛ للري شهري 5/ 220 نقل الروايات في هذا، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أَوَّلُ المُؤمِنينَ إسلاما، وأخلَصُهُم إيمانًا... عَلِيُّ بنُ أبي طالِبٍ» وعن عليّ عليه السلام قوله: «أنَا الصِّدّيقُ الأَكبَرُ، وأنَا الفاروقُ الأَوَّلُ، أسلَمتُ قَبلَ إسلامِ النّاسِ، وصَلَّيتُ قَبلَ صَلاتِهِم» وعن الإمام الصادق عليه السلام في زيارة جده أمير المؤمنين: «كُنتَ أوَّلَ القَومِ إسلامًا، وأخلَصَهُم إيمانًا». وفي فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل2/ 590 عن زيد بن أرقم وابن عباس عن النبي: أن عليًّا أول من أسلم وأول من صلى مع رسول الله!

صغير السن[1] هذا لا يمنع تعيينه حتى من الولاية والإمامة والوصاية على الناس بعد الرسول.

ولم يكن هذا التعيين صوريًّا أو نظريًّا، بل بدأ الإمام ـ الوصي عمله في حماية النبي ﷺ، ومرافقته الدائمة، وصلاته[2] معه وتحت سمع ونظر القرشيين.

ونحن نلحظ أن النبي كلف عليًّا عليه السلام في ترتيب أمر الدعوة لبني عبد مناف، وأن يصنع لهم طعامًا.[3] مع أن فيهم أعمامه ولهم الشوكة والقدرة وفي المقابل كان الإمام صغير السن!

---

(1) سوف يأتي في الحديث عن سيرة الإمام الجواد عليه السلام أن الإمامة الإلهية لا تتقيد بكبر السن ولا يمنعها صغر السن. فقد يكون شخص ابن سبعين سنة ولا يكون مؤهلًا لها ويكون ابن سبع مؤهلًا لها، وهنا النبي نصب عليًّا وأعلن عنه منذ ذلك الحين.

(2) النسائي؛ أحمد بن شعيب: خصائص عليّ ص23؛ وقد ذكر فيه رواية عفيف ووصفه لصلاة النبي وعليّ وخديجة تلقاء الكعبة وأن العباس بن عبد المطلب في نهاية ذلك قال:.. أَتَدْرِي من هَذَا الشَّاب؟ فَقلت: لَا! فَقَالَ: هَذَا مُحَمَّد بن عبد الله بن عبد الْمطلب هَذَا ابْن أخي وَقَالَ أَتَدْرِي من هَذَا الْغُلَام فَقلت لَا قَالَ عَليّ بن أبي طَالب بن عبد الْمطلب هَذَا ابْن أخي هَل تَدْرِي من هَذِه الْمَرْأَة الَّتِي خلفهمَا قلت لَا قَالَ هَذِه خَدِيجَة ابْنة خويلد زَوْجَة ابْن أخي هَذَا حَدثنِي أَن رَبك رب السَّمَاوَات وَالْأَرْض أمره بِهَذَا الدّين الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ وَلَا وَالله مَا على ظهر الأَرْض كلهَا أحدٌ على هَذَا الدّين غير هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَة».

(3) الطبري؛ محمد بن جرير: تفسير جامع البيان 19/ 409 «عن عليّ بن أبي طالب: لما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[الشعراء: 214] دعاني رسول الله ﷺ، فقال لي: «يا عليُّ، إنَّ الله أمَرَنِي أنْ أُنْذِرْ عَشِيرَتِي الأقْرَبِين»، قال: «فضقت بذلك ذرعًا، وعرفت أنى متى ما أنادهم بهذا الأمر أَرَ منهم ما أكره، فصمتُّ حتى جاء جبرائيل، فقال: يا محمد، إنك إلا تفعل ما تؤمر به يعذّبك ربك. فاصنع لنا صاعًا من طعام، واجعل عليه رجل شاة، واملأ لنا عسًّا من لبن، ثم اجمع لي بني عبد المطلب، حتى أكلمهم، وأبلغهم ما أمرت به»، ففعلت ما أمرني به».

واستمر علي عليه السلام في الدفاع عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وخصوصا في ردع الأطفال الذين كان يغريهم آباؤهم بإيذاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم.[1] وتعاظم هذا الدور مع وفاة أبيه أبي طالب في السنة العاشرة للبعثة النبوية. حيث صعّدت قريش من إيذائها للنبي حتى قال: ما نالت مني قريش إلا عندما مات عمي أبو طالب.

وبعد ثلاث سنوات من هذا (في السنة الثالثة عشر من البعثة) عزم النبي صلى الله عليه وآله وسلم على الهجرة، فحول إليه أماناته وعهوده.

وبات عليّ في فراش النبي في منقبة باهى الله بها ملائكته العظام،[2] ليخرج النبي قاطعًا الطريق آمنًا نحو المدينة المنورة،

(1) الأمين؛ السيد محسن: أعيان الشيعة 3/ 24 روى عليّ بن إبراهيم القمي في تفسيره إن طلحة العبدري لما طلب المبارزة يوم أحد برز إليه عليّ عليه السلام فقال له طلحة: من أنت يا غلام؟ قال: أنا عليّ بن أبي طالب! قال: قد علمت يا قضيم! أنه لا يجسر عليّ أحد غيرك! الحديث، ثم روى بسنده عن الصادق عليه السلام انه سئل عن معنى قول طلحة يا قضيم! فقال ان رسول الله ص كان بمكة لم يجسر عليه أحد لمكان أبي طالب وأغروا به الصبيان، فكان إذا خرج يرمونه بالحجارة والتراب، فشكا ذلك إلى عليّ عليه السلام، فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! إذا خرجت فأخرجني معك فخرج معه، فتعرض له الصبيان كعادتهم، فحمل عليهم عليّ عليه السلام، وكان يقضمهم في وجوههم وآنافهم وآذانهم فكانوا يرجعون باكين إلى آبائهم ويقولون قضمنا عليّ! فسمي لذلك القضيم.

(2) الجزري؛ ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة 3/ 601 «...فأوحى الله إليهما أَفَلا كُنْتُمَا مِثْلَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ؟! آخَيْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَبِيِّي مُحَمَّدٍ، فَبَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ، يُفْدِيهِ بِنَفْسِهِ، وَيُؤْثِرُهُ بِالْحَيَاةِ، اهْبِطَا إِلَى الأَرْضِ فَاحْفَظَاهُ مِنْ عَدُوِّهِ فَنَزَلا، فَكَانَ جِبْرِيلُ عِنْدَ رَأْسِ عَلِيٍّ، وَمِيكَائِيلُ عِنْدَ رِجْلَيْهِ، وَجِبْرِيلُ ينادى: بخ بخ! من مثلك يا ابن أَبِي طَالِبٍ يُبَاهِي اللَّهُ عز وجل بِهِ الْمَلائِكَةَ!!؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عز وجل عَلَى رَسُولِهِ، وَهُوَ مُتَوَجِّهٌ إِلَى الْمَدِينَةِ فِي شَأْنِ عَلِيٍّ: وَمن النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ الله.

وهجم عليه من انتخبتهم قريش من شبابها الأشداء من كل القبائل حتى يضيع دم النبي فيما زعموا، وقد واجههم عليّ ليهزمهم وهم نحو خمسين مقاتلا.

أول ممارسة لخلافة النبي ووصايته

أوصى النبي عليًّا عليه السلام أن يخرج على قريش بعد أيام من خروج النبي للمدينة (حتى يضمن وصوله لها) بأن يقوم على رؤوس قريش ويخبرهم بأنه خارج من مكة إلى المدينة بعد حين، وأن أمانات محمد رسول الله هي بيده، فمن كان له عند النبي أمانة أو وديعة فليأت ويستلمها منه ـ من عليّ ـ قبل أن يخرج للمدينة!

وربما كانت الصفعة الموجهة لكبرياء قريش وجبروتها أكبر من سلامة وصول النبي للمدينة! فقريش الطاغية لم يكن لديها مانع أن يخرج أي شخص منها سرًّا إلى أي مكان، إذ لا يضر ذلك بكبريائها! ولا يحطم عزتها! لكن أن يأتي شاب في الثالثة والعشرين أو نحوها ويخبرهم بأنه خارج بعد ثلاثة أيام مثلا، علانية ومعه الفواطم وثقل رسول الله! فهو أمرٌ في غاية الخطورة! لأنه بمعنى أن يقول إنكم لا تساوون عندي شيئًا!

وكان هذا العمل من رسول الله بمثابة تفعيل لوصايته إياه، وما جرى في يوم الدار من أنه «وصيه وخليفته ووارثه».

6/ أول قتال من عليٍّ لقريش

سجل التاريخ لعليّ أول قتال مع قريش ولم يعلم بسيف قد سُل في الإسلام قبل سيفه في مواجهتها، وهو في نفس سنة الهجرة النبوية، وذلك هو ما رواه شيخ الطائفة الطوسي في الأمالي بقوله: «وصل كتاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى أمير المؤمنين عليه السلام يأمره بالخروج والهجرة، فأَعْلَمَ مَنْ كان معه من ضعفاء المؤمنين، وأمرهم أن يتسللوا، ويتخفوا تحت جنح الليل إلى ذي طوى، وخرج عليه السلام بفاطمة بنت الرسول، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم، وفاطمة بنت الزبير بن عبد المطلب، وتبعهم أيمن ابن أم أيمن مولى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأبو واقد، فجعل يسوق بالرواحل فأعنف بهم، فأمره عليه السلام بالرفق، فاعتذر بخوفه من الطلب.

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: أربع عليك، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لي: يا عليّ أما إنهم لن يصلوا من الآن إليك بأمر تكرهه.

وأدركه الطلب قرب ضجنان، وهم سبع فوارس متلثمون، وثامنهم مولى للحارث بن أمية، يدعى جناحًا. فأنزل عليٌّ عليه السلام النسوة، وأقبل على القوم منتضيًا السيف، فأمروه بالرجوع، فقال: فإن لم أفعل؟!

قالوا: لترجعن راغمًا أو لنرجعنّ بأكثرك شعرًا، وأهوِن بك من هالك.

ودنا الفوارس من المطايا ليثوروها، فحال عليّ عليه السلام بينهم وبينها، فأهوى جناح بسيفه، فراغ عليّ عليه السلام عن ضربته، وتختله عليّ عليه السلام فضربه على عاتقه، فأسرع السيف مضيًا فيه، حتى مس كاثبة فرسه، وشد عليهم بسيفه، وهو يقول:

خلوا سبيل الجاهد المجاهد آليت لا أعبد غير الواحد

فتصدع القوم عنه، وقالوا: أغن عنّا نفسك يا بن أبي طالب[1]

بعد أيام من السير الحثيث والمجهد وصل عليٌّ ومعه ركب الفواطم ومن التحق به من ضعفاء المسلمين إلى قباء في طرف المدينة حيث كان ينتظره النبي أيامًا حتى وصل، ولم يدخل وسطها من دونه!

ومع وصوله انشغل بترتيب مسكن له مع أمه فاطمة بنت أسد، وأخذ وعمره نحو 24 سنة يعمل لتحصيل القوت غير متكل على قرابته من النبي، مخلفًا في ذلك درسًا لمن يريد أن يتعلم. فكان يعمل في النخل ويصرف على نفسه ووالدته من ذلك.

7/ زواج عليّ بفاطمة الزهراء

في السنة الثانية للهجرة، وقد أصبح سنٌّ عليٌّ عليه السلام خمسًا

(1) الطوسي؛ محمد بن الحسن شيخ الطائفة: الأمالي ص 500.

وعشرين سنة، وبعد أن فتح الله على نبيه في غزوة بدر وبرز من علي ما برز من البطولة والشجاعة، عقد عليٌّ على فاطمة في قصة شيقة، نشير لها باختصار مع أنها تستحق التفصيل لما حصل فيها من التعمية على تفاصيلها المهمة.

وحاصل ذلك أن فاطمة بعد أن دخلت العاشرة من السنين ـ وكانوا يتزوجون في هذا العمر ـ أراد غير واحد من أصحاب النبي الاقتران بها، فلا ريب أنها مطمح كل أحد لما كانت عليه من الكمال، ولنسبتها لرسول الله، ومن الطبيعي أن من يكون صهر الرسول ـ الحاكم على المدينة، سيحوز على المكانة الدينية والدنيوية.

وفي شهر رمضان عقد النبي نكاح فاطمة ـ بعد أمر الله ـ لعليّ، وفي شهر ذي الحجة كان زفافها إليه عليهما السلام.

ونسجل هنا النقاط التالية:

أ/ أن هذا التزويج من النبي لعليّ بفاطمة لم يكن لرأي رآه أو لأنه ابن عمها فقط وإنما كان المهم في ذلك أنه تزويج رباني[1] وبالتالي لا يمكن مقارنة غيره به، كما صنع بعضهم

(1) اليعقوبي؛ أحمد بن أبي يعقوب: تاريخ اليعقوبي 2/ 41 «وقد كان جماعة من المهاجرين خطبوها إلى رسول الله، فلما زوجها عليًّا قالوا في ذلك، فقال رسول الله: ما أنا زوجته ولكن الله زوجه».
وفي المعجم الكبير للطبراني 10/ 156 عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أُزَوِّجَ فَاطِمَةَ مِنْ عَلِيٍّ».

عندما قارن زواج علي بفاطمة بزواج عثمان برقية أو نحو ذلك فالفارق كبير جدًا. فمن جهة كان ربانيًّا وكان عليٌّ الشخصَ الوحيدَ المكافئ لفاطمة إذ لولاه لما كان لفاطمة كفؤ.[1]

ب/ من نفس المنطلق وجدنا أن النبي ﷺ قد رد كل من تقدم من أصحابه[2] طالبًا يد فاطمة وقال إنه ينتظر أمر الله عزوجل فيها، حتى إذا جاء عليّ في نفس اليوم رحّبَ به ورتب أمر الزواج.

ج/ إن هذا الزواج كان ضمن الخط الإلهي الذي يربط بين عليٍّ والنبي ﷺ، والذي كان كما قلنا قبل ميلادهما وأنهما كانا نورين، فكل ما سيأتي سيكون منسجمًا مع هذا الخط بل

(1) الطوسي؛ محمد بن الحسن شيخ الطائفة: تهذيب الأحكام 7/ 470 عن أبي عبد الله ﷺ قال: «لولا أن الله خلق أمير المؤمنين لم يكن لفاطمة ﷺ كفو على ظهر الأرض آدم فمن دونه».

(2) البُستي؛ محمد بن حبان: صحيح ابن حبان: التقاسيم والأنواع 4/ 204: «عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: جَاءَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَعَدَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، قَدْ عَلِمْتَ مُنَاصَحَتِي وَقِدَمِي فِي الإِسْلَامِ وَأَنِّي وَأَنِّي، قَالَ: «وَمَا ذَاكَ؟ «قَالَ: تُزَوِّجُنِي فَاطِمَةَ، قَالَ: فَسَكَتَ عَنْهُ، فَرَجَعَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى عُمَرَ، فَقَالَ لَهُ: قَدْ هَلَكْتُ وَأُهْلِكْتُ، قَالَ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: خَطَبْتُ فَاطِمَةَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَعْرَضَ عَنِّي، فَقَالَ: مَكَانَكَ حَتَّى آتِيَ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَطْلُبَ مِثْلَ الَّذِي طَلَبْتَ، فَأَتَى عُمَرُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَعَدَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، قَدْ عَلِمْتَ مُنَاصَحَتِي وَقِدَمِي فِي الإِسْلَامِ، وَأَنِّي وَأَنِّي، قَالَ: «وَمَا ذَاكَ؟ «قَالَ: تُزَوِّجُنِي فَاطِمَةَ، فَسَكَتَ عَنْهُ، فَرَجَعَ عمر إِلَى أَبِي بَكْرٍ، فَقَالَ لَهُ: إِنَّهُ يَنْتَظِرُ أَمْرَ الله فِيهَا، قُمْ بِنَا إِلَى عَلِيٍّ حَتَّى نَأْمُرَهُ يَطْلُبُ مِثْلَ الَّذِي طَلَبْنَا.

قَالَ عَلِيٌّ: فَأَتَيَانِي وَأَنَا أُعَالِجُ فَسِيلًا لِي، فَقَالَا: إِنَّا جِئْنَاكَ مِنْ عِنْدِ ابْنِ عَمِّكَ بِخِطْبَةٍ، قَالَ عَلِيٌّ: فَنَبَّهَانِي لأَمْرٍ، فَقُمْتُ أَجُرُّ رِدَائِي، حَتَّى أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَعَدْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، قَدْ عَلِمْتَ قِدَمِي فِي الإِسْلَامِ وَمُنَاصَحَتِي، وَأَنِّي وَأَنِّي، قَالَ: «وَمَا ذَاكَ؟» قُلْتُ: تُزَوِّجُنِي فَاطِمَةَ، قَالَ: «وَعِنْدَكَ شَيْءٌ؟»...»

الخطة الإلهية. فإنه منهما سيقدر الله سبحانه أن يكون للرسول امتداد نسبي وبقاء في العترة والذرية (كل نبي ذريته من صلبه وذريتي من صلب عليّ)، وسيكون (أهل البيت) هذا هم ورثة علم النبي وفيهم ستكون الإمامة الممتدة.

د/ إنه قد جاء في خطبة النكاح التي تلاها النبي المصطفى ما يلي: «وقد أمرني الله أن أزوّج فاطمة من عليّ، وإنّي أشهد أني قد زوجتها إياه على أربعمئة مثقال فضة، أرضيت؟ فردّ الإمام عليٌّ: قد رضيت يا رسول الله» ومع أن الفقهاء قد أوردوا مهر فاطمة في باب استحباب قلة المهر، ولا ريب في ذلك الأمر كمبدأ في مقابل المغالاة في المهور وهو الأمر الذي يعيق عن المبادرة إلى الزواج. إلا أن هناك مجالًا للتأمل في الاستشهاد بما ذكر من الأربعمائة درهم فإنه عند حسابها لا على أساس العدد، وإنما على أساس قيمتها الشرائية في ذلك الوقت تكون الأربعمائة تلك مقدارًا مهمًّا، وذلك أن قيمة الشاة في ذلك الوقت كانت نحو دينار[1] والدينار هو عشرة دراهم، فيكون مهرها عليها السلام تعادل قيمته الشرائية نحو أربعين شاة وهو شيء ليس بالقليل وقد ذكرنا تفصيل ذلك في كتابنا: إني فاطمة وأبي محمد.

(1) البخاري؛ محمد بن إسماعيل: صحيح البخاري 4/ 207: عن عُرْوَةَ البارقي «أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله أَعْطَاهُ دِينَارًا يَشْتَرِي لَهُ بِهِ شَاةً فَاشْتَرَى لَهُ بِهِ شَاتَيْنِ فَبَاعَ إِحْدَاهُمَا بِدِينَارٍ وَجَاءَهُ بِدِينَارٍ وَشَاةٍ فَدَعَا لَهُ بِالْبَرَكَةِ فِي بَيْعِهِ وَكَانَ لَوِ اشْتَرَى التُّرَابَ لَرَبِحَ فِيهِ».

بالطبع هذا هو المهر الظاهري وإلا فإن المهر الواقعي الذي تتحدث عنه الروايات، هو أمر تنحسر عنه العقول وتحار فيه!

هـ/ عاش عليّ وفاطمة عليهما السلام حياة زوجية استمرت من نهاية السنة الثانية للهجرة إلى حوالي منتصف السنة الحادية عشر، حيث كانت شهادتها عليها السلام، ورزقا فيها: الحسن والحسين وزينب وأم كلثوم، وأما محسن فقد أسقط في قصة الهجوم على الدار بعد وفاة رسول الله وقد تعرضنا لذلك في كتابنا: إني فاطمة وأبي محمد.

وقد احتوت هذه الأسرة على ما يمكن عده المثال الأفضل للحياة الزوجية لا سيما وأن طرفي الزواج كانا معصومين، وقد اختصرها الإمام عليه السلام بقوله: «فوالله ما أغضبتها، ولا أكرهتها على أمر حتى قبضها الله عز وجل، ولا أغضبتني، ولا عصت لي أمرًا، ولقد كنت أنظر إليها فتنكشف عني الهموم والأحزان»[1].

وبهذا القول الصريح فإنه يمكن شطب خط البطلان على كل الروايات الأموية والمتأثرة بالمنهج الأموي التي تتحدث عن مشاكل ومصاعب اعترضت علاقتهما الزوجية، الأمر الذي يكذبه عصمة الزوجين، وهو ما يعتقده الإمامية، بالإضافة إلى تصريح الإمام هذا.

(1) الإربلي؛ عليّ بن أبي الفتح: كشف الغمة في معرفة الأئمة 1/ 383.

8/ فارس الحروب ورجل المهمات الصعبة

في المدينة المنورة اضطلع أمير المؤمنين عليه السلام بالدور البارز في معارك النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فكأنّ تلك المعارك كانت مجلى لتميزه في الجهاد والشجاعة والفداء والمبادرة.

فكانت **معركة بدر سنة 2** للهجرة عنوان المدد الإلهي للمسلمين وفاتحة الكتاب في قرآن الانتصارات، وكان لواء المسلمين بيد عليّ بن ابي طالب. وباء بسملة المعركة كان قتل عليٍّ وحمزة وعبيدة (أبناء وأحفاد عبد المطلب) بني أمية وكبار قريش (شيبة وعتبة ابنا ربيعة وابنه الوليد)، وكان وسطها ما روي من أن عليًّا قتل نصف قتلى المشركين (كل القتلى 72).

وفي **معركة أحد سنة 3** للهجرة افتتحها عليّ بن أبي طالب بقتل حملة لواء المشركين طلحة بن أبي طلحة العبدري، الذي خرج متحديّا المسلمين أن يكون أحد منهم يعجله سيفه إلى الجنّة! فعجّله عليٌّ بسيفه إلى النار، ثم تلاه أخوه عثمان الذي قتله حمزة بن عبد المطلب، وأخوه أبو سعيد.. وهكذا إلى سبعة من بني عبد الدار، كان يتقاسم قتلَهم عليٌّ وحمزة، وكأنّ لواء المشركين كان شؤمًا فما حمله أحد إلا قتل!

وبعدما دارت الدائرة على المسلمين بعصيان الرماة أمرَ

رسول الله ونزولِهم عن الجبل، ومقتل حمزة ومصعب، اشتدت الهجمة تجاه رسول الله، فوقف عليّ كثبات جبل أحد يصد عن النبي في قليل ممن بقي معه، والنبي ينادي بعليّ: احمل عليهم! فيفرقهم أبو الحسن حتى لقد نزل جبرئيل يثني على مواقفه قائلا: إنّ هذه لهي المواساة! فقال رسول اللّه ﷺ: إنّه منّي وأنا منه، فقال جبرئيل: وأنا منكما[1].

فنودي في السماء:

لا سيف إلّا ذو الفقار ولا فتى إلّا عليّ[2]

وأما معركة الخندق (الأحزاب) في سنة 5 للهجرة فيكفيك وصف القرآن صورةً، عندما خطر عمرو بن عبد ود العامري بين المسلمين بعدما اقتحم الخندق وعبره، ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ (*) هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾[3] وكان

(1) بن حنبل؛ أحمد: فضائل الصحابة 2/ 657. عن عليّ قال: لما كان يوم أُحد وفرّ الناس فقلت: ما كان النبي ﷺ ليفر، فحملت على القوم، فإذا أنا برسول الله، فقال جبريل: إن هذه لهي المواساة، فقال النبي ﷺ: «إنه مني، وأنا منه»، فقال جبريل: وأنا منكما.

(2) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 2/ 514. «فَسَمِعُوا صَوْتًا:

لا سَيْفَ إِلا ذُو الْفَقَارِ وَلا فَتًى إِلا عَلِيٌّ»

(3) الأحزاب: 10ـ11.

سيف عليٍّ بانتظاره عندما خرج إليه تشيّعه كلمات أخيه وابن عمه النبي: «برز الإيمان كله إلى الشرك كله»، وما كان إلا أن حسم عليّ رجلي عمرو ثم احتز رأسه! ليعلن بذلك أن لا قوام لأحد من المشركين بمواجهة عليّ بن أبي طالب، وكانت بداية هزيمة المشركين، من ضربته التي عدلت عبادة الثقلين: الانس والجن.

وفي سنة 7 للهجرة في معركة خيبر وقد أصبح عمره فيها نحو ثلاثين سنة: بعدما ذهب بعض أصحاب النبي في أيام متتالية فوقفوا أمام حصون خيبر عاجزين، ورجع كلٌّ منهم يجبّن أصحابه ويجبنونه، حتى قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: لأعطين الراية غدًا رجلًا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، كرّارًا غير فرّار لا يرجع حتى يفتح الله على يديه..

فأتاه الوصي أرمد عين فسقاه من ريقه فشفاها
ومضى يطلب الصفوف فولت عنه علمًا بأنه أمضاها
وبرى مرحبا بكف اقتدار أقوياء الأقدار من ضعفاها
ودحى بابها بقوة بأس لو حمته الافلاك منه دحاها
إنما المصطفى مدينة علم وهو الباب من أتاه أتاها.[1]

وفي معركة حنين سنة 8 للهجرة يوم أن غرت المسلمين

(1) الأزري؛ الشيخ كاظم التميمي: الأزرية ص 62.

كثرتُهم، لكنهم ولّوا مدبرين والرسول يدعوهم في أخراهم، حتى وصل مالك بن عوف من زعماء الكفار قائلا: أروني محمدا! لكن كان سيف عليّ أسرع إلى رأسه حتى خرج يلمع من بين رجليه! ولما كمن أبو جرول ليقتل النبي بزعمه، كان عليّ أبو الحسن بانتظاره على المسلمين فضرب عجز بعيره فصرعه فقدّه ـ قسمه ـ نصفين.[1]

الموضع الوحيد الذي سكن فيه سيف عليّ عليه السلام كان:

معركة تبوك في سنة 9 للهجرة وهي آخر غزوات النبي صلى الله عليه وآله وسلم، حيث استخلفه النبي على المدينة المنورة (هل كان ذلك لأجل أن يتذكروا ولايته على المسلمين قبل سنة من وفاة النبي؟ وأن يقيمه مقامه قبل رحيله؟). وقد أرجف أعداء عليّ عليه السلام بذلك في أن النبي لا يريد عليًّا معه! (وتسأل لماذا؟ هل لأنه كان بطل الحروب السابقة؟) لكن الله سبحانه أراد أن يجعل من ذلك فضيلة ظاهرة يتمناها من يعرف قيمتها! فلما سمع النبي إرجافهم بذلك، قال لعليّ عليه السلام وأمام الملأ: أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي.[2]

(1) النقدي؛ جعفر: الأنوار العلوية ص 205.

(2) الحديث أشهر من أن يحتاج إلى ذكر مصادره، فقد أورده البخاري في صحيحه 5/ 19 ومسلم =

ورجل المهمات الصعبة والمختصة بالنبي

لم يكن عليّ بن أبي طالب رجلًا عسكريًّا ومقاتلًا شجاعًا فحسب، وإنما كان المؤدي عن رسول الله ما لا يؤديه غيره ولا يتيسر لغير عليّ بعد النبي.

وما قصة إسلام اليمن، ولا سورة براءة عنا ببعيد؛

فأما اليمن فقد استعصت على من قدم إليها، وأبت أن تسلم مفاتيح قلوبها ـ سلمًا أو حربًا ـ إلا للنبي أو لمن يكون كالنبي؛ فقد أرسل صلى الله عليه وآله وسلم في سنوات متعددة خالد بن الوليد، والطفيل بن عمرو، وخالد بن سعيد بن العاص.. لكن لم تستجب لهم قبائل اليمن، وعندما حاولوا القتال قوتلوا!

= كذلك 4/ 1870 وكثير غيرهما، وأما كتب الإمامية فما من كتاب يتعرض لمناقب الإمام عليّ عليه السلام إلا وذكره.

والمهم فيه التأمل والتدبر في ما هي تلك المنزلة؟ وقد عينها القرآن الكريم فقال حاكيًا عن لسان موسى عليه السلام ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي (*) هَٰرُونَ أَخِي (*) ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي (*) وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي (*) كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا (*) وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا (*) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا (*) قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾[طه: 29 ـ 36]، فأثبت له: الوزارة، والأخوة، والشراكة، ويضاف إلى ذلك ما جاء في آية أخرى ﴿ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾[الأعراف: 142]، فأثبت له خلافته..

بل إن من منازله: أن هارون لما كان أفضل قومه فإن الذي هو بمنزلته يكون كذلك، ومنها أنه الذي انتخبه بنفسه وسأل ربه أن يجعله معينًا له، ووزيرًا وشريكًا في أداء رسالته فالأمر إذن ربانيٌّ فهنا أيضًا كذلك، ومنها أنه لا شك في أن قول هارون حجة على قومه فكذلك من كان في منزلته قوله حجة على قوم رسول الله وهناك جهات أخرى قد نتعرض لها لاحقًا.

حتى إذا صعب الأمر، أرسل النبي ﷺ لهم عليًّا عليه السلام في شهر رمضان من السنة العاشرة، فإذا بقبائل همدان اليمنية ومن حولها تتلقف الدعوة المحمدية كما تتلقى الأرض العطشى غيث السماء! يتراكضون إلى الدين الإسلامي كما الهيم العطاش إلى الماء! حتى لقد أثر عن الإمام عليّ قوله في الثناء على هؤلاء:

فلو كنت بوابًا على باب جنة لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

وإذا كان منشور العلاقة بين المجتمع المسلم النبوي وبين المجتمع الكافر القرشي يحتاج إلى جهة تمثل الدين كاملًا فينبغي أن يكون ذلك من النبي نفسه أو من نفس النبي وهو عليّ، ولذلك فإنه لما نزلت سورة براءة وأخذها أحد أصحاب النبي ليقرأها على قريش نزل الأمين جبرئيل على النبي وأمره أن يسترجعَها وأن يعطيَها لعليّ بن أبي طالب فإنه لا يبلغها إلا رسول الله أو رجل منه كنفسه.[1] وكذلك مقالته الأخرى «لينتهين بنو وليعة أو لأبعثنّ إليهم رجلًا كنفسي طاعته كطاعتي ومعصيته كمعصيتي يغشاهم بالسيف».[2]

(1) بن حنبل؛ أحمد: فضائل الصحابة 2/ 599 عن حبشي بن جنادة السلولي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «عليّ مني، وأنا منه، لا يؤدي عني إلا أنا أو عليّ». وعن سعد بن أبي وقاص في حديثٍ «إِنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ أَبَا بَكْرٍ بِالْبَرَاءَةِ ثُمَّ بَعَثَ عَلِيًّا فَأَخَذَهَا مِنْهُ فرجع أبو بَكْرٍ كَابِتًا فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ: «لا يُؤَدِّي عَنِّي إِلا رَجُلٌ مِنِّي» فراجع السنة لابن أبي عاصم ومعها ظلال الجنة للألباني 2/ 609.

(2) الشيخ الصدوق: الخصال ص 555.

9/ مناقب لا تحصى

خلال هذه الفترة الزمنية الممتدة من أيام ولادته طوّق النبي عليًّا بأطواق المحمدة والثناء، وحلاّه بتيجان الكرامة، ولم يكن الباعث على ذلك علاقة الرحم والنسب، ولا الهدف منه الاعتزاز والفخر، وإنما الدافع له والغرض منه ﴿بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾[1] وكان بمثابة خارطة الطريق لهداية الناس للتي هي أقوم، وتعريفهم بالأئمة الذين ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾[2]، وإلا فإن الدنيا كلها لا تعدل عندهم شسع نعل فكيف يهتمون للفخر فيها وهو أهون ما فيها؟

لقد صرح النبي صلى الله عليه وآله وسلم، بأنّ «من أحب أن يحيا حياتي ويموت ميتتي ويدخل الجنة التي وعدني ربي، قضبانًا من قضبانها غرسها في جنة الخلد، فليتول عليّ بن أبي طالب وذريته من بعده، فإنهم لن يخرجوهم من باب هدى، ولن يدخلوهم في باب ضلالة»[3] وبأن عليًّا (سلمه سلمي وحربه حربي) وبأنه باب مدينة علمه[4] فمن أراد المدينة فليأتها من بابها وإلا عد سارقًا!.

(1) آل عمران: 138.

(2) السجدة: 24.

(3) الطبري؛ محمد بن جرير: تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، 11/ 589.

(4) النيشابوري؛ أبو عبد الله الحاكم: المستدرك على الصحيحين 3/ 137.

مئات الأحاديث بل آلافها، قالها رسول الله ﷺ، في جمع قليل تارة وفي جمع الغدير أخرى، في السلم حينًا وفي الحرب أحيانًا، مختصرة مرة ومفصلة أخرى..

ونحن إنما نريد أن نشير إلى بعض الجهات التي كانت في أحاديث النبي في شأن أخيه وابن عمه عليٍّ ونرجئ البحث التفصيلي فيها إلى ما بعد لنفرد لها موضوعًا خاصًّا.

- لقد لاحظنا أولًا كثرة تلك الأحاديث بنحو لم تستطع محاولات التعمية عليها والمعاقبة على نشرها، أيام الأمويين ثم العباسيين أن تخفيها، وكما قال بعضهم: «ما أقول في حقّ امرئ كتمت مناقبه أولياؤه خوفًا وأعداؤه حسدًا، ثمّ ظهر من بين الكتمين ما ملأ الخافقين»![1] فهي كثيرة للغاية تصعب على العد والحصر، وغرض ذلك أن يكون للناس سبيل هداية واضح حتى لو حاول الجاحدون كتمانه.
- كذلك لاحظنا تعدد مضامينها ومحتواها، فهي وإن كان كلٌّ منها يدل على المطلوب بالصراحة أو الملازمة وينتهي إلى تثبيت إمامة عليّ وولايته على المسلمين، إلا أنها ليست

(1) التستري، الشيخ محمد تقي: قاموس الرجال 4/ 201 : قيل للخليل بن أحمد الفراهيدي منشئ علم العروض : ما نقول في عليّ بن أبي طالب ؟ فقال..

بلسان واحد مكرر، وإنما بأساليب مختلفة وكيفيات متعددة، وغايتها واحدة.

وقد بدأت تلك الأحاديث ببيان مناقب الإمام من البدايات، وإلى ما قبل أيام من وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأوضحها كان في يوم الغدير قبل نحو سبعين يومًا التحاقه بالله عز وجل.

فمن حديث «يوم الدار» إلى «بمنزلة هارون من موسى» إلى حديث «لأعطين الراية..» إلى حديث «أحب خلقك إليك» وحديث «أنا مدينة العلم وعليّ بابها» وهكذا كونه «مع الحق والحق معه» وأنه «مع القرآن والقرآن مع عليّ» وغيرها..

وكما تقدم آنفا فإننا سنتعرض إليها ونرى كيف عدها المسلمون وكتبوا فيها؟ ونناقش سائر صفات تلك الأحاديث في بحث لاحق إن شاء الله تعالى.

10 / عليّ ووفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم

بعدما أدى النبي الأمانة على خير وجه وبلغ الرسالة البلاغ المبين ونصح الأمة بحدٍّ أشفق عليه خالقه[1] عرض عليه ما يعرض على كل حيٍّ من أمارات الموت. وسواء كان ذلك بفعل

(1) الكهف: 6 ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾.

فاعل وتسميم عدو، أو لم يكن فقد كان مخاطبًا من ربه ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾.[1]

وإذا كان الخلق قد أصيبوا برسول الله، فإن وقع المصيبة والخسارة على أهل بيته، وعلى كبيرهم عليّ عليه السلام كان هو الأعظم، ولقد وصف الوضع بالقول: «لما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بات آل محمد عليهم السلام بأطول ليلة حتى ظنوا أن لا سماء تظلهم ولا أرض تقلهم لأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتر الأقربين والأبعدين في الله»[2]

وزاد المصيبة أنها اقترنت برفض بعض أصحاب النبي أن يكتب لهم كتابًا فيه إمامة عليّ بن أبي طالب وبه لن يضلوا من بعده أبدًا، وانتهى الأمر إلى إبعاد أمير المؤمنين عليه السلام عن إمرته على الناس.

وكأنّ المصائب إذا جاءت يجر بعضها بعضًا، وكأنّ آل رسول الله لم يكفهم ما مرَّ بهم من وفاته وفقده، فقْدَ الأرض وابلَها، «ولم يمتثل أمر رسول الله في الهادين بعد الهادين».

وبالرغم من مرارة الإبعاد إلى الحد الذي شبهه أمير المؤمنين

(1) الزمر:30.

(2) الكليني؛ محمد بن يعقوب: الكافي 1/ 493.

عليّ عليه السلام بأنه «في العين قذى وفي الحلق شجى»[1] إلا أن الإمام الذي كان قد طفق يرتئي بين أن يصول بلا أنصار أو يصبر على الوضع الجديد وهو أشبه بتخبط الأعمى، رأى أن الصبر أحجى وأفضل، وقال: «لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَحَقُّ النَّاسِ بِهَا مِنْ غَيْرِي - ووَاللَّه لأُسْلِمَنَّ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ - ولَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إِلَّا عَلَيَّ خَاصَّةً - الْتِمَاسًا لأَجْرِ ذَلِكَ وفَضْلِه - وزُهْدًا فِيمَا تَنَافَسْتُمُوه مِنْ زُخْرُفِه وزِبْرِجِه».[2]

صبره عليه السلام وسكوته لم يكن عن جبن عن المواجهة.. كيف وهو فارس الحرب القائل: «لو تظاهرت العرب على قتالي.» كما لم يكن عن قناعة بحسن إدارة من جاء بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وإنما أمسك يده - كما قال - «حَتَّى رَأَيْتُ رَاجِعَةَ النَّاسِ قَدْ رَجَعَتْ عَنِ الإِسْلَامِ يَدْعُونَ إِلَى مَحْقِ دَيْنِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم فَخَشِيتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرِ الإِسْلَامَ وأَهْلَه أَنْ أَرَى فِيه ثَلْمًا أَوْ هَدْمًا تَكُونُ الْمُصِيبَةُ بِه عَلَيَّ أَعْظَمَ مِنْ فَوْتِ وِلَايَتِكُمُ».[3]

وكانت خلافة الخليفة الأول بداية مسيرة سوف تستمر

(1) نهج البلاغة ص 48.
(2) نهج البلاغة ص 102.
(3) نهج البلاغة ص 451.

نحو ربع قرن من الزمان، ابتعدت فيها القيادة وأمور الشرع عن هداية عليّ عليه السلام (إلا ما سيأتي الحديث عنه)، وقد أوجز أمير المؤمنين عليه السلام تقييمه لتلك السنوات في خطبته بعد ولايته الظاهرية، المعروفة بالشقشقية، والتي قد نأتي على شرحها فيما بعد لأهميتها في معرفة موقف الإمام عليه السلام تجاه تلك القيادات.

11/ علاقة الإمام عليّ عليه السلام بالخلفاء الأوائل

في نفس الوقت الذي كان الإمام عليه السلام متأثرًا من الحركة التي دبرها ونفذها الحزب القرشي[1] وانتهت إلى إقصائه وأهل بيته عن قيادة الأمة، والتي سجل تشكيه من تلك الحركة المدبرة حتى بعد خمس وعشرين سنة في خطبته الشقشقية، كما سجل تشكيه من الحزب القرشي حتى بعد وصول الخلافة إلى الإمام على رغم إرادة ذلك الحزب «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ عَلَى قُرَيْشٍ ومَنْ أَعَانَهُمْ - فَإِنَّهُمْ قَطَعُوا رَحِمِي وصَغَّرُوا عَظِيمَ مَنْزِلَتِيَ - وأَجْمَعُوا عَلَى مُنَازَعَتِي أَمْرًا هُوَ لِي -».[2]

مع كل ذلك فقد أبدى عليه السلام مواقف نبيلة تتناسب مع كونه وارث

(1) قد لا يكون حزبًا بالمعنى الحديث للحزب الذي يشتمل على دستور مكتوب واجتماعات منظمة ورئاسة معروفة.. الخ. ولكن لا ريب أنه كان تجمع لأشخاص تتوافق آراؤهم وتطلعاتهم وطريقة حياتهم، ويتشاركون في مصالحهم.

(2) نهج البلاغة ص 246.

النبي المصطفى والحارس الأمين على شريعته، وولي الأمر بعده، وهل يجدر به غير النُبْل؟ وهل يصدر منه الّا الحق؟

هذا مع أن جرحه بالزهراء البتول لما يندمل، وحزنه لما يبرد! ولكن يكفي أنه عليّ بن أبي طالب الذي لو اجتمع على محبته الخلق وطاعته لما خلق الله النار كما هو مفاد أحاديث وروايات.

- فقد محضهم النصح في المشورة؛ سواء كانت في الأحكام الشرعية التي كان فيها «أعلمهم وأقضاهم» فكم قالوا بعدها: لولا عليّ لهلك الخليفة! ولا أبقاهم الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن! بل في الخطط العسكرية المهمة كما نقل في استشارة الخليفة عمر إياه في الشخوص لقتال الفرس-فنصحه بألّا يخرج لكيلا تنتقض عليه العرب من أطرافها، وكذلك فإن الأعاجم المعادين إذا رأوه في قيادة الجيش اشتد عزمهم على قتله واستئصاله!. [1]
- وأذن لأصحابه بأن يعملوا في جهاز الخلافة الفعلي وإن كان هناك كلام في أصل شرعيتها، فكان عبد الله بن عباس تلميذه

(1) نهج البلاغة ص 203 «فكن قطبًا، واستدر الرحى بالعرب، وأصلهم دونك نار الحرب، فإنك إن شخصت من هذه الأرض انتقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها، حتى يكون ما تدع وراءك من العورات أهم إليك مما بين يديك إن الأعاجم إن ينظروا إليك غدا يقولوا هذا أصل العرب فإذا قطعتموه استرحتم، فيكون ذلك أشد لكلبهم عليك وطمعهم فيك».

البارز أشبه برئيس مجلس شورى الفقه والفتوى حيث اقتنع به الخليفة الثاني غاية الاقتناع.

- وعندما حدثت حادثة الردة من قبل طليحة الأسدي، وكانت البيئة الحاضنة له والمتعاونة معه قبيلة طي، انتخب عليّ عليه السلام أحد خلص أصحابه وهو عدي بن حاتم الطائي[1] ليساعد الخلافة في تشتيت قوته، وبالفعل فقد ذهب إليهم واستطاع أن يقنع الكثير منهم بخطل دعوة طليحة وبعدها عن الصواب.[2]

- بل يشير بعض الباحثين[3] إلى قسمًا مهمًّا من القادة العسكريين الذين شاركوا في الفتوح الإسلامية، كانوا من أولياء أمير المؤمنين عليه السلام، ولم يكن متصورًا أن يخرجوا فيها إلا بعد مشورته. وهكذا الحال في ولاة المناطق وقضاتها..

(1) عدي بن حاتم الطائي، من خلص أصحاب الإمام عليّ بن أبي طالب، كان إسلامه سنة 9هـ، وشهد فتح العراق، ثم سكن الكوفة وشهد الجمل وصفين والنهروان مع الإمام، وفقئت عينه في صفين، وهو ابن حاتم الطائي الذي يضرب به المثل بجوده، قيل: عاش أكثر من مائة سنة وتوفي بالكوفة سنة 68هـ.

(2) الواقدي؛ محمد بن عمر: كتاب الردة ص63.

(3) الكوراني؛ الشيخ عليّ: جواهر التاريخ 3/ 324 فإنه في تعليله لعدم وجود فتوحات جدية في أيام معاوية بن أبي سفيان ذكر أسبابًا، كان **منها**: «ثالثًا؛ أن قادة الفتوحات الميدانيين الشجعان كانوا شيعة عليّ عليه السلام إلا عددًا قليلًا جدًّا، وقد قتل أكثرهم في صفين، أو هرموا، أو كانوا معادين لمعاوية. وهذه حقيقة تحتاج إلى دراسة خاصة. **ورابعًا**، لأن فتوحات معاوية التكميلية في إيران والهند تعثرت وفشلت، ولم يتواصل منها إلا فتوحات موسى بن نصير وعقبة بن نافع الشيعيين».

- وهكذا تصحيحه للأخطاء التي كان يقع فيها جهاز الخلافة، من النواحي الشرعية مما سجل التاريخ كثيرًا منها، ويكفيك أن تبحث في كلمة «لولا عليّ لهلك عمر» أو «لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن»،[1] وقد سجله أيضًا أتباع مدرسة الخلفاء لغاية خاصة وهي إظهار أن أمير المؤمنين كان منسجما تمام الانسجام مع الخلافة ومعترفا بشرعيتها، والحال أن لم يكن كذلك وإنما بغرض الحفاظ على كيان الإسلام العام، وتصحيح ما يمكن تصحيحه حتى مع كون المياه في غير مصبها الحقيقي.

وسيأتي بحث خاص في هذا الموضوع بتفاصيله إن شاء الله.

12 / عليّ بن أبي طالب خليفة ظاهري بعد 25 سنة

يعتقد الإمامية بأن عليًّا بن أبي طالب عليه السلام هو إمام أمة الإسلام منذ أن كان محمد بن عبد الله نبيها، وأنهما كانا نورًا واحدًا في

(1) ابن عبد البَر؛ يوسف بن عبد الله: الاستيعاب في معرفة الأصحاب 3/ 1103: عن سعيد بن المسيّب، قال: كان عمر يتعوذ باللَّه من معضلة ليس لَهَا أَبُو حسن. وقال فِي المجنونة التي أمر برجمها وفي التي وضعت لستة أشهر، فأراد عُمَر رجمها- فَقَالَ لَهُ عليّ: إن الله تعالى يَقُول: وحمله وفصاله ثلاثون شهرًا ... الحديث. وَقَالَ لَهُ: إن الله رفع القلم عَنِ المجنون ... الحديث، فكان عُمَر يَقُول: لولا عليّ لهلك عمر. وقد روي مثل هذه القصة لعثمان مع ابن عبّاس، وعن عليّ أخذها ابن عبّاس، والله أعلم وروى عبد الرحمن بن أذينة الغنوي، عَنْ أَبِيهِ أذينة بْن مسلمة، قَالَ: أتيت عُمَر بْن الخطاب فسألته: من أين أعتمر؟ فَقَالَ: إيت عليًّا فسله، فذكر الحديث ... وفيه قَالَ عُمَر: مَا أجد لك إلا مَا قَالَ عليٌّ.

عالم الأزل حتى انقسم في عبد المطلب فذهب قسم من ذلك النور في عبد الله وقسم آخر في أبي طالب، وكان محمد هو النبي المبعوث رحمة للعالمين، بينما كان عليّ بن أبي طالب وزيرًا له ووصيًّا وإمامًا على الخلق من بعده.

لكن جرت رياح الأحداث بما لا تشتهي سفن المؤمنين فأُخِّر الإمام (بل أُخّرت الأمة عن حظها) خمسًا وعشرين سنة.

وبعد أن ذاق الناس ما ذاقوا جاؤوا كالهيم العطاش إلى معين أمير المؤمنين، واجتمعوا عليه (كعرف الضبع) وعنده (كربيضة الغنم).

وبدأ الإمام ببرنامجه الإصلاحي، وكان واضحًا من البداية أن لا مساومة على إجراء حدود الله، ولا محسوبية في حقوق خلق الله، وقد فهم هذا الصغير من المسلمين والكبير؛ فها هو يقول بصراحة «واللَّه لَوْ وَجَدْتُه قَدْ تُزُوِّجَ بِه النِّسَاءُ ومُلِكَ بِه الإِمَاءُ ـ لَرَدَدْتُه ـ فَإِنَّ فِي الْعَدْلِ سَعَةً ـ ومَنْ ضَاقَ عَلَيْه الْعَدْلُ فَالْجَوْرُ عَلَيْه أَضْيَقُ».[1]

وهو القائل والمطبق لقانون العدالة بين المسلمين عربيهم ومولاهم، وحرهم وعبدهم، وشعاره «ما وجدت لبني إسماعيل فضلًا على بني إسحاق».[2]

(1) نهج البلاغة ص 57.

(2) الثقفي؛ إبراهيم بن محمد الكوفي: الغارات 1/ 70. إن امرأتين أتتا عليًّا عليه السلام عند القسمة إحداهما من العرب والأخرى =

- وعندما حاول معه رهط من السياسيين أن يساير ويهادن أصحاب النفوذ والرؤساء لكي يستقيم له الأمر ثم يسير سيرته الأساس رفض ذلك وقال: «أَتَأْمُرُونِّي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ - فِيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيْه - واللَّه لَا أَطُورُ بِه مَا سَمَرَ سَمِيرٌ - ومَا أَمَّ نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ نَجْمًا - لَوْ كَانَ الْمَالُ لِي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ - فَكَيْفَ وإِنَّمَا الْمَالُ مَالُ اللَّه - ».[1]

- كما بدأ في تعليم الناس ما فات من سنة رسول الله، وفي تغيير ما كان مبتدعًا بعد النبي!

ففهم الحزب القرشي وأنصاره الرسالة إلى آخر سطر فيها! ورأى أن لا مجال له مع عليّ بن أبي طالب إلّا الحرب، وإلا ضاعت منهم الأموال التي استولوا عليها والمناصب التي حلبوا درتها، والرئاسات الباطلة التي تسنموا صهوتها، فكان أن اعتصم هذا الحزب بالشام قلعة له، وأعلن عصيانه على مدينة النبي وخليفة النبي الحقيقي، ثم حرك بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وزوجته ومن تبعهم لتحدث أول معركة عسكرية واضحة فيها

= من الموالي، فأعطى كل واحدة خمسة وعشرين درهمًا وكرًا من طعام، فقالت العربية: يا أمير المؤمنين إني امرأة من العرب وهذه امرأة من العجم؟! فقال عليّ عليه السلام: [إني] والله لا أجد لبني إسماعيل في هذا الفيء فضلًا على بني إسحاق.

(1) نهج البلاغة ص 183

الألوف بين معسكرين من المسلمين؛ في طرفٍ من المعركة كانت الفئة الناكثة الباغية ـ وفي كل المعارك كان الطرف المواجه لعليّ بن أبي طالب هو الفئة الباغية عليه، والناكثة والقاسطة والمارقة ـ[1]-وإنما فصلت هذه العناوين بلحاظ العنوان الأكثر وإلا فكل هذه العناوين تنطبق على كل منها.

ولم يكن أمامَ الإمامِ عليه السلام إلا القتال بعد أن تقدم إليهم في المراسلات الكثيرة، التي أبطل فيها حججهم السخيفة، وتعللاتهم الباطلة، بل في حواراته ـ وحوارات أصحابه ـ معهم، وفي المقابل مع إصرار أولئك الطامحين والطامعين، لم يكن أمامه إلا القتال أو الكفر بما نزل على محمد. [2]

13/ حروب عليّ مع أعدائه في خلافته

لئن كانت الحرب عند عليٍّ عليه السلام مألوفة حيث نهض بها وهو يناهز العشرين من العمر، وكان مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في كل حروبه

(1) بحسب التصنيف العنواني يقولون: أهل الجمل هم الفئة الناكثة باعتبار أنهم بايعوا ثم نكثوا بيعتهم، وأهل صفين كانوا ظالمين قاسطين، والخوارج أهل النهروان هم المارقون، وقد أشار إليهم في الخطبة الشقشقية بقوله: «فَلَمَّا نَهَضْتُ بِالأَمْرِ نَكَثَتْ طَائِفَةٌ وَمَرَقَتْ أُخْرَى وَقَسَطَ آخَرُونَ» مع ملاحظة عدم الترتيب التاريخي.

(2) الدينوري؛ ابن قتيبة: الأخبار الطوال ص 188 «لقد أهمني هذا الأمر وأسهرني وضربت أنفه وعينيه فلم أجد إلا القتال أو الكفر بما أنزل الله على محمد».

صاحب الراية والبلاء الأكبر، إلا أن هذه الحروب الثلاثة التي فُرضت عليه في أيام خلافته الظاهرية كانت مختلفة تمامًا.

حرب الجمل:

كانت حرب الجمل في شهر جمادى سنة 36هـ، ويعجز أصحابها الذين قاتلوا عليًّا أمير المؤمنين عن إيجاد مبررات لهم في ذلك! فتارة يقولون إنهم لم يبايعوا، والحق أنهم بايعوا ونكثوا، وحتى لو لم يبايعوا ـ جدلًا ـ فلا يبرر لهم ذلك خوض حرب ستزهق فيها نفوس مسلمين بعدما تمَّ الأمر لعليّ عليه السلام وبايعه الناس!

كان زعماء الحرب في الجهة المضادة لعليّ عليه السلام طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وعائشة بنت أبي بكر. وسميت الحرب بحرب الجمل لجهة أن عائشة زوجة النبي كانت تمتطي في المعركة جملًا.

وقد كشف[1] أمير المؤمنين عليه السلام عن حقيقة أهداف الزعيمين

(1) بل لم يكن الأمر بحاجة إلى اكتشاف بعدما صرحا له عليه السلام بذلك كما يقول ابن قتيبة: «إن الزبير وطلحة أتيا عليًّا بعد فراغ البيعة، فقالا: هل تدري على ما بايعناك يا أمير المؤمنين؟ قال عليّ عليه السلام: نعم، على السمع والطاعة. فقالا: لا، ولكنا بايعناك على أنا شريكاك في الأمر! قال عليّ: لا، ولكنكما شريكان في القول والاستقامة والعون على العجز. وكان زبير لا يشك في ولاية العراق، وطلحة في اليمن، فلما استبان لهما أن عليًّا غير موليهما شيئًا، أظهرا الشكاة.

الأصليين طلحة والزبير بقوله: كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَرْجُو الأَمْرَ لَه ـ ويَعْطِفُه عَلَيْه دُونَ صَاحِبِه ـ لَا يَمُتَّانِ إِلَى اللَّه بِحَبْلٍ ـ ولَا يَمُدَّانِ إِلَيْه بِسَبَبٍ ـ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَامِلُ ضَبٍّ لِصَاحِبِه ـ وعَمَّا قَلِيلٍ يُكْشَفُ قِنَاعُه بِه ـ واللَّه لَئِنْ أَصَابُوا الَّذِي يُرِيدُونَ ـ لَيَنْتَزِعَنَّ هَذَا نَفْسَ هَذَا ـ ولَيَأْتِيَنَّ هَذَا عَلَى هَذَا»[1] وقد تبين هذا من حين وصولهما للبصرة حيث كان كل منهما يريد أن يتقدم إمامة الصلاة وتنازعًا حتى تأخر وقتها! وهكذا حشدوا جموعهم «فخرجُوا يجرُّون حُرْمَةَ رسول اللَّه ﷺ كما تُجرُّ الأَمَةُ عندَ شرائها مُتوجِّهينَ بها إلى البصرة».[2]

وبعد مراسلات الإمام معهم ومحاولاته اقناعهم بترك الحرب لم يجد منهم إلا هذا الجواب «قد سرت مسيرًا له ما بعده، ولستَ براجع وفي نفسك منه حاجة، ولست راضيًا دون أن ندخل في طاعتك، ونحن لا ندخل في طاعتك أبدًا، واقض ما أنت قاض- والسلام».[3]

وكان خط التصعيد للحرب واضحًا يقوده طلحة، وعبد الله بن

(1) نهج البلاغة ص 206.
(2) المصدر السابق ص 247.
(3) الكوفي؛ أحمد بن أعثم: الفتوح 2/ 466.

الزبير[1] الذي سحب أباه معه وقطع عليه كل فكرة في التراجع) واستفاد من عامل القرابة مع زوجة النبي عائشة، حيث أنه يكون ابن أختها فجعلها في وسط المعمعة، ولم تكن غير راغبة في ذلك، فكانت النتيجة أن التحم الجيشان، وبانت الهزيمة في جيش الجمل، وعقر جمل عسكر، فكأن مركز القيادة قد سقط، وفرّ من جمعته الدنيا ووعود الغنائم والمناصب، وقُتل طلحة (بنيران صديقة)[2] من مروان بن الحكم!

وقيل إن الزبير بن العوام مع بدايات الهزيمة في الجيش قرر التراجع وبدأ بالانسحاب من المعركة لكن الوقت قد فات بعدما سال الدم كل مسيل، فقتله عمرو بن جرموز منفردًا عن جيشه!

وانتهت أول معركة في الإسلام كان طرفاها من المسلمين، فئة وافية وأخرى ناكثة، وطرف ثابت وآخر باغٍ. وكان ثمن أهواء الناكثين وطموحهم الدنيوي في أقل ما قيل: 2500 قتيل من الناكثين وقيل ضعف هذا العدد، بل أكثر من ذلك.[3]

(1) وصل به الأمر إلى أن يخطب في أهل البصرة فيقول كما في المصدر السابق:«أيها الناس! إنّ عليًا بن أبي طالب هو الذي قتل الخليفة عثمان بن عفان، ثم إنّه الآن قد جاءكم ليبتز أمركم، فاغضبوا لخليفتكم، وامنعوا حريمكم، وقاتلوا على أحسابكم...».

(2) العسقلاني؛ ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة 3/ 432 «لما كان يوم الجمل نظر مروان إلى طلحة فقال: لا أطلب ثأري بعد اليوم، فنزع له بسهم فقتله».

(3) الطبري: تاريخ الطبري 4/ 539 «كَانَ قتلى الجمل حول الجمل عشرة آلاف، نصفهم من أَصْحَاب عليّ، ونصفهم من أَصْحَاب عَائِشَة».

ولعمري إن قتل رجل من المسلمين في سبيل أهواء طامحين للرئاسة وناكثين للبيعة وخارجين على إمام الحق لهو كثير فما ظنك بتلك الأعداد؟

حرب صِفّين؛ شهر صفر سنة 37هـ:

حدثت هذه الحرب التي شنها معاوية بن أبي سفيان ومعه جيش الشام في منطقة صفين قرب مدينة الرقة السورية، واستمرت جولاتها متقطعة إلى أن انتهت بالتحكيم في شهر رمضان سنة 38 للهجرة،[1] وهذا يعني أن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وحكومته عاشوا أجواء الحرب مدة سنة وثمانية أشهر.

بدأت ظروف هذه الحرب عندما عزل الإمام عليٌّ عليه السلام معاوية بن أبي سفيان عن ولاية الشام في ضمن حملة تطهير وإصلاح وعزل للولاة المعينين قبل خلافته، وبينما استجاب الكثير[2] واعتزلوا مناصبهم لصالح الولاة الجدد، فقد رفض معاوية ذلك، وبدلًا من أن يتنحى فإنه رفض مبايعة الإمام واتهمه بالتحريض على قتل عثمان بن عفان، وبإخفاء قتلته وطالب بتسليمهم إليه!! ثم يجلس المسلمون ليتفاهموا على اختيار الخليفة الجديد! وكأن

(1) في رأي بعضهم التحكيم كان سنة 37.

(2) ومنهم جرير بن عبد الله البجلي والي همدان.

كل الذي جرى من سنة 35هـ من إجماع الناس في المدينة على بيعة الإمام كان عبثًا ولغوًا!

وقد رد الإمام عليه السلام ـ حيث كان يدرأ الأمور بالرفق ما استطاع ـ على معاوية «أما بعد، فإنّ بيعتي بالمدينة لزمتك وأنت بالشام! فادخل فيما دخل فيه المسلمون، فإنّ أحبّ الأمور إليّ فيك العافية، إلا أن تتعرض للبلاء، فإن تعرضت له قاتلتك، واستعنت بالله عليك. وقد أكثرتَ في قتله عثمان، فادخل فيما دخل فيه الناس، ثم حاكم القوم إليّ أحملك وإياهم على كتاب الله، فأما تلك التي تريدها فخدعة الصبي عن اللبن. ولعمري لئن نظرت بعقلك دون هواك، لتجدني أبرأ قريش من دم عثمان».[1]

غير أن معاوية الذي كان يرى أن انعزاله عن الشام يعني نهاية مستقبله السياسي بل ومستقبل بني أمية، بل كان يخاف أن يُعرّض للمساءلة عن الأموال التي صرفت في غير حق.. لا سيما وأن الإمام قد أعلن بوضوح ملاحقته للمال العام الذي سُلب ونهب مهما كانت حالته.

ولذلك كان خيار الحرب هو الوحيد أمامه بعدما كان قبول العزل يعني ما سبق! فبدأ بالتحشيد والتعبئة النفسية لأهل الشام

(1) المنقري؛ ابن مزاحم: وقعة صفين ص 29.

من خلال نشر قميص عليه دم زعم أنه قميص عثمان! وأصابع زعم أنها أصابع زوجة عثمان نائلة وأنهم قطعوها عندما هاجموا الخليفة في قصره! وبطبيعة الحال كان يتهم بالأمرين الإمام عليًّا وهو يعلم براءته من ذلك لكن هذا منطق السياسة!

كما بدأ بتجميع أصحابه القريبين من منطقه والطامعين في الخلافة مثله فاستقدم عمرو بن العاص يستشيره ويستعين به، وعمرو هذا يعلم أنه لن ينال من آخرة عليّ بن أبي طالب شيئًا فلِمَ لا ينال من دنيا معاوية؟ فقبل أن يتعاون معه على شرط أن تكون مصر له طعمة إن غلب معاوية، وكتب بذلك كتابًا وأشهد شهودًا.

كما استقطب إليه عبيد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، ومروان بن الحكم، ومعاوية بن حديج، وبسر بن أرطاة ونظائرهم.

وعندها كتب لأمير المؤمنين ﷺ كتابًا جاء فيه: «قد أبى أهل الشام إلا قتالك حتى تدفع إليهم قتلة عثمان، فإن فعلتَ كانت شورى بين المسلمين. ولعمري ما حجتك عليّ كحجتك على طلحة والزبير لأنهما بايعاك ولم أبايعك، ولا حجتك على أهل الشام كحجتك على أهل البصرة لأنهم أطاعوك ولم يطعك أهل الشام.[1]

(1) المبرد؛ محمد بن يزيد: الكامل في اللغة والأدب 1/ 258.

وبعد أن حشد أمير المؤمنين أنصاره من الكوفة والبصرة والمدائن وغيرها، وجمع معاوية جنده من الشام وجوارها وتوجه بهم إلى صفين قرب مدينة الرقة السورية حاليًّا.

وكان الجور في الجيش الشامي واضحًا فإنهم بمجرد وصولهم إلى أرض المعركة تلك أحاطوا بالنهر ومنعوا من وصول جند الإمام إليه حتى يموتوا عطشا أو يضعفوا عن القتال، وأيضًا فإنهم بمجرد أن وصل جيش الإمام بقيادة مالك الأشتر المزود بتعليم صارم من الإمام ألّا يبدأهم بقتال، إلا أن جيش الشام بمجرد وصول جيش الإمام بادرهم بالقتال، فما وجد مالك الأشتر بدًّا من القتال معهم، فاستطاع أن يجلوهم عن الماء ومع ذلك لم يمنعهم من الشرب منه!

كان مسار الحرب يتجه نحو انتصار واضح لجيش أمير المؤمنين عليه السلام، فإنه بالإضافة إلى سلامة تخطيط الإمام وقادته وشجاعته وشجاعتهم، فقد كان من يستشهد من جيشه يضيف قوة معنوية لمقاتليه ويؤثر بالسلب على جيش معاوية، فعندما استشهد عمار بن ياسر تذكر الناس قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم، له بأنه تقتله الفئة الباغية، حدثت هزة في جيش الشام باعتبار أن النبي عينهم كفئة باغية! ولم تنفع محاولات معاوية وعمرو بن العاص في التمويه

على جيشهم بأنه «إنما قتله من أخرجه للقتال»! إذ لو كان هذا صحيحًا لكان الذي قتل حمزة بن عبد المطلب هو رسول الله لأنه هو الذي أخرجه إلى القتال.. وهو كلام باطل.

لكن خدعة أخرى ستؤثر في قسم من جيش الإمام عليّ ﷺ، وهي عندما أمر عمرو بن العاص بأن يتم رفع المصاحف على الرماح، والتظاهر بالدعوة إلى تحكيمه.

كانت المعركة على وشك الانتهاء، ومالك الأشتر يستمهلهم قدر فواق ناقة، وقد كاد يصل إلى خيمة معاوية بن أبي سفيان، الذي جهز رواحله استعدادًا للهرب، لكن أطلعت الفتنة قرونها، وتفرعن جهل (أصحاب البرانس الطويلة والعقول القصيرة) ورفعوا السيوف على عليٍّ وهو القرآن الناطق: إن لم يقبل بتحكيم القرآن فسيميلون عليه بسيوفهم!

ولم ينفع كلام الإمام معهم: «ويحكم أنا أول من دعا إلى كتاب الله وأول من أجاب إليه، وليس يحل لي ولا يسعني في ديني أن أدعى إلى كتاب الله، فلا أقبله إنّي إنما أقاتلهم ليدينوا بحكم القرآن، فإنهم قد عصوا الله فيما أمرهم ونقضوا عهده، ونبذوا كتابه، ولكني قد أعلمتكم أنهم قد كادوكم، وأنهم ليسوا العمل بالقرآن يريدون».[1]

(1) المنقري؛ ابن مزاحم: وقعة صفين، ص 490.

إلا أن الجهل أردى عشرين ألفًا ممن كان مع الإمام بلا بصيرة.[1] فاضطر الإمام لكيلا تحدث حرب أهلية في داخل جيشه لإيقاف القتال. وتوقفت الحرب وعاد جيش معاوية ومقاتلوه لمواقعهم، بينما عاد قادة جيش أمير المؤمنين لحسرتهم على فوت الفرصة النادرة.

توقف القتال، وتأجلت المناجزة وتمَّ الاتفاق على أن يعود الجيشان، بينما يبعث كل فريق-[2]مندوبه لاجتماع تحكيمي، وينتظر المسلمون نتائج ذلك الاجتماع!

بعد ما يقرب من سبعين ألفا من القتلى (منهم كما قيل 25 ألف شهيد مع أمير المؤمنين و45 ألف قتيل من جيش معاوية) انتهى الأمر إلى تحكيم سيتلاعب فيه «خبث» عمرو بن العاص «بلحية» أبي موسى الأشعري الذي أصرّ عليه الأغبياء السابقون

(1) ينبغي التفريق بين أصحاب الإمام الذين اتبعوه على بصيرة ومعرفة به، وبين عامة الجيش الذي كان (تحت الخدمة كما يقولون) والذي ورثه الإمام عن سابقيه، فقد كان للدولة المسلمة جيش ومقاتلون ويستلمون عطاء على ذلك، وهو نفس الجيش الذي كان تحت إمرة وقيادة الخلفاء السابقين عليه، وفي هؤلاء الغث والسمين واليابس والأخضر! وعلى مثل هؤلاء انطلت حيلة رفع المصاحف التي دبرها عمرو بن العاص.

(2) من أعاجيب الدهر أن عليًّا نفس الرسول بنص الكتاب الذي يقول: متى اعترض الريب فيّ مع الأول منهم؟ صار فريقًا ومعاوية بن أبي سفيان فريقًا آخر، لتصدق مقالة الإمام «أنزلني الدهر ثم أنزلني حتى قيل عليّ ومعاوية»!

ـ مع تدينهم ـ ورفضوا عبد الله بن عباس! وصار التحكيم. في شهر رمضان من سنة ثمان وثلاثين للهجرة. وكان ـ بسذاجة الأشعري ـ أسوأ من إيقاف القتال مع معاوية![1]

ولأن الجاهل الأحمق ـ حتى وإن كان عابدًا حسن النية ـ لا يتوقف ليفكر في أخطائه بل يستمر فيها حتى يرد حتفه، فقد استمر هؤلاء في الغي وانشقوا عن أمير المؤمنين عليه السلام، وطالبوه بالتوبة عن الكفر (!) إذ صدر منه بقبوله أصل التحكيم، مع أنهم هم الذين رفعوا عليه السيوف ليقبل التحكيم وإلا مالوا عليه بسيوفهم! ثم على النتيجة التي وصل إليها التحكيم مع أنهم هم الذين أصروا على أبي موسى الأشعري، وكان الإمام يريد تلميذه عبد الله بن عباس! لكنه رضخ لهم خوفا من الفتنة والحرب الداخلية!

وثلّثوا غيهم بإعلانهم الحرب على الإمام، والخروج عليه حتى عرفوا من ذلك اليوم بالخوارج. لتتهيأ الظروف للحرب الثالثة على الإمام عليه السلام من جهتهم هذه المرة! حرب النهروان.

(1) سيأتي في الفصل الخاص بالقاسطين تفصيل ذلك.

معركة النهروان وحرب الخوارج

مع أن تشكل (الخوارج) كمجموعة ناقمة على الإمام ومخطئة لعمله، بل في بعض الأحيان مكفّرة إياه، كان منذ حيلة رفع المصاحف في صفين، إلا أنهم لم يتحولوا إلى الاستعداد لقتال أمير المؤمنين إلا في شهر شوال من سنة 37هـ، وذلك بعد أن اعتزلوا الإمام وانفصلوا عن مجتمع الكوفة، وتجمعوا في حروراء، قريبًا من الكوفة، وأخذوا خلال هذه المدة بالتخريب من قتل المؤمنين-[1]الموالين للإمام والإخلال بالأمن في الكوفة. وتجميع أنصارهم للقتال مع الإمام عليّ عليه السلام.

وكان الإمام أمير المؤمنين ـ كعادته عليه السلام في الرفق ودفع الحرب ما أمكن ـ يراسلهم تارة ويحتج عليهم أخرى، ويرسل لهم مبعوثيه لنقاشهم حتى في اليوم الذي اجتمعوا فيه للحرب، في النهروان-[2]وكانوا اثنا عشر ألفًا (12000) كما قيل، فقد جعل لهم راية سلام بيد أبي أيوب الأنصاري وقال إن من التجأ إليها فهو آمن ولا يؤاخذ بشيء، فجاء تحت تلك الراية مئات منهم، وبعث لهم عبد الله بن عباس يناقشهم ويناظرهم، فانحاز على أثر ذلك

(1) سيأتي في الفصل الخاص بهم تفصيل ذلك.

(2) تبعد عن بغداد حوالي 35 كليو مترا.

عدة مئات أخر، واعتزل بعضهم كفروة بن نوفل الأشجعي القتال لأنه ليس له في قتال الإمام حجة أو بيان، وهكذا..

ولما رأى عبد الله بن وهب الراسبي وهو قائدهم أن جيشه يتضعضع بخروج هذه الفئات منه، خشي أن يتبخر هذه الجيش، فهاجم أنصار الإمام عليه السلام وانغمس فيهم بمن معه، فواجههم أصحاب الإمام بقيادته عليه السلام، وهزمهم وكان لا يجهز على جريح منهم ويأمر بذلك بل دفع الجرحى لقبائلهم لعلاجهم، وأما الباقي فكانوا قتلى، ونجا من ذلك الجيش دون العشرة، كما كان عدد شهداء الإمام نحو ذلك.[1] ومن بين أولئك الناجين من المعركة كان عبد الرحمن بن ملجم المرادي، الذي سيطوق إثمَ قتل الإمام عليه السلام غيلة!

14/ شهادة الإمام عليه السلام سنة 40هـ

بالرغم من أن أعداء الإمام قد شغلوه عن برنامجه الإصلاحي للأمة بفرض الحروب المتتالية ضده، إلا أن الفترة القصيرة التي كانت فيها كل خلافته وهي أربع سنوات وتسعة أشهر[2] والفترة

(1) نهج البلاغة، ص 93: وقيل له عليه السلام: إن القوم عبروا جسر النهروان فقال: مَصَارِعُهُمْ دُونَ النُّطْفَةِ ـ واللَّه لَا يُفْلِتُ مِنْهُمْ عَشَرَةٌ ولَا يَهْلِكُ مِنْكُمْ عَشَرَةٌ قال الشريف الرضي يعني بالنطفة ماء النهر.

(2) من ذي الحجة 35هـ إلى رمضان 40هـ.

الضئيلة منها وهي فترة السلام شهدت نموذجا يكفي للحاكم المسلم الذي يأتي بعد الإمام أن يتأمل فيه ويتخذه برنامج حكم عادل، لو أراد. وسيأتي في الفصول اللاحقة توضيح لبعض ملامح ذلك النموذج.

وهي فعلا فترة قصيرة وضئيلة، لا تصل إلى سنتين (من نهاية حرب الخوارج في شوال 38هـ إلى شهادة الإمام في شهر رمضان سنة 40هـ).

الخوارج الذين انتهوا كقوة عسكرية بهزيمتهم في النهروان لم ينتهوا كفكرة بل سيستمرون إلى قرون تالية،[1] فإن حالة التطرف الناشئ عن الجهل لا تقتصر على جيل دون جيل، وقد عاصرنا في هذا الزمان أمثالهم ممن دمر صورة الإسلام في عيون المسلمين وغيرهم، فقتلوا واغتصبوا ودمروا وكل ذلك بجهلهم، وما سموه إسلامًا وهو بعيد عنه.

مِن هؤلاء مَن سيقدم على جريمة قتل الولي، ونفس النبي، والقرآن الناطق، وأحب خلق الله إلى الله، والوصي، وأولى الناس بأنفسهم بعد رسول الله، وهو يقول أثناء قتله إياه: الحكم لله لا لك يا عليّ!

(1) نهج البلاغة، ص 93 لما قتل الخوارج فقيل له: يا أمير المؤمنين هلك القوم بأجمعهم! فقال: كَلاَّ واللَّه إِنَّهُمْ نُطَفٌ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ وقَرَارَاتِ النِّسَاءِ.

تبًّا لهذا الجهل، بل لهذا الغباء، وتعسًا لهذه الفكرة وصاحبها.

نعم! بعد هزيمة الخوارج في النهروان، بدأ عدة منهم في التخطيط لقتل أمير المؤمنين عليه السلام، ثأرًا منهم لمن قتل من أصحابهم، وتنفيذا منهم لفكرة قتل رجل كافر!! فكان أن جاء عبد الرحمن بن ملجم المرادي بسيف مسموم إلى الكوفة، وانتهز فرصة انشغال الإمام بنافلة الفجر وخلو المسجد من المصلين، واغتال الإمام ساجدًا في محراب صلاته بضربة منه على رأس الإمام عليه السلام، الذي فاز بلقاء رب الكعبة وكان ذلك في يوم التاسع عشر من شهر رمضان سنة 40 للهجرة النبوية.[1]

(1) سوف يأتي في فصل لاحق شرح وتحليل لمقتل الإمام عليه السلام.

الشقشقية
توثيق 30 سنة من تاريخ الإسلام

أمَا وَاللَّهِ لَقَدْ تَقَمَّصَهَا ابن أبي قحافة وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّي مِنْهَا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحَى يَنْحَدِرُ عَنِّي السَّيْلُ وَلا يَرْقَى إِلَيَّ الطَّيْرُ فَسَدَلْتُ دُونَهَا ثَوْبًا وَطَوَيْتُ عَنْهَا كَشْحًا وَطَفِقْتُ أَرْتَئِي بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيَدٍ جَذَّاءَ أَوْ أَصْبِرَ عَلَى طَخْيَةٍ عَمْيَاءَ يَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ وَيَشِيبُ فِيهَا الصَّغِيرُ وَيَكْدَحُ فِيهَا مُؤْمِنٌ حَتَّى يَلْقَى رَبَّهُ، فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى هَاتَا أَحْجَى فَصَبَرْتُ وَفِي الْعَيْنِ قَذًى وَفِي الْحَلْقِ شَجًا أَرَى تُرَاثِي نَهْبًا حَتَّى مَضَى الْأَوَّلُ لِسَبِيلِهِ فَأَدْلَى بِهَا إِلَى ابن الخطاب بَعْدَهُ ثُمَّ تَمَثَّلَ بِقَوْلِ الْأَعْشَى:

شَتَّانَ مَا يَوْمِي عَلَى كُورِهَا وَ يَوْمُ حَيَّانَ أَخِي جَابِرِ

فَيَا عَجَبًا بَيْنَمَا هُوَ يَسْتَقِيلُهَا فِي حَيَاتِهِ إِذْ عَقَدَهَا لِآخَرَ بَعْدَ وَفَاتِهِ لَشَدَّ مَا تَشَطَّرَا ضَرْعَيْهَا فَصَيَّرَهَا فِي حَوْزَةٍ خَشْنَاءَ يَغْلُظُ كَلْمُهَا وَيَخْشُنُ مَسُّهَا وَيَكْثُرُ الْعِثَارُ فِيهَا وَالِاعْتِذَارُ مِنْهَا فَصَاحِبُهَا

كَرَاكِبِ الصَّعْبَةِ إِنْ أَشْنَقَ لَهَا خَرَمَ وَإِنْ أَسْلَسَ لَهَا تَقَحَّمَ فَمُنِيَ النَّاسُ لَعَمْرُ اللَّهِ بِخَبْطٍ وَشِمَاسٍ وَتَلَوُّنٍ وَاعْتِرَاضٍ فَصَبَرْتُ عَلَى طُولِ الْمُدَّةِ وَشِدَّةِ الْمِحْنَة، حَتَّى إِذَا مَضَى لِسَبِيلِهِ جَعَلَهَا فِي جَمَاعَةٍ زَعَمَ أَنِّي أَحَدُهُمْ فَيَا لَلَّهِ وَلِلشُّورَى مَتَى اعْتَرَضَ الرَّيْبُ فِيَّ مَعَ الْأَوَّلِ مِنْهُمْ حَتَّى صِرْتُ أُقْرَنُ إِلَى هَذِهِ النَّظَائِرِ لَكِنِّي أَسْفَفْتُ إِذْ أَسَفُّوا وَطِرْتُ إِذْ طَارُوا فَصَغَا رَجُلٌ مِنْهُمْ لِضِغْنِهِ وَمَالَ الْآخَرُ لِصِهْرِهِ مَعَ هَنٍ وَهَن.

إِلَى أَنْ قَامَ ثَالِثُ الْقَوْمِ نَافِجًا حِضْنَيْهِ بَيْنَ نَثِيلِهِ وَمُعْتَلَفِهِ وَقَامَ مَعَهُ بَنُو أَبِيهِ يَخْضَمُونَ مَالَ اللَّهِ خِضْمَةَ الْإِبِلِ نِبْتَةَ الرَّبِيعِ إِلَى أَنِ انْتَكَثَ عَلَيْهِ فَتْلُهُ وَأَجْهَزَ عَلَيْهِ عَمَلُهُ وَكَبَتْ بِهِ بِطْنَتُهُ فَمَا رَاعَنِي إِلَّا وَالنَّاسُ كَعُرْفِ الضَّبُعِ إِلَيَّ يَنْثَالُونَ عَلَيَّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ حَتَّى لَقَدْ وُطِئَ الْحَسَنَانِ وَشُقَّ عِطْفَايَ مُجْتَمِعِينَ حَوْلِي كَرَبِيضَةِ الْغَنَمِ.

فَلَمَّا نَهَضْتُ بِالْأَمْرِ نَكَثَتْ طَائِفَةٌ وَمَرَقَتْ أُخْرَى وَقَسَطَ آخَرُونَ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، بَلَى وَاللَّهِ لَقَدْ سَمِعُوهَا وَوَعَوْهَا وَلَكِنَّهُمْ حَلِيَتِ الدُّنْيَا فِي أَعْيُنِهِمْ وَرَاقَهُمْ زِبْرِجُهَا، أَمَا وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ لَوْلا حُضُورُ

الْحَاضِرِ وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ وَمَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَلَّا يُقَارُّوا عَلَى كِظَّةِ ظَالِمٍ وَلَا سَغَبِ مَظْلُومٍ لَأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوَّلِهَا وَلَأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ.

قَالُوا وَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ السَّوَادِ عِنْدَ بُلُوغِهِ إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ مِنْ خُطْبَتِهِ فَنَاوَلَهُ كِتَابًا قِيلَ إِنَّ فِيهِ مَسَائِلَ كَانَ يُرِيدُ الْإِجَابَةَ عَنْهَا فَأَقْبَلَ يَنْظُرُ فِيهِ (فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قِرَاءَتِهِ) قَالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ﷺ لَوِ اطَّرَدَتْ خُطْبَتُكَ مِنْ حَيْثُ أَفْضَيْتَ فَقَالَ: هَيْهَاتَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ تِلْكَ شِقْشِقَةٌ هَدَرَتْ ثُمَّ قَرَّتْ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَوَاللَّهِ مَا أَسَفْتُ عَلَى كَلَامٍ قَطُّ كَأَسَفِي عَلَى هَذَا الْكَلَامِ أَلَّا يَكُونَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ﷺ بَلَغَ مِنْهُ حَيْثُ أَرَادَ..

قال أمير المؤمنين عليّ ﷺ: أَمَا وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ لَوْ لَا حُضُورُ الْحَاضِرِ وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ، وَمَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَلَّا يُقَارُّوا عَلَى كِظَّةِ ظَالِمٍ وَلَا سَغَبِ مَظْلُومٍ، لَأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوَّلِهَا، وَلَأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ». [1]

(1) نهج البلاغة ص 50.

تكتسب هذه الخطبة العلوية أهميتها الفائقة من جهات متعددة:

أولاها: أنها صادرة من أمير المؤمنين عليه السلام وهو الطرف الأساس و(بطل) هذه الفترة التاريخية التي يتم الحديث عنها، وهو بالمنطق العادي شاهد عيان حضر الوقائع التي يتحدث عنها، وبالمنطق الحقيقي هو المعصوم الذي يصف الواقع كما حدث تماما ولا يحتمل في حقه الخطأ والمبالغة أو التقصير مما يعرض على شهود العيان عند نقلهم.

ثانيها: أن ما جاء في هذه الخطبة كان مركّزا للغاية حيث اختصر فيه الإمام عليه السلام نحو ثلاثين سنة بحوادثها وأسبابها ونتائجها، بما يشمل ما حدث بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقال فيه ما ينبغي أن يقال وبحدوده النافعة فلا هو تقية مجاملة ولا صراحة تخلق مشكلة داخلية.

ثالثها: أن هذه الكلمات في الخطبة تكشف موقفه عليه السلام الحقيقي وتأريخها هو أيام ولايته الظاهرية وخلافته وهذا يعني أن الفكرة والموقف لم يتغير من حين وقوع هذه الحوادث قبل عدة عقود.

لذلك أفردنا لها بحثًا خاصًّا دون سائر الخطب والرسائل.

أما سبب تسمية هذه الخُطبة...سُميت هذه الخطبة بالشقشقية

نسبة إلى آخر مقطع من كلام أمير المؤمنين ﷺ وهو قوله: (تِلْكَ شِقْشِقَةٌ هَدَرَتْ ثُمَّ قَرَّتْ)، والشقشقة في اللغة تعني زبد يُخرجه البعير من داخل جوفه إلى فمه، والإمام عبّر عنها بالشقشقة لأنه خرجت من وجدانه ﷺ من غير تخطيط ولا ترتيب كأنما هو بوحٌ ترقرق على سطح الكَلِم.

صحة نسبة الخُطبة لأمير المؤمنين ﷺ

لأجل ما تقدم ذكره ولوجود مضامين قوية في الخطبة تتعارض بشكل كبير مع اعتقادات مدرسة الخلفاء في مشروعية خلافة السابقين على الإمام ﷺ، وفي تقييمه السلبي لتلك الفترة بالنسبة لتلك الفترة.. فقد أنكر علماء مدرسة الخلفاء في الغالب صحة انتساب هذه الخطبة له، إذ مع تصحيح النسبة يكونون أمام أحد خيارين؛ إما أن يقبلوا ما انتهى إليه من مضامين وفي ذلك تهديم للقواعد الكلامية التي أسسوها وصححوا بها خلافة الأوائل، وهذا يعني أن يهدموا مذهبهم بأيديهم، أو أن يقولوا بأنها صحيحة ولكن مع ذلك لا يلتزمون بكلام عليّ بن أبي طالب في هذا، وهو يحرجهم مع القول بأنه خليفة راشد وبأنه صادق القول فأحسن طريق يسلكونه هو أن يقولوا إن هذه الخطبة غير صحيحة النسبة للإمام عليّ بل ترقى بعضهم وقال إن نهج البلاغة غير ثابت

النسبة له[1] ولعل أهم سبب في ذلك الإنكار هو هذه الخطبة أولاً وأمثالها ثانيًا![2]

وبينما أراح بعضهم نفسه فاكتفى بالقول بأنها مكذوبة على عليّ بن أبي طالب. ولم يذكر من الذي كذبها عليه ومن هذا الأديب الفحل الذي يتكلم بهذه الفخامة والبلاغة؟ ذهب البعض الآخر إلى القول بأن واضعها[3] هو نفسه الشريف الرضي[4]

(1) الذهبي؛ محمد بن أحمد: ميزان الاعتدال 3/ 124 في ترجمته للشريف الرضي قال: «ومن طالع كتابه نهج البلاغة جزم بأنه مكذوب على أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه، ففيه السب الصراح والحط على السيدين: أبي بكر، وعمر..» أقول هذا إذا كان على عقيدة الذهبي وأما إذا كان على عقيدة أهل البيت فهو يجزم بصدق نسبته له.

(2) فكيف يمكن أن يقبلوا بقول عليّ كما في النهج (أنا الصديق الأكبر والفاروق الأعظم...) وهم يزعمون بأن أمير المؤمنين عليًّا قال: بأن أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله أبو بكر ثم عمر! وكيف يقبلون ما جاء في الشقشقية؟

(3) هذا مع أن خطب أمير المؤمنين عليه السلام كانت مجموعة ـ في الكثير منها ـ قبل عشرات السنين من ولادة الشريف الرضي، فقد ذكر المحقق آقا بزرك الطهراني بعض الذين سبقوا الشريف الرضي في جمع خطب الإمام وكلماته ومنهم:
1. زيد بن وهب الجهني الذي شهد صفين، وقال عنه أنه أول من جمع خطب الإمام عليه السلام إذ بادر إلى جمع خطب الإمام في زمن الإمام وحياته، وهذا الكتاب يعرف بكتاب الخُطب.
2. إسماعيل بن مهران، فقد جمع جملة من خطب أمير المؤمنين عليه السلام يعرف أيضًا بكتاب الخُطب.
أقول: زيد بن وهب قيل إنه توفي سنة 92هـ، وإسماعيل بن مهران هو السكوني، من أصحاب الإمام الصادق، فأين هؤلاء وأين الشريف الرضي الذي ولد في 359هـ؟

(4) الشَّرِيف الرّضي (359 ـ 406هـ): محمد بن الحسين بن موسى الموسوي؛ من أبرز علماء الإمامية في القرن الرابع، وأشعر الطالبيين، انتهت إليه نقابة الأشراف الطالبيين في حياة أبيه، له من الكتب: مجاز القرآن، والمجازات النبويّة، وحقائق التأويل في متشابه التنزيل، ونهج البلاغة وهو ما جمعه واختاره من خطب الإمام عليّ، وكذلك خصائص أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب وله دواوين شعر له ولشعراء آخرين. ».

جامع الكتاب! وبعضهم زعم بأن الشريف المرتضى! «هو جامع «نهج البلاغة» لا أخوه الشريف الرضي، قال الذهبي: وهو ـ أي المرتضى ـ المتهم بوضع كتاب نهج البلاغة».[1]

وفيما تتبع محققون كالعلامة السيد عبد الزهراء الحسيني الخطيب في كتابه (مصادر نهج البلاغة وأسانيده)هذه الشبهة بالنقض والرد من خلال إيراد المصادر التي نقلت هذه الخطبة قبل ولادة الشريف الرضي (ت 409هـ) بمئات السنين في بعضها، وهذا بالطبع ما عثر عليه المحقق الحسيني دون ما أتلف أو أعيد طبعه مع حذف هذه الخطبة وأمثالها.

فإن السيد الحسيني بعدما استعرض نحو سبعة عشر مصدرًا من الفريقين ذكرت فيه الخطبة بأسانيدها وهي غير منتهية للشريف الرضي أشار إلى ما تقدم ذكره قائلًا: «إن المعركة حول «نهج البلاغة» منذ أن نشبت إلى يوم الناس هذا وإن اصطبغت بصبغة أدبية في ظاهرها ولكنها مذهبية في باطنها، ونستطيع أن نقطع أن هذه الخطبة هي من أعظم الأسباب التي دعت لإثارة تلك الشكوك في (نهج البلاغة) ـ كما ذكرنا آنفًا ـ وبسبب اشتماله عليها وعلى مثيلاتها حمي وطيس تلك المعركة، واستعر أوارها، وعلا لهيبها».[2]

(1) نسب الزركلي ذلك في كتابه الأعلام 4/ 278 للذهبي. فانظر إلى الأهواء كيف تتخبط بصاحبها!

(2) الحسيني الخطيب؛ السيد عبد الزهراء: مصادر نهج البلاغة وأسانيده 1/ 336، ولمن أراد تفصيل ذلك فليرجع إلى ما حبره يراع العلامة الأميني ﷺ في الغدير 7 / 82.

ونقلت هذه الخطبة في مصادر الإمامية في مرحلة متقدمة على الشريف الرضي، فقد وردت في كتب الشيخ الصدوق محمد بن عليّ بن الحسين بن بابويه (ولد نحو 306 وتوفي 381هـ)، وفي كتاب الشيخ المفيد وهو أستاذ الشريف الرضي وليس العادة أن يروي الأستاذ عن تلميذه بل العكس.

وهناك طريق آخر يستفاد منه صحة انتسابها إليه، ما ذكره أرباب اللغة في جوامعهم وقواميسهم فإنهم عندما يمرون على كلمات هذه الخطبة يجزمون بنسبتها للإمام عليه السلام، والكثير منهم ليسوا من الإمامية، فانظر إلى أقوالهم [1] في معاني كلمات: «شقشقة هدرت» وكلمة «جذّاء» و«حليت» و«يخضمون» وغيرها.

والطريق الثالث ما يسمى بالنقد المتني وهو معروف بين العلماء، وقد أشار إليه ابن أبي الحديد في شرح النهج فإنه بعد أن نقل قول شيخه ابن الخشاب وتعليقه على كلام ابن عباس وتأسفه ألّا يكون الإمام قد بلغ حاجته، علق عليه: بأنه ما بقي شيء لم يذكره الإمام.. وسأله ابن ابي الحديد: إن كثيرًا من الناس يقولون إنها من كلام الرّضي رحمه الله تعالى فقال: أنىّ للرضي ولغير الرضي هذا النفَس، وهذا الأسلوب، فقد وقفنا على رسائل الرضي

(1) في مجمع الأمثال للميداني، ولسان العرب لابن منظور، والنهاية لابن الأثير.

وعرفنا طريقته وفنّه في الكلام المنثور، وما يقع في هذا الكلام في خَلّ ولا خمر![1] ثم قال: والله لقد وقفت على هذه الخطبة في كتب صنفت قبل أن يخلق الرضي بمائتي سنة، ولقد وجدتها مسطورة بخطوط أعرفها، وأعرف خطوط من هو من العلماء وأهل الأدب قبل أن يخلق النقيب أبو أحمد والد الرضي «.[2]

إن الأدباء والعلماء ليستطيعون أن يستخرجوا بيتًا من قصيدة ليقولوا أن هذا لا يتناسب مع شاعرية المتنبي ولا يمكن أن يكون له! فضلاً عن قصيدة كاملة لو نسبت له، وذلك من خلال الدراسة الداخلية لهذا البيت أو تلك القصيدة فكيف بمثل هذه الخطبة الطويلة، والتي تتعاضد كل كلمة فيها مع الأخرى، وتتواشج مضامينها مع سائر الخطب والكلمات لتشير إلى قائلها وراصف كلماتها، وهو أمير المؤمنين عليه السلام؟.

لكن الإنكار راجع إلى ما ذكر في السطور الماضية.. فهلمَّ عزيزي القارئ ننظرْ ما فيها.

نظرة في مواضيع الشقشقية

1/ يُقرّر الإمام عليه السلام في ابتداء الخطبة أفضليته وأولويته بالخلافة

(1) كناية عن كون أسلوب الرضي لا يصل إلى هذا الكلام ولا يتناسب معه.

(2) ابن أبي الحديد؛ عبد الحميد: شرح نهج البلاغة 1/ 205.

من الجميع وهو واقع لا يمكن أن تقبله مدرسة الخلفاء لأنها قائمة على أساس أن التفضيل هو بالتدريج بحسب الخلافة فيكون بذلك الخليفة الأول هو الأفضل، ثم الثاني ثم الثالث، ثم عليّ عليه السلام.[1] وهو بهذا يهدم كل ما وضع على لسانه من تفضيله الآخرين على نفسه! فإن أتباع هذه المدرسة لم يكتفوا بتصحيح خلافة المتقدمين على أمير المؤمنين فحسب بل أضافوا إليها أفضليتهم عليه، بل ـ وهذا عجيب ـ وضعوا على لسانه أقوالًا بأنهم أفضل منه! وبعضها واضح التهالك والكذب لأول نظرة![2]

بل يقول الإمام إن الخليفة الأول يعلم بأفضلية عليّ عليه السلام، وأن محله من الخلافة والقيادة محل القطب من الرحى وأنه ينحدر عنه السيل ولا يرقى إليه الطير (كناية عن سمو مقامه في التشبيهين، فإن السيل ينحدر من أعلى نقطة في الجبل مثلًا،

(1) وبالطبع هذا هو الاتجاه المعتدل في المفاضلة بين أصحاب النبي وإلا فإن أتباع الاتجاه الأموي لا يجعلون عليًّا عليه السلام في المفاضلة أصلا، وإنما يقولون خير الناس أبو بكر ثم عمر ثم لا نفاضل. ولو اختل هذا الترتيب في الفضل لاختل نظام الخلافة، وأثير الإشكال حوله فكيف يتأخر الأفضل ويتقدمه غيره؟ وبالرغم من أن بعض المعتزلة أجازوا تقديم غير الأفضل إلا أن التوجه العام في مدرسة الخلفاء ليس كذلك.

(2) مثلما وضعوا عليه كما في فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل 1/ 83 وكثير من مصادر مدرسة الخلفاء: «لا يفضلني أحد على أبي بكر وعمر إلا جلدته حد المفتري».

والطير له حد يستطيع الوصول إليه في العلو وذاك هو موضع الإمام فشبه المعنوي وهو منزلته العالية بالمادي وهو نزول سيل الماء ورقي الطير في الهواء ليقرب المعنى للسامعين).

فهناك مطلبان مهمان: **أحدهما** أنه هو الأفضل، **وثانيهما** أن أفضليته ليست مجهولة للخليفة الأول بل هو يعلم بها، وهو قوله: «وإنه ليعلم أن محلّي منها محل القطب من الرحى،[1] ينحدر عني السيل ولا يرقى إليّ الطير».

2/ يستعمل الإمام عليه السلام تعبير «تقمّص» في قوله: «أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ تَقَمَّصَهَا فُلَانٌ..» والتقمص هنا كأنّه عبارة عن لبس القميص بصعوبة وهو ما تحتاج فيه إلى زيادة جُهد لكي يستقر في البدن، وهو مقتضى صيغة التفعل التي استعملها، ويُصور الإمام هنا الخلافة بالقميص الذي لُبِس عُنوة مع علم صاحبه بأن هذا القميص ليس له، خصوصا مع إضافة الفقرة التي بعدها المشيرة إلى أنه يعلم بأن الأحق بهذا الموقع هو أمير المؤمنين عليه السلام.

(1) اختيار مصباح السالكين، ابن ميثم البحراني، ص 91 «مثّل نفسه منها (الخلافة) بالقطب من الرحى في انّها لا تستقيم بدونه، واكّد ذلك بالكناية عن علوّه وشرفه مع فيضان العلوم والفضائل عنه بوصفين من أوصاف الجبل المنيع العالي وهما كونه ينحدر عنه السيل ولا يرقى اليه الطير.

هذا المعنى من أفضليته وتقدمه عليهم جميعًا سيؤكده فيما بعد بقوله في مقطع آخر من الخطبة بقوله: (فَيَا لَلَّهِ وَلِلشُّورَى مَتَى اعْتَرَضَ الرَّيْبُ فِيَّ مَعَ الْأَوَّلِ مِنْهُمْ حَتَّى صِرْتُ أُقْرَنُ إِلَى هَذِهِ النَّظَائِرِ)، فهو لا يقبل بأن يكون هناك شكٌّ في أفضليته على الأول فكيف يقرن إلى مثل عثمان ونظرائه! ويرى قبوله بالدخول في الشورى نزولًا من جهته وإسفافًا عن موقعه.

ومع هذه التأكيدات كيف يقبل أتباع مدرسة الخلفاء هذا المعنى وهم يضعون على لسانه: «لا أُؤْتى بأحد يُفضِلُني.. إلا جلدته حدَّ المفتري»؟

3/ لم يكن موقف الإمام من خلافة الخليفة الأول حياديًّا سلبيًّا، وإنما كان نتيجة موازنة «بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيَدٍ جَذَّاءَ أَوْ أَصْبِرَ عَلَى طَخْيَةٍ عَمْيَاءَ يَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ وَيَشِيبُ فِيهَا الصَّغِيرُ وَيَكْدَحُ فِيهَا مُؤْمِنٌ حَتَّى يَلْقَى رَبَّه، فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى هَاتَا أَحْجَى فَصَبَرْتُ وَفِي الْعَيْنِ قَذًى وَفِي الْحَلْقِ شَجًا أَرَى تُرَاثِي نَهْبًا».

وهذا المقطع من الخطبة يفنّد الإمام رأي من يقول ـ من أتباع مدرسة الخلفاء ـ بأن الإمام أبطأ قليلًا في المبايعة ثم تبين له اشتباه ذلك وجاء للمبايعة أو أنه جاء بعد وفاة فاطمة الزهراء، فيصرح أن الأمر لم يكن كذلك وإنما كان بالخيار بين أن يصول

ويقاتل بيد جذاء أي مقطوعة فهو بلا أنصار بمقدار الكفاية، وبين أن يصبر على طخية عمياء لا هداية فيها وهي قيادة الخلافة للوضع، فكان اختيار الإمام هو الصبر على الثاني بمرارة وعدم رضا، فصبر لكن في العين قذى وفي الحلق شجى.[1]

4/ في كلمات الإمام في هذه الخطبة نجد تصريحًا منه على أن هناك نصًّا عليه من رسول الله، وأن ما سلب منه وأبعد عنه، لم يكن منصبًا سياسيًّا يتداوله الناس، وإنما هو «تراث له» وهو يرى أن ما حصل هو نهب لهذا الميراث «أرى تراثي نهبًا» ولن يكون هذا المنصب تراثًا له وميراثًا باعتبار رأي الناس أو مخالفتهم، وإنما باعتبار من كان يملكه وهو من قال: «من كنت مولاه فعليّ مولاه»، وبالموقع الذي كان يحتله رسول الله «ألست أولى بكم من أنفسكم»؟.

ويستبطن هذا الكلام ملكَه لهذا المنصب، فمن أخذه منه يكون قد انتهبه.

5/ في أعجب وأبلغ ما يمكن التعبير عنه ببلاغة باهرة، قام الإمام في سطر واحد باحتجاج وتفنيد ادعاء، وبيان اتفاق سابق في

(1) قذى العين: ما يسقط فيها من الأشياء الصلبة التي تؤذي، وشجى الحلق هو العظمة التي تعترض الحلق فلا هي تنزل الى المعدة ولا تستخرج من الفم!

ما سمي بالحزب القرشي، كل ذلك في سطر واحد! فلله در هذا الإمام الذي ترك البلغاء بعده في حيرة! ها هو يقول «فَيَا عَجَبًا بَيْنَا هُوَ يَسْتَقِيلُهَا فِي حَيَاتِهِ إِذْ عَقَدَهَا لِآخَرَ بَعْدَ وَفَاتِهِ لَشَدَّ مَا تَشَطَّرَا ضَرْعَيْهَا».

ومعنى ذلك أن الخليفة الأول قال في أيام خلافته «أقيلوني فلست بخيركم» ومعنى الاستقالة والاستعفاء أن الإنسان لا يريد أن يتحمل مسؤولية ما يحدث من أخطاء! لا سيما وهو يقول إنه ليس بخيرهم! فيحتج عليه الإمام إن من يكون كذلك لا يتحمل مسؤولية تحويلها لشخص آخر! فكيف عقدها للخليفة الثاني؟ هل يريد الإمام أن يقول إن تلك الاستقالة ليست حقيقية! أو يريد أن يقول إن الفعلين غير منسجمين؟ أو الاحتمال الثالث الذي تشير إليه الفقرة التالية «لشدّ ما تشطرا ضرعيها» أي تقاسماها وكأنهما متفاهمان على هذا من البداية!

6/ في تقييمه للخلافة في دورها الثاني وصفها الإمام عليه السلام بأنها في «حَوْزَةٍ خَشْنَاءَ يَغْلُظُ كَلْمُهَا وَيَخْشُنُ مَسُّهَا وَيَكْثُرُ الْعِثَارُ فِيهَا وَالِاعْتِذَارُ مِنْهَا فَصَاحِبُهَا كَرَاكِبِ الصَّعْبَةِ إِنْ أَشْنَقَ لَهَا خَرَمَ وَإِنْ أَسْلَسَ لَهَا تَقَحَّمَ».

فهي في الأساس خشنة التعامل وغليظة الأسلوب، وهو ما

لا يحتاج إلى برهان بعدما كان عيانا ووجدانا، ومن الطبيعي أنه ستكثر فيها العثرات والاجتهادات في مقابل النصوص التشريعية، ويُشبهها الإمام براكب الدابة الصعبة فإن شُدد عليها انخرم فمها وإن أُرخي لها تقحمت في المهالك.

وكانت هذه الفترة طويلة حيث استمرت نحو عشر سنوات الأمر الذي وصفه الإمام عليه السلام بقوله: «فصبرت على طول المدة وشدة المحنة».

7/ وفي المرحلة التي تلتها نجد أن الإمام فصّل القول في كيفية وصول الخليفة الثالث إلى الخلافة فقال: «حَتَّى إِذَا مَضَى لِسَبِيلِهِ جَعَلَهَا فِي جَمَاعَةٍ زَعَمَ أَنِّي أَحَدُهُمْ فَيَا لَلَّهِ وَلِلشُّورَى مَتَى اعْتَرَضَ الرَّيْبُ فِيَّ مَعَ الْأَوَّلِ مِنْهُمْ حَتَّى صِرْتُ أُقْرَنُ إِلَى هَذِهِ النَّظَائِرِ، لَكِنِّي أَسْفَفْتُ إِذْ أَسَفُّوا وَطِرْتُ إِذْ طَارُوا فَصَغَا رَجُلٌ مِنْهُمْ لِضِغْنِهِ وَمَالَ الْآخَرُ لِصِهْرِهِ».

فهو يؤكد أولًا أن هذه المجموعة ليست من نظرائه، بل هو يأبى أن يكون في صف الأول من الخلفاء فما ظنك بهؤلاء؟ وفي هذا انتقاد واضح لطريقة نقل الخلافة، ويتهكم عليها بقوله: فيا لله وللشورى! لعل قائلا يقول: إذا كان الأمر كذلك فلماذا اشتركت فيها؟ كان ينبغي عليك أن تقاطعها! والجواب منه جوابان؛

أحدهما هنا وهو قوله: «لكني أسففت إذ أسفوا وطرت إذ طاروا» بمعنى أنني سايرتهم لكيلا يقال: لا حق له لأنه لم يشارك! كما يقال عادة لمن يقاطعون العملية السياسية! ويكون الحق عليهم بمقاطعتهم! ولا تكون له حجة على غيره!

والجواب الثاني الذي يستفاد من مواضع أخرى من كلماته؛ هو أنه حتى يسقط الدعاية التي بثت أيام الخليفة الأول والثاني من أنه لا تجتمع النبوة والخلافة في بيت واحد! وبشّروا بهذا الكلام في كل مكان.. فكيف صار أن نفس القائل في ذلك اليوم لا تجتمع، رشح عليًّا كأحد الأفراد وكان احتمال أن تكون الخلافة له.. فهل هذا إلا التناقض بين منطق الأمس ومنطق اليوم؟

ثم إن الإمام عليه السلام يقول إن القضية لم تكن قضية انتخاب عادي وإنما كان فيها حسابات جرت حتى صار عثمان بن عفان خليفة، وتلك الحسابات كانت بعيدة للغاية عن العدالة بل عن مصلحة الإسلام، فإن التوصية التي جعلت من الأساس على أن يكون عبد الرحمن بن عوف عنصر الترجيح فيما لو تساوى الفريقان، هي غير شرعية. ثم إنه قد حرك الحقدُ بعضهم لأجل قتل عليّ أقاربهم في الجاهلية! ومن العجب أن يكون هذا الفخر مسبة وجريمة في نظر هؤلاء بعد إسلامهم! كما مال البعض الآخر لصهره بعلاقة النسب من دون أن يكون هناك ترجيح لعلم أو عمل..

8/ كان من الطبيعي أن حملًا يتم بالطريقة السابقة لن ينتج للخلافة غير جنين مشوّه، وهو الذي وصفه الإمام بقوله: «إِلَى أَنْ قَامَ ثَالِثُ الْقَوْمِ نَافِجًا حِضْنَيْهِ بَيْنَ نَثِيلِهِ وَمُعْتَلَفِهِ وَقَامَ مَعَهُ بَنُو أَبِيهِ يَخْضَمُونَ مَالَ اللَّهِ خِضْمَةَ الْإِبِلِ نِبْتَةَ الرَّبِيعِ»، يقال بين نثيله ومعتلفه كناية «عن انّه لم يكن همّته الّا التوسّع ببيت المال، والاشتغال بالنعم بالمآكل والمشارب، ملاحظًا في ذلك تشبيهه بالبعير والفرس. وبنو أبيه: بنو أميّة وكنّى بالخضم وهو: الأكل بكلّ الفم عن كثرة توسّعهم بمال المسلمين»[1] ففي هذه الخلافة كما يصف الإمام عليّ عليه السلام أضحت السيطرة والاستئثار وأخذ الأموال العامة للمسلمين هي المعلم البارز، ولم يعدم الحاكمون تبريرًا في ذلك، فما كان بالسرّ بقي مخفيًّا وما ظهر وأُعلن جُعِل تحت عنوان صلة الرحم! وهكذا. الأمر الذي أشعل في النفوس الغضب لا سيما مع كثرة الأموال التي أكلها بنو أمية من أقارب الخليفة في الوقت الذي ازدادت فيه حاجة الناس فكان ذلك ـ بالإضافة إلى أسباب أخر ـ مقدمة للثورة ضد الخليفة، وانتهى إلى ما قاله الإمام: «إِلَى أَنِ انْتَكَثَ عَلَيْهِ فَتْلُهُ وَأَجْهَزَ عَلَيْهِ عَمَلُهُ وَكَبَتْ بِهِ بِطْنَتُهُ».

(1) البحراني؛ ابن ميثم اختيار مصباح السالكين ص 95.

9/ القيادة التي تنزلت من موضعها حيث كانت بيد النبي المصطفى، وإحدى مظاهر الولاية الإلهية على خلقه، قد هزلت مع مرور خمس وعشرين سنة حتى بدا من هزالها كلاها، فكان زهد الإمام فيها طبيعيًّا، لكن جاء الناس إليه كعرف الضبع[1] حتى وُطئ حسناه،[2] ولو لم يتصدَّ لها ربما كان يختطفها الطامحون والذين سوف يشعلون في وجهه الحروب فيما بعد!

فتصدى لها وقبِل من الناس ـ كما قال في خطبة أخرى ـ ظاهر إقبالهم وانثيالهم «إقبال العوذ المطافيل على أولادها، تقولون البيعة. قبضت كفي فبسطتموها، ونازعتكم يدي فجاذبتموها[3]» وهنا يقول عليه السلام «فَمَا رَاعَنِي إِلاَّ وَالنَّاسُ كَعُرْفِ الضَّبُعِ إِلَيَّ يَنْثَالُونَ عَلَيَّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ حَتَّى لَقَدْ وُطِئَ الْحَسَنَانِ وَشُقَّ عِطْفَايَ مُجْتَمِعِينَ حَوْلِي كَرَبِيضَةِ الْغَنَمِ، فَلَمَّا نَهَضْتُ بِالْأَمْرِ نَكَثَتْ طَائِفَةٌ وَمَرَقَتْ أُخْرَى وَقَسَطَ آخَرُونَ».

وقد عنون الإمام الفئات التي خرجت عليه بعناوينها الحقيقية،

(1) يضرب المثل في الكثرة والاجتماع بعرف الضبع.
(2) قيل إنه يقصد ابنيه الحسن والحسين، وقيل يقصد إبهاميه ويقال للإبهام: حسن.
(3) نهج البلاغة ص 195.

لا كما صنع بعض المؤلفين والكتاب من التماس العذر لهم، بزعم اجتهادهم (!) أو خروجهم للإصلاح (!) أو غير ذلك.

على خلاف ذلك عنونهم الإمام بعناوينهم الحقيقية: فقال هم ناكثون للبيعة (أهل الجمل) وقاسطون ظالمون (أهل الشام) ومارقون من الدين (الخوارج)، بل أشار إلى دوافعهم في ذلك وأنه لم يكن ذلك اجتهادًا أو طلبًا للإصلاح وإنما هو طلب الدنيا والسعي وراء الرئاسة، وأنهم حليت الدينا في أعينهم وراقهم زخرفها وزبرجها.

وفي المقابل يصرح عليه السلام بأنه لم يقم في ذلك إلا بمقتضى المسؤولية الشرعية، فإن الذي منعه في اليوم الأول من النهضة في وجه الانحراف قلة الناصر وكونه ذا يد جذّاء لكنه اليوم حاضر الناصر، فدعاه ما أخذ الله على علماء الأمة من ميثاق وعهد في تغيير الفساد، ومحاربة الظالم، ونصرة المظلوم.. وإلا لكانت هذه الدنيا وهي في نظره أهون من عفطة عنز[1] لا تسوى النهضة والقتال من أجلها.

يقول عليه السلام: «كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: ﴿تِلْكَ

(1) الرُذاذ الذي يخرج من أنف الماعز كما العُطاس عند الإنسان.

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1] بَلَى وَاللَّهِ لَقَدْ سَمِعُوهَا وَوَعَوْهَا وَلَكِنَّهُمْ حَلِيَتِ الدُّنْيَا فِي أَعْيُنِهِمْ وَرَاقَهُمْ زِبْرِجُهَا. أَمَا وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ لَوْ لَا حُضُورُ الْحَاضِرِ وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ، وَمَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَلَّا يُقَارُّوا عَلَى كِظَّةِ ظَالِمٍ وَلَا سَغَبِ مَظْلُومٍ، لَأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوَّلِهَا، وَلَأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ».

هل ترى عزيزي القارئ، عزيزتي القارئة أن هذه المضامين يمكن أن يقبلها علماء مدرسة الخلفاء؟ بالطبع لا فإذن أسلم طريق هو أن ينكروا صحة انتسابها للإمام، ولو جرّ ذلك إلى إنكار كل الكتاب! وهذا الذي حدث فبعضهم أنكر ما زعمه سبًّا لأصحاب رسول الله ويقصد منه هذه الخطبة وأمثالها، وأما باقي الخطب الأخلاقية والتزهيد في الدنيا والحكمية فلا مانع عندهم من إثبات صحة انتسابها للإمام.

وقسم آخر نفى انتساب الكتاب بكامله للإمام كما تقدم ذكر ذلك.

(1) القصص: 83.

أدوار الامام عليّ عليه السلام في عهد الخلفاء

تعتبر الفترة التي أعقبت وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى زمان خلافة الإمام الظاهرية (من آخر شهر صفر سنة 11هـ إلى سنة 35) من أصعب الفترات وأكثرها تعقيدًا، وأشدها تداخلا في حياة أمير المؤمنين عليه السلام.

وقد وصفها أمير المؤمنين «بطول المدة وشدة المحنة»[1] وطول المدة باعتبار أنها أخذت من عمر الإمام عليه السلام (25) سنة، أي أكثر من ثلث فترة حياته كاملة.

ووجه كونها شديدة المحنة أمور: ـ

فمن جهة كان ينبغي على الإمام أن يعض على جراحاته وما أكثرها! بدءًا من الهجوم على منزله وإسقاط جنين فاطمة، ثم شهادتها عليها السلام على أثر ذلك.

وفي نفس الوقت كان عليه أن يلاحظ مسيرة الدين في عهدة

(1) نهج البلاغة ص 49.

الحكومات الجديدة، فيقوِّم الخطأ ويعالج الخلل ويصلح المعوج! ومن يقوم بهذا الأمر سيعطي انطباعًا للمراقبين بأنه يوافق على تلك الحكومات، ويقبل مشروعيتها، ولكنه يصحح بعض التفاصيل! وهذا المعنى هو الذي استفاد منه تيار مدرسة الخلفاء في إثبات صحة ومشروعية تلك الحكومات!

ومن جهة ثالثة سيلاحظ أن أتباعه المخلصين ربما تمَّ إبعادهم عن مواقع كانوا الأولى بها من غيرهم، بجريرة موالاتهم لعليّ بن أبي طالب!

فهل يقاطع بشكل كامل؟ إن ذلك سيجعل الخطأ والاضطراب أكثر! أو يدخل في المعادلة بشكل كامل، وينسى أحقيته ووصية النبي بشأنه وبيعة الغدير و، و، و؟ إن ذلك سيعني أن ما حصل في السقيفة والذي تشّكى منه كان هو الصحيح! فإذن لماذا يتشكى منه ويتبرم به؟

ما سبق يبين جانبًا من حراجة الموقف وتعقيده، وإلا فالأمر أكثر من هذا. سوف نشير إلى دوره عليه السلام في تلك الفترة عبر نقاط:

1/ كان أول تحدٍّ واجهته خلافة أبي بكر هو رفض جماعات متعددة لخلافته، وواجهت تلك الخلافة بأنحاء مختلفة، وكان موقف أمير المؤمنين عليه السلام يتناسب مع دوافعها وغاياتها.

فقد واجه الخط الموالي لأمير المؤمنين عليه السلام خلافة أبي بكر، واعترض على توليه منصبًا لم يكن حريًّا به، وصرح أفراد هذا الخط بمخالفتهم للخليفة، واعترضوا عليه أمام الناس في المسجد. وقد ذكر التاريخ أسماءهم وكلماتهم في الاعتراض.[1]

ومن الطبيعي أن يكون الإمام راضيًا عن مقالتهم تلك ومواقفهم، وإن لم يشأ أن يحول ذلك الاعتراض (السياسي) إلى مواجهة اجتماعية حادة.

وضمن هذا السياق أيضًا فقد اعترض مالك بن نويرة اليربوعي[2] على تسليم زكوات قومه لأبي بكر، حيث كان وافدهم ورسولهم بتلك الزكوات، وكان قد سمع من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن وصيه هو عليّ بن أبي طالب، وحيث جاء المدينة بعد وفاة رسول الله ورأى من هو على المنبر يختلف عما كان قد أوصي به، فقد أبى تسليم تلك الزكوات وعاد أدراجه إلى قومه ليخبرهم الخبر، ويتركهم أحرارًا فيما يصنعون بأموال زكاتهم.

(1) المجلسي؛ محمد باقر: بحار الأنوار 28/ 208 عن زيد بن وهب قال: «كان الذين أنكروا على أبي بكر جلوسه في الخلافة وتقدمه على عليّ بن أبي طالب عليه السلام اثني عشر رجلا من المهاجرين والأنصار: كان من المهاجرين: خالد بن سعيد بن العاص، والمقداد بن الأسود، وأبي بن كعب، وعمار بن ياسر، وأبو ذر الغفاري، وسلمان الفارسي، وعبد الله بن مسعود، وبريدة الأسلمي، وكان من الأنصار: خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين، وسهل بن حنيف، وأبو أيوب الأنصاري، وأبو الهيثم بن التيهان».

(2) ذكرنا ترجمته في كتابنا رجال حول أهل البيت، ج 1.

ولقد تمَّ الخلط (المتعمد) بين المرتدين عن الإسلام، وبين مانعي الزكاة، ثم بين مانعي الزكاة وبين المصرين على تسليمها للخليفة الشرعي في رأيهم وهو عليّ بن أبي طالب.

2/ كذلك فقد واجه الدين حركة ارتداد عند بعض القبائل العربية، وقادها طامحون للسلطة، ضعيفو الإيمان، واعتبر بعضهم أن الرسالة الإسلامية كانت ملْكًا يرأسه رجل أخضعهم فيما مضى، وقد رحل هذا الرئيس، فلتكن لهم فرصة في إعادة الأمور لسابق عهدها.

ومن ذلك ما قام به طليحة بن خويلد في الشمال، ومسيلمة الحنفي في الوسط في اليمامة، وانضمت لهذا الجمع سجاح، وربّعهم الأسود العنسي في اليمن.. فالصورة في هذا الجانب كانت قاتمة لهذا الحد!

ولعل هذا المعنى هو الذي يشير إليه أمير المؤمنين عليه السلام بقوله» حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام يدعون إلى محق دين محمد فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلمًا أو هدما تكون المصيبة به علينا أعظم وأفوت ولايتكم».[1]

(1) نهج البلاغة ص 451 «فوالله ما كان يلقى في روعي ولا يخطر في بالي إن العرب تنزعج هذا الأمر من بعده صلى الله عليه وآله عن أهل بيته ولا أنهم منحوه من بعده فما راعني إلا انثيال الناس على أبي =

وكان بإمكان أمير المؤمنين عليه السلام أن يستفيد من تلك الفرصة كما يفعل السياسيون قديما وحديثا في إضعاف السلطة القائمة بأن يتحالف مع القوة المضادة، أو أن يبتز السلطة القائمة لتحقيق مطالبه، إلا أنه (أمير المؤمنين) فتراه بعدما أمسك يده عن البيعة في ما سبق، جاء في هذا الظرف لكي يضع يده لقوة الدولة المسلمة التي أخذت منه! فيقويها في وجه أعدائها لأن الخطر هنا متوجه إلى دين الإسلام نفسه وإلى بقاء الشريعة! وعبر عن ذلك بقوله: «فنهضت في تلك الأحداث حتى زاح الباطل وزهق، واطمأن الدين وتنهنه».[1]

ونحن وإن كنا لا نعتقد بما ذهب إليه بعض أتباع الاتجاه الرسمي ومدرسة الخلفاء من المبالغة في ذكر تأييد الإمام للخلافة، وحاولوا الاستفادة من ذلك عقائديًّا في إثبات مشروعية الخلافة.

3/ كان الإمام يرى نفسه ـ كما هو الحق ـ أولى من غيره بالخلافة، تبعًا لتعيين رسول الله إيّاه، وتبعًا لمقوماته

= بكر يبايعونه فأمسكت يدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام يدعون إلى محق دين محمد فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلمًا هو هدمًا تكون المصيبة به علينا أعظم من فوت ولايتكم».

(1) المصدر السابق.

الشخصية، وسوابقه في الدين.. وهذا ما كان يصرح به باستمرار. ومع ذلك فإنه تعاون مع الخلافة في مجالات كثيرة، ولم يتخذ طريق العداء ولا التعويق لأعمالهم. ولم يمنع أصحابه المقربين ـ وهم من علية أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ـ من التفاعل والتعاون مع سلطة الخلافة في عهدها الأول بشكل محدود باعتبار أن فترة حكم الخليفة الأول كانت قصيرة لكنها في أيام الخليفة الثاني كانت أكثر تبعًا لطول تلك الفترة (من سنة 13هـ إلى 23هـ).

فنحن نلاحظ أن عددًا ممن قبلوا ولاية مناطق هم من خلص أصحاب الإمام عليه السلام الذين لا يعتقد فيهم أنهم يخالفون توجهاته، مثل عمار بن ياسر الذي تولى إمارة الكوفة من قبل عمر بن الخطاب، وعثمان بن حنيف الذي كان على مساحة الأرض، وسلمان الفارسي الذي كان على المدائن أول ما فتحت، وكذلك حذيفة بن اليمان الذي تولى على المدائن في فترة أخرى.

ومنهم أولئك الذين شاركوا بفعالية في أمر الفتوى والأحكام الشرعية، كعبد الله بن عباس تلميذ الإمام الخاص.[1]

(1) قد أشرنا إلى تحليل هذه الجهة في كتابنا: أعلام من الأسرة النبوية وكذلك في كتابنا أصحاب النبي محمد، وبيان الآراء حول دوافعها وغاياتها. وذكرنا في الأول جوانب من حياة عبد الله بن =

بل الإمام نفسه شارك بشكل واضح في إصلاح الأخطاء القضائية وأنقذ أرواحًا كان من الممكن أن تذهب على أثر التحكيم الخاطئ والجهل بمواقع الشرع فيها، ولقد ذكر المؤرخون أن الخليفة الثاني قال: لولا عليّ لهلك عمر، نحوًا من سبعين مرة، وإذا صح هذا فهو مقدار ما قاله في تلك المواضع فكم هو عدد المواضع التي لم يقل فيها ذلك؟

وقد نقل إن الإمام ﷺ قد استشاره الخليفة عمر، في أن يخرج هو بنفسه لقتال الفرس، فأشار عليه بألّا يفعل، وأن يبقى في المدينة وقال له: «فكن قطبًا، واستدر الرحى بالعرب وأصلهم دونك نار الحرب، فإنك إن شخصت من هذه الأرض انتقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها».[1]

4/ هذه العلاقة بين الإمام عليّ ﷺ وبين الخلافة في عهدها الثاني كانت تتراوح بين الاعتراض الداخلي وعدم الرضا القلبي عما حصل من إبعاده ﷺ[2] وما ارتكب في حقه

= عباس وحواراته مع الخليفة عمر، وانتصاره لحق أمير المؤمنين ﷺ، وعقبنا على ذلك بالقول: «نعتقد أن الإمام ﷺ كان راضيًا بالعلاقة واستمرارها بين ابن عباس وبين الخلافة ولا ريب أن ابن عباس كان ينقل لأمير المؤمنين ما كان يدور بينهم وبينه. بل ويوصل آراء أمير المؤمنين ﷺ في المسائل المختلفة، بغض النظر عن أن الخلافة كانت ستأخذ بها أو لا».

(1) نهج البلاغة ص 203.

(2) وربما عبر عنه بالتنفر مما فعلته قريش معه، وهل كانت قريش إلا جهة السلطة والخلافة؟ فانظر إلى مثل قوله: «اللهم إني أستعديك على قريش..».

من ظلامات، وبين السعي للحفاظ على الكيان الإسلامي (الدولة) ومقاومة محاولات تهديمها، إذ قد ينتهي ذلك إلى تهديم الدين، وجهود النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وتتراوح بين السماح لأصحابه بالمساهمة السياسية (كولاة) أو العسكرية (كقادة جيوش) أو المساهمة الشرعية في توضيح المنهج الصحيح، وفي نفس الوقت بيان أحقيته من غيره! ولا يمنعه ذلك من أن يساعد بالرأي الناضج وببيان الحكم الشرعي الصحيح، وينقذ الجهاز الحاكم من ورطات كثيرة في القضاء.

وكان الخليفة الثاني يعلم بكفاءات أمير المؤمنين عليه السلام وأنه لو وليهم لحملهم على المحجة الواضحة، ويعلم في نفس الوقت بصفاء نفس الإمام وأنه ـ مع احساسه بالظلم الذي جرى عليه[1] ـ لم يكن ليتآمر، أو يتحرك بخبث السياسيين، أو ينتهز الفرص للإطاحة بخصومه، فكان الخليفة يقنع بهذا المقدار، ولا

(1) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة 12/ 20: نقل فيه حوارًا بين عمر بن الخطاب وبين عبد الله بن عباس، فقال عمر: كيف خلّفت ابن عمك؟ فظننته يعني عبدالله بن جعفر. قلت: خلّفتُه يلعبُ مع أترابه.قال: لم أعنِ ذلك، إنّما عنيتُ عظيمكم أهل البيت.قلت: خلّفْتُه يمتح بالغرْب (يسقي بالدلو) على نخيلات من فلان، وهو يقرأ القرآن.قال: عبدَالله، عليك دماء البُدن إن كتمتنيها؟ هل بقي في نفسه شيء من أمر الخلافة؟ قلت: نعم. قال: أيزعم أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نص عليه؟ قلت: نعم وأزيدك، سألت أبي عَمّا يدّعيه، فقال: صدَق. فقال عمر: لقد كان من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أمره ذَرْوٌ من قول لا يثبتُ حُجّةً، ولا يقطع عذرًا، ولقد كان يربَع في أمره وقتًا ما، ولقد أراد في مرضه أن يصرّح باسمه فمنعت من ذلك إشفاقًا وحيْطة على الإسلام!

يستشعر الخطر من جهة الإمام عليّ عليه السلام (ولو كان كذلك لأشار الإمام عليه أن يخرج لقتال أهل فارس وينفرد هو بالمدينة)، وربما كان تعيين الخليفة لبعض أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، لجهة كفاءتهم أولا، ولتقليل حدة التوتر ثانيًا.

وكل ذلك لم يمنع أمير المؤمنين عليه السلام من الاعتراض على عدد من الأمور [1] التي (اجتهد) فيها عمر بن الخطاب، ورآها الإمام عليّ مخالفة للسنة النبوية الشريفة.

5/ مع جرح الخليفة عمر بيد أبي لؤلؤة (في عملية اختلفت تفسيرات دوافعها ما بين الدافع الشخصي القومي، والدافع السياسي الداخلي لمصلحة بني أمية، والدافع المذهبي الديني) أوصى عمر في أيامه الأخير بأن يكون الأمر شورى، وعين أشخاص الشورى الستة، ويرى بعض الباحثين أن صياغة الشورى كان لا بدَّ أن تنتهي إلى اختيار (قريش) من جديد لا (بيت النبي)، وأنها كانت شبيهة بما يصنعه اليوم بعض السياسيين من تغيير الدوائر الانتخابية بشكل ينتهي إلى فوز أشخاص محددين أو تيارات محددة سلفًا.

(1) راجع كتاب النص والاجتهاد للسيد عبد الحسين شرف الدين.

ومع أن الإمام كان موقفه من البداية عدم صلاحية هذه الشورى، وقوانينها الموضوعة، وقال متهكما بها «فيا لله وللشورى متى اعترض الريب فيّ مع الأول منهم حتى صرت أقرن إلى هذه النظائر»؟

لكنه مع ذلك اشترك فيها لتكذيب ما احتج به السابقون لإبعاده من القول «إن النبوة والخلافة لا تجتمعان في بيت واحد»! ولتتضح أبعاد مظلوميته أكثر، حين «صغا رجل منهم لضغنه ومال الآخر لصهره [1]» مع مداخلات وتحالفات سيُقبَض ثمنها في ما بعد!

6/ مع تولي الخليفة عثمان بن عفان (من سنة 23 إلى 35هـ) تغير كل ما كان في أيام الخليفة السابق، وكأن الهدنة التي أعلنتها الخلافة مع عليّ عليه السلام، والمقدار البسيط من التفاهم والمشاورة، بل وتعاون أصحابه مع الخلافة، تغير كل ذلك

(1) الذي صغا وأطاع عداوته وضغينته تجاه الإمام هو سعد بن أبي وقاص الزهري فقد قيل كما عن ابن ميثم البحراني في اختيار مصباح السالكين ص 95: إن أمه هي حمنة بنت سفيان بن أمية، وقد قتل الإمام رؤوس بني أمية في بدر؛ عتبة وشيبة والوليد، وكذلك نقل أن سعد بن أبي وقاص امتنع عن بيعة أمير المؤمنين حتى بعدما تمت للإمام. وأما الذي مال لصهره فهو عبد الرحمن بن عوف، مال إلى عثمان حيث كان زوج أخت عثمان (من جهة أمه) وهي أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط. وقد كانت الشورى مفصلة على أساس أن من يكون معهم عبد الرحمن بن عوف فهو» الذي يأخذ الكأس»!

وأصبح الوضع أشبه بالحرب الباردة، في البداية لتتطور فيما بعد إلى التسخين التدريجي. وذلك أنه ترافق مع ظهور بارز لتحكم بني أمية في خلافة المسلمين، ومع سياسات مالية لم تكن في عهد من سبقه من الاستئثار بأموال المسلمين، ومحاباة الأقارب والأرحام، أشار إليها الإمام بقوله: «وقام معه بنو أبيه يخضمون مال الله خضمة الإبل نبتة الربيع» وفي التشبيه ما يكفي لبيان الواقع.

إضافة لذلك لم يكن الخليفة عثمان يرعى حق الإمام وموقعه في الإسلام، وربما يرى بعض الباحثين أن بعض ذلك منطلق من أن عليًّا عليه السلام نكأ جراح بني أمية بقتل سادتهم وكبارهم في بدء الإسلام. والخليفة يرتبط بهم برابط القربى. كما أن الاختلاف بين الشخصيتين واضح.

وزاد الطين بلة أن الخليفة عثمان بدأ من حوالي سنة 29هـ، بتطبيق (اجتهاداته) التي تتخالف مع السنة النبوية وما ورثه عليّ عليه السلام من النبي! في الوضوء الثلاثي والصلاة وأحكام القصر والتمام في الحج، وكان عليّ عليه السلام يصحر بالقول والفعل أن ذلك مخالف لسنة النبي، وكان يخالفه عمليًّا.

كل ذلك جعل العلاقة متوترة بشكل شبه دائم، وانعكس

هذا على أصحاب عليّ المقربين كأبي ذر الغفاري، وغيرهم كعبد الله بن مسعود، فنُفي أبو ذر إلى الشام أولا ثم إلى الربذة ثانيًا حتى مات فيها، وديس في بطن عبد الله بن مسعود على أثر اعتراضه على السياسات المالية الخاطئة، وعطل الحد الشرعي في حق أخيه من أمه الوليد بن عقبة، الذي جعله واليًا على الكوفة وشتم الشهود الذين جاؤوا بشهادتهم في شربه الخمر، وإعطائه مروان بن الحكم الأموي قرية فدك وخمس أفريقية! وبل نقل بعضهم تهديد عثمان للإمام عليّ عليه السلام أنه ينفيه خارج المدينة!

مع ذلك لم يتغير موقف الإمام عليه السلام، من موقف الناصح المشفق على الأمة من نتائج هذه التصرفات، فكان يدرأ السيئة بالحسنة! ويهدئ المتحمس لتغيير الخليفة بقوة السلاح، في نفس الوقت الذي كان فيه ينصح الخليفة[1] أن يتخذ من الإجراءات ما يسكت به فورة المنتفضين عامة وأصحاب النبي (وهم أقران الخليفة عثمان) خاصة.

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك4/ 337: «اجتمع الناس، وكلموا عليّ بن أبي طالب. فدخل على عثمان، فقال: الناس ورائي، وقد كلموني فيك، والله ما أدري ما أقول لك، وما أعرف شيئًا تجهله، ولا أدلك على أمر لا تعرفه، إنك لتعلم ما نعلم، ما سبقناك إلى شيء فنخبرك عنه، ولا خلونا بشيء فنبلغكه، وما خصصنا بأمر دونك، وقد رأيت وسمعت، وصحبت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ونلت صهره، وما ابن أبي قحافة بأولى بعمل الحق منك، ولا ابن الخطاب بأولى شيء من الخير منك، وإنك أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رحمًا، ولقد نلت من صهر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما لم ينالا، ولا سبقاك إلى شيء فالله الله في نفسك» إلى آخر نصائحه له.

ومع ضعف الخليفة الرسمي، وتعنت مروان بن الحكم الذي كان أشبه بالخليفة الفعلي، كانت الأمور تتجه إلى ما حصل من مجيء وفود المعترضين من الكوفة ومصر، وتعاضدهم مع معترضي المدينة، ووجود دعم من قبل بعض أصحاب النبي وبعض زوجاته لتلك الاعتراضات، فكان أن داهم هؤلاء قصر الخلافة، وقتل الخليفة عثمان، ولم تنفع نداءات الإمام، ولا دفاع الحسنين ابنيه في صد ذلك الهجوم!

في هذا العهد ولا سيما بعد السنوات الست الأولى من حكمه، أي بدايات سنة 30هـ كان ما تمَّ بناؤه بين الخلافة الرسمية وبين البيت النبوي والعلوي، مع أصحاب عليّ الخلص، قد تراجع ليستقر عند نقطة الصفر. فلم نشهد مشاورات سياسية أو عسكرية، ولا استشارات فقهية وشرعية، وأبعد أصحاب الإمام في الغالب ليحل محلَّهم بنو أمية وحلفاؤهم.

الإمام عليّ عليه السلام والناكثون

أول فئة ذكرها الإمام أمير المؤمنين من الذين نهضوا ضده، من الناحية الزمنية هم الناكثون وهو تعبير عن أهل الجمل، الذين قادهم طلحة والزبير وعائشة زوجة النبي.

فقال: «فلما نهضتُ بالأمر نكَثت طائفةٌ ومرقَت أخرى، وقسطَ آخرون كأنهم لم يسمعوا الله سبحانه يقول: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1] بلى والله لقد سمعوها ووعوها ولكنهم حليت الدنيا في أعينهم وراقهم زبرجها).

وتكمن أهمية الخطبة الشقشقية في أنها تسجل وقائع وحوادث من رؤية شاهد عيان مباشر لها، وأيضًا فإنها تعطي لها تفسيرًا.

وهو عليه السلام قد أعطى لكل طائفة الصفة المناسبة لها. وسواء تمت الروايات الكثيرة من طرق مدرسة الخلفاء في أنه من قول

(1) القصص: 83.

رسول الله وإخباره عليًّا أنه يقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين - وهي تامة من طريق مدرسة أهل البيت - أو لم تتم. أو قال بعضهم بالتجزئة فصحح الحديث في حق المارقين الخوارج دون الفئتين الأخريين لما هو معلوم من أن ذلك يهدم نظرية عدالة الصحابة التي تعتبر حجر الزاوية في تقييم الصحابة في المدرسة الأخرى! فإن هذه الصفات تنطبق عليهم وجدانًا.

البيعة والنكث

بويع عليٌّ يوم الجمعة 25/ ذي الحجة / سنة 35هـ

ووصفت بيعة الناس لخلافة أمير المؤمنين (الظاهرية) بأوصاف كثيرة تشير بمجموعها إلى ما يشبه الاجماع العام من قبل الناس عليها، مع فرح غامر وسرور شامل، في مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ومع أن الإمام عليه السلام، لم يسارع إليها بل ربما حاول الانسحاب منها،[1] إلا أن وصفه لإقبال الناس يشير إلى ما ذكرنا

(1) وهنا ينبغي التفريق بين أمرين قضية الإمامة الإلهية وقضية الخلافة الظاهرية، حيث أن الإمامة الإلهية لا ارتباط لها ببيعة الناس، ولا تخضع لتجمعهم، ولا تتأثر بقبولهم ولا برفضهم، فعليٌّ عليه السلام إمامٌ بتنصيب الله -جلّ وعلا- وتبليغ النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهذه الإمامة الإلهية تصبح فعلية بمجرد وفاة الرسول الأكرم وانتقاله للرفيق الأعلى، سواء بايعه أحدٌ أو لم يبايع، فالبيعة لا تُغير في أمر إمامة الإمام عليّ عليه السلام فهي إمامة إلهية.
وأما الخلافة الظاهرية فهي ترتبط بأمر بيعة الناس، لذلك الخلافة الظاهرية لم تنعقد لأمير المؤمنين أيام الخليفة الأول والثاني والثالث، رغم أنه إمام إلهي، لكنه ليس خليفة بالخلافة =

فهو يقول تارة: «فما راعني إلّا والنّاس كعرف الضّبع إليّ، ينثالون عليّ من كلّ جانب، حتّى لقد وطئ الحسنان، وشقّ عطفاي، مجتمعين حولي كربيضة الغنم»، وأخرى يقول: «فأقبلتم إليّ إقبال العوذ المطافيل على أولادها، تقولون: البيعة قبضت كفّي فبسطتموها، ونازعتكم يدي فجاذبتموها» وثالثة «ثمّ تداككتم عليّ تداكّ الإبل الهيم على حياضها يوم وردها، حتّى انقطعت النّعل، وسقط الرّداء، ووطئ الضعيف، وبلغ من سرور النّاس ببيعتهم إيايّ أن ابتهج بها الصّغير، وهدج إليها الكبير، وتحامل نحوها العليل، وحسرت إليها الكعاب».

وكانت الدوافع للبيعة اختيارية لا إكراه فيها ولا إجبار، فهو يقول: «وبايعني النّاس غير مستكرَهين ولا مجبرين، بل طائعين مخيّرين». ويقول: «ما منهم رجل إلّا وقد أعطاني الطَّاعة، وسمح لي بالبيعة، طائعًا غير مكره».

وثالثة «وإنّ العامّة لم تبايعني لسلطان غالب، ولا لعرض حاضر» و«لم تكن بيعتكم إيّاي فلتة».

= الظاهرية، لأن من شروطها للتصرف قبولَ الناس وبيعتَهم إياه، وإلزامَ أنفسهم لأوامره، وهذا لم يحصل إلا في زمانه ﷺ، والإمام ﷺ بقوله «أنا لكم وزير خيرٌ لكم مني أميرٌ» يقصد الخلافة الظاهرية ولا يقصد الإمامة الإلهية.

فمن القبيح علميّا ما قاله بعض أئمة الاتجاه الأموي من أن «نصف الأُمّة ـ أو أقل أو أكثر ـ لم يبايعوه»![1] نعم هي شنشنة نعرفها من أخزم! وإلا فقد ذكر المؤرخون وعليٌّ أمير المؤمنين قبلهم كما أشرنا إلى البيعة الشاملة وبفرح من عامة المسلمين في المدينة، وقد تتبع مؤلّف كتاب بيعة عليّ بن أبي طالب في ضوء الروايات الصحيحة هذه الفرية ونقضها بالروايات التاريخية.[2]

نعم ذكرت بعض الأسماء التي توقف أصحابها عن بيعة الإمام كحسان بن ثابت، ومسلمة بن مخلد، ومحمد بن مسلمة، والنعمان بن بشير، وزيد بن ثابت، وهؤلاء توجهاتهم عثمانية (أموية).

إلا أن بعضهم لما «حليت الدنيا في أعينهم وراقهم زخرفها وزبرجها» نكثوا عهدهم ونقضوا بيعتهم بعد أن لم ينالوا ما كانوا يأملونه من ولايات وأموال!

(1) ابن تيمية؛ أحمد بن عبد الحليم: منهاج السنة النبوية 8/ 338 زعم «إن ثلث الأمة ـ أو أقل أو أكثر ـ لم يبايعوا عليًّا، بل قاتلوه والثلث الآخر لم يقاتلوا معه وفيهم من لم يبايعه أيضًا». فانظر إلى هذا الكلام الباطل، وقارنه بالحق الذي ذكره أبو عبد الله القرطبي (ت 671 هـ) في كتابه «التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ص 1083 عن أن عليًّا ﷺ» انعقدت خلافته في مسجد رسول اللّه ﷺ ومهبط وحيه ومقرّ النبوة وموضع الخلافة، بجميع من كان فيها من المهاجرين والأنصار بطوع منهم وارتضاء واختيار، وهم أمم لا يحصون وأهل عقد وحل، والبيعة تنعقد بطائفة من أهل الحل والعقد».

(2) أشار إليه في موقع الشيخ ناصر مكارم الشيرازي https://makarem.ir/maaref/ar/article/index/401723/ ولم يتيسر لي الاطلاع على الكتاب.

لقد رأى هؤلاء بأن عليًّا ﷺ بدأ في برنامجه بالنحو الذي لا يدع مجالًا لطموحاتهم أن تتحقق، فها هو «لما رجع الأمر إليه أمر أبا الهيثم بن التيهان، وعمار بن ياسر، وعبيد الله بن [أبي] رافع، فقال: اجمعوا الناس، ثم انظروا ما في بيت مالهم، وأقسموا بينهم بالسوية. فوجدوا نصيب كل واحد منهم ثلاثة دنانير. فأمرهم يقعدون للناس ويعطونهم.

قال: وأخذ مكتله ومسحاته، ثم انطلق إلى بئر الملك، يعمل فيها.

فأخذ الناس ذلك القسم حتى بلغوا الزبير وطلحة وعبد الله بن عمر، أمسكوا بأيديهم وقالوا: هذا منكم أو من صاحبكم؟

قالوا: بل هذا أمره لا نعمل إلا بأمره.

قالوا: فاستأذنوا لنا عليه.

قالوا: ما عليه إذن، هو ذا ببئر الملك يعمل. فركبوا دوابهم حتى جاؤوا إليه، فوجدوه في الشمس ومعه أجير له يعينه، فقالوا له: إن الشمس حارة فارتفع معنا إلى الظل، [فارتفع] معهم إليه.

فقالوا له: لنا قرابة من نبي الله وسابقة وجهاد، إنك أعطيتنا بالسوية ولم يكن عمر ولا عثمان يعطوننا بالسوية، كانوا يفضلوننا على غيرنا.

فقال عليّ: أيهما عندكم أفضل: عمر أو أبو بكر؟

قالوا: أبو بكر.

قال: فهذا قسم أبي بكر، وإلا فدعوا أبا بكر وغيره. وهذا كتاب الله فانظروا ما لكم من حق فخذوه.

قالا: فسابقتنا؟

قال: أنتما أسبق مني بسابقتي؟

قالوا: لا.

قالا: قرابتنا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم.

قال: أهي أقرب من قرابتي؟

قالوا: لا.

قالوا: فجهادنا.

قال: أعظم من جهادي؟

قالوا: لا.

قال: فوالله ما أنا في هذا المال وأجيري هذا إلا بمنزلة سواء.

قالا: أفتأذن لنا في العمرة؟

قال: ما العمرة تريدان، وإني لأعلم أمركم وشأنكم، فاذهبا حيث شئتما. فلما وليا قال: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾[1]». [2]

(1) الفتح: 10.

(2) العاملي؛ السيد جعفر مرتضى: الصحيح من سيرة الإمام عليّ عليه السلام 20/ 104.

وها هو بالصراحة يقول إنما هذا المال مال الله وأنتم عباد الله وأنا عازم على التسوية بينكم فلو كان المال مالي لساويت بينكم كيف والمال مال الله؟ لقد أبطل العطاء الذي سنه الخليفة الثاني والذي كان قائمًا على المفاضلة، بحيث تكون زوجات النبي في قمة الهرم، ولكل منهن مئة درهم، وللصحابة البدريين سبعون درهمًا، وأما الموالي غير العرب فلهم أربعون درهمًا!

وصرح بأن كل القطائع والعطايا التي وزعها بعض الخلفاء على أقاربه بغير حق سترجع لبيت المال «ألا وإن كل قطيعة اقتطعها الخلفاء قبلي في غير حق فهي مردودة إلى بيت المال والحق لا يبطله شيء ولو وجدته تُزوج به ومُلك به الإماء» فهل ترى مثل مروان بن الحكم الذي أعطاه الخليفة الثالث (فدكًا) بكاملها مرة، وخمس أموال أفريقيا أخرى.. هل تراه سيرضى بحكم أمير المؤمنين؟

وعمد ﷺ لعزل الولاة الذين عيّنوا من غير كفاءة أو استحقاق! فعزل يعلى بن منبه الذي كان واليًا على اليمن، وحين وصله نبأ عزله وعلم أن أهل الجمل اجتمعوا في مكة، جمع ما في بيت المال من سلاح ودواب وجعلها تحت إمرة طلحة والزبير اللذين جاءا إلى مكة (للغدرة كما قال الإمام ﷺ) ووزعت تلك

الأموال على من التحق بهم! وعزل والي البصرة عبد الله ابن عمر بن كريز وهو من أقارب الخليفة عثمان، فحمل ما استطاع حمله من الذهب والفضة وفعل ما فعل والي اليمن، وعزل أيضًا عبد الله ابن سعد من أبي سرح عن مصر، وأبا موسى الأشعري والي الكوفة وغيرهم، ثم عيّن ولاة آخرين ممن يرتضي صفاتهم وأخلاقهم!.

وفي هذه الأثناء جاءت رسالة من معاوية بن أبي سفيان الذي عزله الإمام عن ولاية الشام، فرفض العزل وبدأ يتهيأ للمواجهة فكان مما فعل أن أرسل رسالة إلى الزبير وطلحة يبايعهما فيها!! ويخبرهما بأن قد طوع لهما الشام وأن عليهما أن يسعيا في الكوفة والبصرة! وسيأتي ذكر نص الرسالة لاحقًا!

طرف ثالث في الميدان

كان الطرف الثالث أم المؤمنين عائشة، وبعد أن اعتمرت في مكة خرجت في طريق العودة إلى المدينة وكانت قد خرجت منها والحدث يشتد ضد الخليفة الثالث، وقد كانت لا ترضى بسيرته وسلوكه فلما التقت الرسل سألتهم عما جرى في المدينة؟ فأُخبرت بأنه قد قُتل عثمان. وحين سألت: وجازت الأمور إلى خير مجاز؟ (وقد كانت تتوقع أن يكون الخليفة الزبير أو طلحة)،

فوجئت بمن قال لها: بلى والله فقد وَلوها أبا الحسن عليَّ بن أبي طالب. فقالت: ردوني إلى مكة وبقيت هناك.[1]

وتولى عبد الله بن الزبير[2] وكان رأس الحربة في التحشيد ضد أمير المؤمنين، أمر إقناع خالته أم المؤمنين عائشة بخروجها طلبًا للمصلحة (!) وأنه أهم من أمر القرآن بالقرار في البيوت[3] ويظهر أن حماس ابن الزبير للحرب انعكس قناعة عندها فجاءت تقنع أم المؤمنين أم سَلَمة زوجة النبي بالخروج معها في نفس المشوار! لكنها واجهت موقفًا قويًّا ناهيًا إيّاها عن الخروج بأدلته.[4]

وخلال هذه الفترة، بعد ما اجتمع من وصل من الولاة المعزولين إلى الزبير وطلحة في مكة، وبعد أن انضمت زوجة

(1) ابن الأثير: الكامل في التاريخ 2/ 570: «فلما كانت بسرف لقيها رجل من أخوالها من بني ليث يقال له عبيد بن أبي سلمة، وهو ابن أم كلاب، فقالت له: مهيم؟ قال: قتل عثمان وبقوا ثمانيًا. قالت: ثم صنعوا ماذا؟ قال: اجتمعوا على بيعة عليّ. فقالت: ليت هذه انطبقت على هذه إن تمَّ الأمر لصاحبك! ردوني ردوني! فانصرفت إلى مكة وهي تقول: قتل والله عثمان مظلومًا، والله لأطلبن بدمه! فقال لها: ولم؟ والله إن أول من أمال حرفه لأنت، ولقد كنت تقولين: اقتلوا نعثلًا فقد كفر».

(2) نهج البلاغة ص 555؛ قال أمير المؤمنين ﷺ: ما زال الزبير منا أهل البيت حتى نشأ ابنه المشؤوم عبد الله.

(3) الأحزاب: 33 ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾.

(4) انظر ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة 6/ 217.

النبي، واجتمع إليهم من كان يعادي عليًّا أمير المؤمنين، ومن رأى الأموال التي توزع والعطايا! ليتجه الجميع إلى البصرة.[1]

ماء الحوأب وتحذير الرسول!

خرجوا إلى البصرة، وفي الطريق وصلوا إلى بئر ماء نبحت فيه كلاب تلك المنطقة على الجمع! فسألت عائشة: ما اسم هذه البئر؟ فقالوا: اسمها بئر الحوأب!

وبينما لم يكن الاسم يعني لهم شيئًا، فقد كان يعني لها شيئًا مهمًّا، فاستعادت الاسم، وعندها قالت: ردوني! ردوني! لأنها روت أن رسول الله قد حذرها وسائر نسائه: أيتكن صاحبة الجمل الأدبب تنبحها كلاب الحوأب يقتل عن يمينها ويسارها كثير!

وجاء عبد الله بن الزبير من جديد ليقنعها بأن المصلحة (!) كما تقتضي أن تُنحى الآية جانبًا كذلك تقتضي أن ينحى حديث الرسول! بل أقام الشهود على أن هذا الماء ليس هو ماء الحوأب المقصود في حديث رسول الله!

(1) البلاذري: أنساب الأشراف 2/ 221. «صار طلحة والزبير إلى مكة وابن عامر بها قد قدم من البصرة، وبها يعلى بن منية ـ وهي أمه وأبوه أمية تميميٌّ ـ ومعه مال كثير قدم به من اليمن، وزيادة على أربعمائة بعير، فاجتمعوا عند عائشة فأداروا الرأي»

وأشاع بأن عليًّا يطاردهم[1] وأنه يكاد يصل إليهم، فليتركوا هذا المكان سريعًا! وذلك حتى لا يتم التحقق من اسم البئر وتتجدد المشكلة!

ولما وصلوا البصرة، فاجأوا عثمان بن حنيف[2] والي الإمام عليّ عليه السلام، فأخذوه وكتفوه ونتفوا كل شعرة في وجهه،[3] وقالوا له اذهب إلى صاحبك عليّ بن أبي طالب!

وسيطروا على بيت المال في البصرة، ودار الحكم، وحيّدوا أنصار أمير المؤمنين عليه السلام. هذا كله والإمام لما يصل إلى البصرة.

الاحتجاج قبل القتال

لم يكن أمير المؤمنين عليه السلام طالب حرب[4] في أي فترة من

(1) ابن الأثير: الكامل في التاريخ 2/ 573.

(2) عثمان بن حنيف الأنصاري من قبيلة الأوس، وشهد مع النبي محمد المشاهد كلها بعد غزوة بدر. ولاه عمر بن الخطاب على خراج سواد العراق، وبعثه الإمام عليّ بن أبي طالب واليًا على البصرة، فلم يزل بها حتى دخلها طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام قبل موقعة الجمل، فأخرجوه منها. توفي في أيام معاوية.

(3) ابن الأثير: الكامل في التاريخ 2/ 577: «لما أخذ عثمان أرسلوا إلى عائشة يستشيرونها في أمره، فقالت: اقتلوه. فقالت لها امرأة: نشدتك الله في عثمان وصحبته لرسول الله صلى الله عليه وآله! فقالت لهم: احبسوه. فقال لهم مجاشع بن مسعود: اضربوه وأنتفوا لحيته وحاجبيه وأشفار عينيه. فضربوه أربعين سوطًا ونتفوا لحيته وحاجبيه وأشفار عينيه »

(4) نهج البلاغة ص 509: لاَ تَدْعُوَنَّ إِلَى مُبَارَزَةٍ وإِنْ دُعِيتَ إِلَيْهَا فَأَجِبْ ـ فَإِنَّ الدَّاعِيَ إِلَيْهَا بَاغٍ والْبَاغِيَ مَصْرُوعٌ.

تاريخه وإنما كانت تفرض عليه الحروب فيدافع فيها بكفاءة ويقاتل بشجاعة، لذا أرسل لزوجة الرسول حيث كانت الوجه الأبرز في أصحاب الجمل، تلميذه عبد الله بن عباس وصاحبه عمار بن ياسر، وقام ابن عباس بمناقشتها في كل المسائل، فقالت له: لا أحد يقوم بحجج ابن أبي طالب.

وطلب الإمام من ابن عباس أن يلتقي بالزبير وقال له: لا تلقين طلحة، فإنك إن تلقه تجده كالثور عاقصًا قرنه، يركب الصعب ويقول: هو الذلول، ولكن الْتَقَ الزبير، فإنه أليين عريكة، فقل له: يقول لك ابن خالك: عرفتني بالحجاز، وأنكرتني بالعراق، فما عدا مما بدا!.[1]

ثم استدعى الإمام عليه السلام ـ قبل أن يشتبك الجيشان ـ الزبير وقال له: كنا نعدك من بني عبد المطلب إلى أن نشأ ابنك هذا عبد الله، وقال له: يا زبير عرفتني في المدينة وأنكرتني بالعراق، ألا أذكرك بشيء؟

قال: بلى.

قال له: أتذكر كنت واقفًا مع النبي فجئتُ أنا فتبسمتُ

(1) المصدر السابق 74.

لرسول الله فقلت أنت لا يدعُ عليّ ابن أبي طالب زهوهُ، فقال لك النبي إن عليًّا ليس بمُزهٍ ولتقاتِلنه وأنت له ظالم فهل تذكر ذلك قال نعم فسكت.[1]

وتقول الروايات التاريخية إن الزبير بن العوام ـ على أثر هذه الاحتجاجات ـ بدأت تختمر عنده فكرة التراجع عن القتال ولو بشكل شخصي، ولكن ابنه عبد الله (الذي عرفه الإمام بالمشؤوم) دخل على الخط وعيّره بأن تراجعه ذاك إنما هو لخوفه من سيوف بني عبد المطلب! فأحماه وقطع عليه طريق العودة!

فابتدأت الحرب.[2] في جمادى الأولى (وقيل الثانية) سنة 36هـ وسميت بحرب الجمل نسبةً للجمَل الذي كانت عائشة تمتطيه والمسمى بعسكر.

بدء القتال

حين تتورط مدرسة الخلفاء في التوفيق بين معتقداتها وبين

(1) الحاكم النيشابوري: المستدرك على الصحيحين 3: 366 بسنده عن أبي الأسود الدؤلي قال: شهدت الزبير خرج يريد عليًّا فقال له عليّ عليه السلام: أنشدك الله، هل سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: تقاتله وأنت له ظالم؟ فقال: لم أذكر، «يعني أنه نسي» ثم مضى الزبير منصرفًا. قال الحاكم: هذا حديث صحيح.

(2) أصحاب الكتابات المزيفة للتاريخ لا ينسون هنا بأن يقولوا بأن أعداء الإسلام هم الذين تسللوا بين الصفين وأشعلوا الحرب! وكأنما كان جيش أصحاب الجمل قد جاؤوا لنزهة برية! ودخلوا البصرة للتبضع! ونتفوا شعر واليها وحواجبه لعمل مكياج له!.

الوقائع، تلجأ إلى الجن تارة! وإلى الفئات السرية المتآمرة أخرى ولو كان مصطلح الماسونية معروفًا في ذلك الوقت لحملته المسؤولية عن حرب الجمل!

هكذا وبهذه البساطة يسرد لك مؤرخو مدرسة الخلفاء هذه التغفيلة «نزلت مضر جميعًا وهم لا يشكون في الصلح، ونزلت ربيعة فوقهم وهم لا يشكون في الصلح، ونزلت اليمن أسفل منهم ولا يشكون في الصلح... وخرج عليّ، وطلحة، والزبير فتواقفوا فلم يروا أمرًا أمثل من الصلح ووضع الحرب»[1] ذلك أنه لو لم يقل هذا الكلام فماذا يصنع في عقيدة عدالة الصحابة وأنهم جميعًا على صواب وأنهم أفضل خلق الله وأنهم جميعًا في الجنة؟ هذا وهم يقتل بعضهم بعضًا!

الحق: أنه ما جمعت تلك الجيوش من مكة والبصرة وغيرها ولم توزع تلك الأموال والدواب لكي تتراجع! ولا أن سبب الحرب كان بضعة أشخاص مجهولين بل (مخلوقين من أذهان المؤرخين)، وإنما كانت الخطب المتكررة من أهل الجمل

(1) ابن الأثير: الكامل في التاريخ 2/ 599 والعجيب أن ابن الأثير نفسه لتوه قد قال: إن ابن الزبير لما عارض تراجع أبيه عن القتال، وعيّره بأنه يخاف من رايات آل أبي طالب وسيوفهم الحداد التي تحملها فتية أنجاد، وقال له أبوه: إنه قد حلف على ترك الحرب! أشار عليه بأن يكفّر عن يمينه بعتق أحد عبيده، وأن يستمر على القتال!

والمبررات التي ساقوها لتلك الحرب، وتوزيع الأموال، والمخاطبات والمكاتبات لشخصيات كل المناطق، والسيطرة على البصرة، بيت مالها، ودار حكومتها، ونفي واليها منتوفًا إلى خارجها كل ذلك كان ينتهي بشكل طبيعي إلى القتال وهو ما حصل فعلًا! بالرغم من مناشدات الإمام وحواراته وحوارات أصحابه، وكل المحاولات التي بذلت لكي لا تحدث الحرب، لكن الطرف الآخر كان مصمّمًا تمامًا على الحرب والقتال.

وكما قال الإمام وهي القاعدة: «لا تدعون إلى مبارزة فإن الداعي باغ والباغي مصروع» فقد دارت الدائرة على أهل الجمل، وعقر الجمل وسقط في وسط الميدان، وقتل طلحة «بنيران صديقة» من مروان بن الحكم، والزبير بسيف ابن جرموز الذي سيصبح أحد الخوارج على أمير المؤمنين ﷺ وهذا سرّ تبشير النبي بكونه من النار ـ كما في الخبر ـ.

نُبْلٌ لا مثيل له

لو أريد للنبل أن يتجسد ظاهرًا لما وجد مثل قامة أمير المؤمنين ﷺ، الذي حيّر أعداءه كما حيّر أحبابه، فمع انتصاره ﷺ على أهل الجمل، وبعد كل هذه الجهود التي بذلت، والأرواح التي أزهقت وكان مخالفوه يتوقعون العقوبة! فما الذي قام به؟

1/ أمر عليه السلام محمد بن أبي بكر، وجماعة أن يأخذوا هودج زوجة النبي، بعدما سقط الجمل وينحوه جانبًا حتى لا يصل إليها خطر أو ضرر! ثم أرسلها إلى بيت عبد الله بن خلف الخزاعي فباتت فيه أيامًا ثم أرسلها إلى المدينة وجعل معها نساء قد اعتمرن العمائم وتلثمنّ (شرطة نسائية)! كل ذلك مراعاة لحرمة رسول الله وكرامته!

2/ أمر عليه السلام ألّا يُتْبع مُدبرٌ، ولا يُجهَز على جريح، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن ألقى سلاحه فهو آمن، ومنع السلب والنهب، رغم أن هؤلاء هم الذين نهبوا بيت المال العائد لخلافته، وفعلوا ما فعلوا بواليه وشيعته.

3/ مع نهاية المعركة، دخل الإمام البصرة بعد ما ألقى المقاتلون أسلحتهم، لا لإعلان النصر والسير في مواكبه وإنما للإعلان فيهم أنه قد دخل بلدتهم بثوبه وراحلته فإن خرج بغير لك فهو خائنٌ لله ورسوله.

الإمام عليّ عليه السلام والقاسطون

«فلمّا قمت بالأمر نكثت طائفة وقسطت أخرى ومرق آخرون، كأنّهم لم يسمعوا قول الله عز وجل: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1] بلى لقد سمعوها ووعوها لكن حليت الدنيا في أعينهم وراقهم زخرفها وزبرجها».

صنّف أمير المؤمنين عليه السلام الفئات التي بغت عليه وحاربته إلى ثلاثة أصناف:

1/ الناكثون وهم أصحاب حرب الجمل بايعوا الإمام ثم نكثوا بيعتهم.

2/ القاسطون أي الظالمون الجائرون وهم أصحاب الشام بقيادة معاوية.

3/ المارقون وهم فئة الخوارج.

القاسطون جمع قاسط وهو الجائر والظالم، وبالرغم من أنّ القسط هو العدل، إلا أن معناها في الفعل «قَسَطَ» يختلف عنه

(1) القصص: 83.

في «أقسط»، فـ«قسط» هي بمعنى ظلم واسم الفاعل منها قاسط بمعنى ظالم، أما أقسط فهي بمعنى عدل وأنصف، واسم الفاعل فيها «مُقسِط» أي عادل منصف، وقد ورد كلا التعبيرين في القرآن الكريم، ففي التصريف الأول بمعنى الظلم، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾[1].

وفي التصريف الثاني بمعنى العادل قال تعالى: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[2] بمعنى اعدلوا وأنصفوا لأنّ الله يحب المنصفين.

وعرف أتباع معاوية بن أبي سفيان الذين حاربوا بالقاسطين لهذه الجهة، ونتعرض بشكل إجمالي لهم في السطور التالية وحيث أن محور هؤلاء الجغرافي كان بلاد الشام، فمن المناسب أن نشير إلى شيء من تاريخها.

تمَّ فتح الشام (دمشق) أيام الخليفة الأول (حكم من 11 إلى 13هـ) بجيش قاده يزيد بن أبي سفيان،[3] وتبعته جيوش أخرى فتحت مدنًا أخر من الشام (وتعد أربع مقاطعات أو أجناد: جند

(1) الجن: 15.

(2) الحجرات:9.

(3) كان الخليفة أبو بكر قد عين خالد بن سعيد بن العاص وهو من أولياء الإمام عليّ بن أبي طالب، وقد اعترض على ذلك عمر بن الخطاب بسبب اعتراض خالد العلني على خلافة أبي بكر، وطلب منه عزله عن قيادة الجيش الذاهب للشام، فتم ذلك وعين يزيد بن أبي سفيان.

حمص وجند دمشق، وجند الأردن، وجند فلسطين). وبعدما تكاملت السيطرة عليها وتمَّ إخراج الروم البيزنطيين عَهِد الخليفة الثاني بها لأبي عبيدة بن الجراح، ومع وفاته سنة 17هـ، عهد بها ليزيد بن أبي سفيان، والذي لم تطل أيامه فيها، فعين عمر بن الخطاب أخاه معاوية بن أبي سفيان، ومنذ ذلك الوقت أصبحت الشام ودمشق بشكل خاص ما بين تراث ونظام بيزنطي رومي وبين حاضر أموي. وسيبقى هذا التواصل[1] والانسجام بين التوجهين إلى عشرات السنين القادمة.

سوف تنفصل الشام بالتدريج لتصبح مملكة أموية لا ترتبط كثيرًا بالمركز (المدينة) وسوف تدار بطريقة لا يعرف فيها المسلمون هناك غير بني أمية، فلا حديث إلا عنهم وفيهم، ولا ولاء إلا لهم «حتى ليدعي عشرة من أمرائهم وقوادهم: أنهم ما كانوا يعرفون للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أهل بيت غير بني أمية».[2]

وجاءت سنة 35هـ وهي سنة اجتماع الناس في المدينة على أمير المؤمنين عليه السلام، وعُمر سيطرة بني أمية على الشام تصل إلى نحو ثمان

(1) من البحوث المهمة التي لو قيض لها باحث لجاء بصيد ثمين، التواصل والتأثير الرومي المسيحي في دولة الأمويين.

(2) العاملي؛ جعفر مرتضى: الصحيح من سيرة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم 2/ 147.

عشرة سنة، وكان أول مشاريع الإصلاح عند أمير المؤمنين هو عزل الولاة الفاسدين (في أصل تعيينهم أو عملهم) وتغيير ما بنوه من باطلهم. وقد فهم معاوية بشكل دقيق برنامج الإمام عليه السلام، فمن ناحية أرسل للزبير وإلى طلحة رسالة تفيد أنّهما يقبلهما بأمرة المؤمنين وقد طوّع لهما الشام[1] وقد علم الإمام عليه السلام بأمر الكتاب،[2] كما أرسل لعبد الله بن عمر يستثيره في طلب الخلافة حيث أنه مؤهل لها كما قال، وأرسل لسعد بن أبي وقاص كذلك، ولعمرو بن العاص يحثه على المطالبة بدم عثمان بحجة أنه قُتل مظلومًا!

انضم عمرو بن العاص لمعاوية بعدما اشترط عليه أن تكون له ولاية مصر إذا ظهر وانتصر على الإمام عليّ، وقدم من المدينة إلى الشام، ونعتقد أنه هو مخرج مسرحية قميص الخليفة عثمان المخضب بالدم! على طريقة إخوة يوسف وقميصه المخضب بالدم!

(1) ابن أبي الحديد:شرح نهج البلاغة 1/ 231: بعث معاوية رجلاً من بني عميس، وكتب معه كتابًا إلى الزبير بن العوام وفيه: لعبد الله الزبير أمير المؤمنين من معاوية بن أبي سفيان، سلام عليك. أما بعد؛ فإني قد بايعت لك أهل الشام فأجابوا واستوسقوا كما يستوسق الجلب (الغنم)، فدونك الكوفة والبصرة، لا يسبقك إليها ابن أبي طالب؛ فإنه لا شيء بعد هذين المصرين. وقد بايعت لطلحة بن عبيد الله من بعدك، فأظهرا الطلب بدم عثمان، وادعوا الناس إلى ذلك، وليكن منكما الجد والتشمير، أظفركما الله، وخذل مناوئكما!!
فلما وصل هذا الكتاب إلى الزبير سرّ به، وأعلم به طلحة وأقرأه إياه، فلم يشكا في النصح لهما من قبل معاوية، وأجمعا عند ذلك على خلاف عليّ عليه السلام.

(2) أخبر عنه في خطبته قبل حرب الجمل فقال: ولقد كان معاوية كتب إليهما من الشام كتابًا يخدعهما فيه، فكتماه عني، وخرجا يوهمان الطغام (الجهلة) أنهما يطلبان بدم عثمان.

ومع عزل الإمام باعتباره خليفة المسلمين لمعاوية عن ولاية الشام، ورفض معاوية ذلك، فقد بدأ العصيان والاستعداد للمواجهة! ولكنه كان ينتظر نتائج الحرب بين أصحاب الجمل وبين عليّ بن أبي طالب.

في هذه الفترة حاول الإمام ﷺ إنهاء الأمر بالطريق السلمي تجنبًا للحرب، وتبادل مع معاوية رسائل كثيرة (مجموعها نحو ثلاث عشرة رسالة) كانت تدور حول محاور متعددة، ما يهمنا منها هنا:

1/ إصرار معاوية على أنّ أمير المؤمنين ﷺ هو قاتل عثمان أو حامي قتلته لأنهم موجودون عنده.

2/ يجب تسليم قتلة عثمان إليه حتى يقتص منهم.

3/ الخلافة يجب أن تكون شورى بين المسلمين، حيث أنه لا يعتبر عليًّا من خيار صحابة رسول الله وأن لديه الكثير من الأعداء، وعلاقته لم تكن حسنة بالخليفة الأول والثاني.

4/ التهديد الدائم بأنه سيقاتل الإمام ﷺ بأبطال أهل الشام الذين سمّاهم «الليوث الضارية والسباع القاتلة»!

ومن الواضح أن تلك الأعذار كانت هروبًا من أصل المسألة، وهي أن هناك خليفة جديدًا انتخبه عامة الناس في المدينة (فله

إذن شعبية شرعية، بالإضافة إلى شرعيته الدينية). وأن هذا الخليفة قد عزل والي الشام التي تتبع الدولة المسلمة!

وأما حديث قتل عليّ لعثمان فهي من الأكاذيب التي يعلم مطلقها أنها أكذوبة، ويعلم أن عليًّا قد دافع عن عثمان وإن لم يكن راضيًا عن سياساته، وأنه وضع الحسنين عليهما السلام وعرضهما للخطر في سبيل الدفاع عن عثمان.

وكذلك حكاية أن يدفع قتلة عثمان إليه.. فما شأن معاوية بذلك؟ إنما هو حق ولي الدم، وهو قطعًا ليس معاوية، وطلب ولي الدم ينبغي أن يُنهَى إلى القضاء الشرعي في الدولة، ويعين المتهم بالأدلة والبراهين.. وهذا كله إنما يكون ضمن إطار دولة الإمام عليّ عليه السلام، ولا شأن لمعاوية به. وهو سواء ثبت أو لم يثبت فإنه لا يعطي شرعية لبقاء معاوية في حكم الشام يومًا إضافيًّا واحدًا!

وأعجب منه قوله: إن الخلافة يجب أن تكون شورى بين المسلمين! فمن هو معاوية ـ وهو من الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة ـ حتى يعيّن هذا الأسلوب للمسلمين؟ ثم نسأل ما الذي كان يجري في المدينة غير هذا؟ ولذلك كان من ضمن الحجج أن الإمام عليه السلام قال: «إنّ بيعتي بالمدينة لزمتك وأنت بالشّام؛ لأنّه بايعني القوم الّذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بويعوا عليه فلم يكن للشّاهد أن يختار ولا

للغائب أن يردّ وإنّما الشّورى للمهاجرين والأنصار إذا اجتمعوا على رجل فسمّوه إمامًا كان ذلك لله رضا».[1]

وكان في رسائل الإمام إشارات إلى أفضليته وسابقيته في الإسلام وأنّ أهل البيت هم أهل رسول الله وأولى الناس به، وتصريحات قوية في رد كلام معاوية بمسؤولية الإمام عن قتل عثمان، وأشدّ الإنكار أن يكون له يد في قتل الخليفة الثالث، أما بشأن المطالبة بدمه فهو ليس من شأن معاوية بل من حق أولياء الدم.

وكان في رسائل الإمام تهكم على معاوية في دعوته للقتال والنزال! وأنه متى دعي بنو هاشم للقتال فنكصوا عنه وذكّره بما صنع قائلًا: «وقد علمتَ من قتلتُ من صناديد بني عبد شمس وفراعنة بني سهم وجمح وبني مخزوم وأيتمتُ أبناءهم وأيّمتُ نساءهم، وأذكّرك ما لستَ له ناسيًا يوم قتلتُ أخاك حنظلة وجررتُ برجله إلى القليب وأسرتُ أخاك عمرًا فجعلتُ عنقه بين ساقيه رباطًا وطلبتُك ففررتَ ولك حصاص (شدة الركض) فلولا أنّي لا أتبع فارًّا لجعلتُك ثالثَهما».[2]

(1) وليعلم أن الإمام هنا هو في مقام إلزام الخصم، لا إضفاء الشرعية على تلك الفترات. فإنه ليس من المعقول أن يحتج على معاوية ببيعة الغدير مثلًا أو بسائر الأحاديث التي لا يعترف بها معاوية، لكنه يعترف بصحة بيعة الخليفتين، فيلزمه الإمام بهذا.

(2) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة 15/ 84.

كان معاوية قد صمم على الحرب واتخذ لها أهبتها، وتمثل في رسالة بقول الشاعر:

ليس بيني وبين قيس عتاب غير طعن الكلى وضرب الرّقاب

لأن خياره الآخر كان يعني أن يعزل عن الشام وهو يعني له الموت الزؤام.[1]

معركة صفين

وقعت في أول شهر صفر من سنة 37هـ، بعدما سبق جيش معاوية إلى الماء وأقاموا عليه حاجزًا لمنع مقاتلي الإمام من شرب الماء، فكان أن كشفهم جيش الإمام عن الماء وأخذ موقعهم ولم يمنعهم من الاستسقاء!

وتشير بعض المصادر إلى أن القتال كان ينشب يوميًّا من الصباح إلى المساء، لا يمنعهم من الاستمرار إلا حلول الظلام، واستمر مدة تسعة أيام متتالية، كانت الحرب فيها سجالًا ولكن الكفة كانت تميل لجيش الإمام عليّ عليه السلام، ولا سيما في الأيام الأخيرة حيث كاد مالك الأشتر أن يصل إلى خيمة معاوية وعمرو بن العاص، وبانت أمارات الظفر عند جيش الإمام.

(1) وسواء صح ما نقله البلاذري في أنساب الأشراف 2/ 293 من قول معاوية لرسول الإمام عليه السلام: «إن دفع إليّ قتلة ابن عمي وأقرني على عملي بايعتُه، وإلا فإني لا أترك قتلة ابن عمي وأكون سوقة؟ هذا ما لا يكون ولا أقار عليه» أو لم يصح فإن هذه هي عقيدة معاوية، والصحيح منها هو الثاني.. إن أقرني على عملي.. وإلا فإن قتلة عثمان لم يكونوا بالنسبة له شيئًا مهمًّا!

في مقابل ذلك لجأ معاوية إلى عمرو بن العاص ليتدبر أمره بخدعة أو حيلة، فكان الحل عنده في رفع المصاحف على الرماح والدعوة إلى تحكيم القرآن! وأنه الحَكَم بيننا! فأغوى ذلك كما قيل نحو عشرين ألفًا من (أصحاب الجباه السود والبرانس) وهم المتقدسون العباد الذين لا وعي لهم، ولا بصيرة. فأصروا على الإمام بوقف الحرب وإلا مالوا عليه بسيوفهم!

ومع أن الإمام عليًّا عليه السلام بيّن لهم بأنه أعرف منهم بمعاوية وعمرو بن العاص وأنهم لا يريدون القرآن وإنما الباطلَ يريدون،[1] ولو أرادوا الحق والقرآن لوجدوه فيمن قال فيه النبي (عليّ مع الحق والحق مع عليّ) ولكن ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾.[2]

بالفعل فقد أطلعت الفتنة رأسها، واستغوى عمرو بن العاص بخديعته أولئك السذج البلهاء! وتوقفت المعركة حيث كان ينبغي أن تستمر، ولو مقدار حلب شاة كما قيل حتى تصل إلى نتيجة النصر!

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك 4/ 34 «إن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي معيط وحبيب بن مسلمة وابن أبي سرح والضحاك بن قيس ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن أنا أعرف بهم منكم قد صحبتهم أطفالًا وصحبتهم رجالًا فكانوا شر أطفال وشر رجال ويحكم إنهم ما رفعوها ثم لا يرفعونها ولا يعلمون بما فيها وما رفعوها لكم إلا خديعة ودهنًا ومكيدة.

(2) الحج:46.

لقد أنقذت الحيلة والمكر (العاصي) جيش معاوية مرتين! ففي المرة الأولى عندما استشهد عمار بن ياسر في صف أمير المؤمنين عليه السلام في اليوم الثالث من بدء المعركة، فحدثت أزمة في جيش معاوية حيث تذكر بعضهم قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم لعمار (تقتلك الفئة الباغية) وقد قتله جيش معاوية، وهذا يعيّن من هي الفئة الهادية والأخرى الباغية! لولا أنه خرج لهم بالقول: إنما قتله من أخرجه من بيته!![1] يعني عليًّا.

والمرة الأخرى هي هذه: رفع المصاحف على الرماح!

ضاع النصر من جيش أمير المؤمنين بخدعة عمرو بن العاص وغباء أصحاب الجباه السود غير الواعين[2]!

تمَّ الاتفاق على إنهاء الحرب الآن وتعيين حكمين يلتقيان بعد مدة من الزمان لكي يتباحثا في مصير الأمة!

ينبغي أن نلاحظ هنا نقطة مهمة وهي أن جيش الإمام عليّ عليه السلام هو

(1) طبقًا لهذا المنطق الأعوج فإن الذي قتل حمزة سيد الشهداء وجعفر بن أبي طالب هو رسول الله، والعياذ بالله، لأنه أخرجهما من بيتهما وليس وحشي أو جيش الروم!

(2) تاريخ الطبري؛ نفس الصفحة: فقالوا له ما يسعنا أن ندعى إلى كتاب الله عز وجل فنأبى أن نقبله فقال لهم فإني إنما قاتلتهم ليدينوا بحكم هذا الكتاب فإنهم قد عصوا الله عز وجل فيما أمرهم ونسوا عهده ونبذوا كتابه فقال له مسعر بن فدكي التميمي وزيد بن حصين الطائي ثم السنبسي في عصابة معهما من القراء الذين صاروا خوارج بعد ذلك يا عليّ أجب إلى كتاب الله عز وجل إذ دعيت إليه وإلا ندفعك برمتك إلى القوم»!

جيش الدولة، والذي ورثه ممن سبقه من الخلفاء، فلم يكن جيشًا عقائديًّا يؤمن بالإمام إيمانًا تامًّا، وإنما كانت التعبئة فيه على أساس أنه جيش الدولة وعامة المسلمين وفيه تتعدد الآراء والتوجهات! وكان هذا الجيش لتوه قد خرج من حرب الجمل التي تركت آثارها عليه! فلم يكن مستعدًا كثيرًا للقتال أكثر مما مضى، لا سيما وقد وجدوا عذرًا مناسبًا وهو (الاحتكام إلى القرآن)، وقد عبر باحثون عن هذه الفكرة بالقول: إنه «وإن كان ثمة أفراد في جيش الإمام كانوا طوع أمره، وأرادوا أن تستمر المعركة حتى انتصار جيش الكوفة، إلا أن الوثائق التاريخية تثبت أن الأكثرية العظمى من جيش الإمام كانت قد سئمت الحرب أولًا، وكانوا يعلمون أنهم حتى لو انتصروا فلن يحصلوا على أية غنائم ـ مثلما حدث في معركة الجمل ـ ثانيًا؛ ومن هنا فهم كانوا يفتقدون الدوافع المحفزة على مواصلة القتال. وعندما عرض عدي بن حاتم على الإمام عليه السلام مواصلة الحرب قائلا: يا أمير المؤمنين، ألا نقوم حتى نموت؟

قال عليّ عليه السلام: «ادنه»، فدنا حتى وضع أذنه عند أنفه، فقال: «ويحك! إن عامة من معي يعصيني، ومعاوية فيمن يطيعه ولا يعصيه». [1]

(1) الري شهري: موسوعة الإمام عليّ بن أبي طالب 6/ 250.

قصة التحكيم

في شهر رمضان من نفس[1] السنة 37هـ، بعث أمير المؤمنين عليه السلام أربعمائة من أنصاره فيهم عبد الله بن عباس (وقد كان مرشح الإمام لمواجهة عمرو بن العاص) وعليهم شريح بن هاني، وفيهم أبو موسى الأشعري[2] الذي أصرّ عليه الأشعث بن قيس الكندي وتبعه الجهال المتنسكون وأصحاب الجباه السود، ليكون هو المفاوض لعمرو بن العاص، تارة بدوافع قبلية بالقول إنه لا يحكم فينا مضريان (ابن عباس وعمرو بن العاص، فإن كان ولا بدَّ فليكن أحدهما يمانيًّا!) وأخرى بالزعم بأنه لم يشارك في (الفتنة) كما زعموا وهذه نقطة قوة في رأيهم لصالحه!

وكذلك بعث معاوية أربعمائة من أنصاره، في طليعتهم مندوبه في المفاوضة عمرو بن العاص السهمي والذي كان بمثابة النائب

(1) تختلف أقوال المؤرخين في تعيين السنة التي حصل فيها اجتماع الحكمين في دومة الجندل، فهل هي نفس سنة الحرب؟ أي 37هـ أو أنها كانت في سنة 38هـ أي بعد توقف معركة صفّين بنحو سنة وسبعة أشهر

(2) أبو موسى عبد الله بن قيس الأشعري: ت حوالي سنة 42هـ، تختلف أراء المدرستين في شأنه فبينما يحاط بالتجليل في مدرسة الخلفاء ويذكر أنه قد ولاه عمر بن الخطاب على البصرة، كما ولاه عثمان بن عفان على الكوفة، ويذكر بأنه كان حافظ القرآن، ترى مدرسة أهل البيت عليهم السلام بأنه كان مخالفًا لأمير المؤمنين عليّ، وأنه لم يكن يرغب في خلافة الإمام حتى فيما بعد ولذلك سارع إلى عزله أمام الناس في قضية التحكيم. وقد عزله الإمام أول خلافته عن ولاية الكوفة حيث كان يخذل الناس عن الخروج مع الإمام لحرب أصحاب الجمل.

العام لمعاوية. كل هؤلاء اجتمعوا في دومة الجندل.[1]

وكان من الواضح وقبل البدء بالمفاوضات أن عَمْرًا سيخدع أبا موسى، كما قال أيمن بن خريم الأسدي:

لَوْ كَانَ لِلْقَوْمِ رَأْيٌ يُعْصَمُونَ بِهِ
مِنَ الضَلَالِ رَمَوْكُمْ بِابنِ عَبَّاسِ
للَّه دَرُّ أبِيهِ أيُّمَا رَجُلٍ
مَا مِثلهُ لفِصَال الخَطْبِ فِي النَّاس
لَكِنْ رَمَوكُمْ بِشَيْخ مِنْ ذَوِي يَمَن
لَمْ يَدْرِ مَا ضَرْبُ أخْمَاس لأسْدَاسِ
إنْ يَخْلُ عمرٌو بِهِ يَقْذُفْهُ فِي لُجَج
يَهْوِي بِهِ النَّجْمُ تَيْسًا بَيْنَ أتْيَاس
أبلغ لَدَيْكَ عَلِيًّا غَيْرَ عَاتبِهِ
قَوْلَ امْرئ لَا يَرَى بِالحَقّ مِنْ بَاسِ
مَا الأشْعَرِيُّ بِمأمُونٍ أبَا حَسَنٍ
فَاعْلَمْ هُدِيتَ وَلَيْسَ العَجْزُ كَالرَّاسِ
فَاصْدِمْ بِصَاحِبِكَ الأدْنَى زَعِيمَهُمُ
إنَ ابْنَ عَمِّكَ عَبَّاسٍ هُوَ الآسِي

(1) مدينة في المملكة العربية السعودية تقع غرب تبوك وتبعد عن الحدود الأردنية نحو 100 كيلومتر.

سنترك الحوادث التاريخية كما نقلت في تاريخ الطبري وغيره، وإن اختلفت عباراتهم، وسيتأدى المعنى المطلوب للقارئ العزيز بمجرد قراءة هذه الأحداث وتفاصيلها:

«قال أبو مخنف: حدثني أبو جناب الكلبي أن عَمْرًا (بن العاص) وأبا موسى (الأشعري) حيث التقيا بدومة الجندل، أخذ عمرو يقدم أبا موسى في الكلام، يقول: إنك صاحب رسول الله وأنت أسن مني، فتكلم وأتكلم فكان عمرو قد عود أبا موسى أن يقدمه في كل شيء، اغتزى (اختص) بذلك كله أن يقدمه فيبدأ بخلع عليّ.

قال: فنظر في أمرهما وما اجتمعا عليه، فأراده عمرو على معاوية فأبى، وأراده على ابنه (عبد الله بن عمرو) فأبى، وأراد أبو موسى عَمْرًا على عبد الله بن عمر فأبى عليه، فقال له عمرو: خبرني ما رأيك؟

قال: رأيي أن نخلع هذين الرجلين، ونجعل الأمر شورى بين المسلمين، فيختار المسلمون لأنفسهم من أحبوا! فقال له عمرو: فإن الرأي ما رأيت، فأقبلا إلى الناس وهم مجتمعون، فقال: يا أبا موسى، أعلمهم بأن رأينا قد اجتمع واتفق، فتكلم أبو موسى فقال: إن رأيي ورأي عمرو: قد اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله

عز وجل به أمر هذه الأمة فقال عمرو: صدق وبرَّ، يا أبا موسى، تقدم فتكلم!

فتقدم أبو موسى ليتكلم. فقال له ابن عباس: ويحك! والله إني لأظنه قد خدعك إن كنتما قد اتفقتما على أمر، فقدمه فليتكلم بذلك الأمر قبلك، ثم تكلم أنت بعده، فإن عَمْرًا رجل غادر، ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا فيما بينك وبينه، فإذا قمت في الناس خالفك- وكان ابو موسى مغفلا- فقال له: إنا قد اتفقنا!

فتقدم أبو موسى فحمد الله عز وجل وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة فلم نر أصلح لأمرها، ولا ألمّ لشعثها من أمر قد أجمع رأيي ورأي عمرو عليه، وهو أن نخلع عليًّا ومعاوية، وتستقبل هذه الأمة هذا الأمر فيولوا منهم من أحبوا عليهم، وإني قد خلعت عليًّا ومعاوية، فاستقبلوا أمركم، وولّوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلا!

ثم تنحى وأقبل عمرو بن العاص فقام مقامه، فحمد الله وأثنى عليه وقال: إن هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه، وأثبت صاحبي معاوية، فانه وليُّ عثمان بن عفان والطالب بدمه، وأحق الناس بمقامه!

فقال أبو موسى: مالك لا وفقك الله، غدرتَ وفجرتَ! إنما

مثلك كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث قال عمرو: إنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفارا![1]

قال ابن عباس: قبح الله رأي أبي موسى! حذرته وأمرته بالرأي فما عقل.

فكان أبو موسى يقول: حذرني ابن عباس غدرة الفاسق، ولكني اطمأننت إليه، وظننت أنه لن يؤثر شيئًا على نصيحة الأمة».[2]

لقد كانت الخطيئة التي تعاضد فيها انتهازيون فسقة كابن العاص ومنافقون كالأشعث الكندي وجهلة متنسكون كابن الكواء ومن سيصبحون فرقة الخوارج فيما بعد، وهي التي ولدت الابن المشوه (التحكيم) ابن الذي لم يدر «ما ضرب أخماس بأسداس.»

والغريب أن هؤلاء الجهلة المتنسكين بعد أن رأوا ما آل إليه إصرارهم على أصل التحكيم **أولًا**، وعلى أبي موسى الأشعري **ثانيًا**، وكيف ضحك ابن العاص على لحيته.. جاؤوا يطالبون

(1) الطبري: تاريخ الرسل 5/ 71. ونقل مثله بعبارات تختلف قليلًا ابن سعد في الطبقات الكبرى 5/ 78.

(2) المصدر والصفحة نفسها.

الإمام عليه السلام بالاعتراف بخطيئته يوم قبل التحكيم! وكأنهم لم يكونوا هم الذين شهروا سيوفهم عليه لقتله إن لم يأمر بوقف القتال!

سيأتي حديث عنهم بوصفهم المارقين من الدين كما يمرق السهم من الرمية.

الإمام عليّ عليه السلام والمارقون

بتصنيف الإمام أمير المؤمنين الفئات الخارجة عليه «فلمّا قمت بالأمر نكثت طائفة وقسطت أخرى ومرق آخرون» فقد أعطى لكل فئة العنوان الرئيس لها والصفة المائزة عن سائر الفئات. وقد تقدم شيء من الحديث عن الناكثين والقاسطين. وها نحن نتناول الفئة الثالثة: المارقون.

ويعني بهؤلاء الخوارج الذين انشقوا على أمير المؤمنين بعد قضية التحكيم وتحولوا إلى فئة عسكرية مسلحة متمردة ومخربة في أيام الإمام عليه السلام. ثم استمروا في صورة متغيرة بعض الشيء كفرقة كلامية وربما فقهية في تاريخ المسلمين، بالإضافة إلى قيامهم بأعمال عسكرية معارضة للسلطات في أوقات مختلفة. وحديثنا بالتحديد يتناول وضعهم أيام أمير المؤمنين عليه السلام.

سبب التسمية

وتعود تسميتهم بالمارقين إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قبل ظهورهم بنحو ثلاثة عقود من الزمان، مع أنهم استمروا وسيبقون باعتبار

أن بذرة التطرف الديني موجودة وتنتج بين فترة وأخرى أشخاصًا وحركات!

وقد ذكرت المصادر الحديثية للمسلمين قصة ذي الخويصرة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وننقل منها ما جاء في صحيح البخاري مختصرًا عن أبي سعيد الخدري قال: «بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقسم قسمًا أتاه ذو الخويصرة وهو رجل من بني تميم فقال يا رسول الله اعدل فقال: ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل قد خبتُ وخسرتُ إن لم أكن أعدل! فقال عمر: يا رسول الله ائذن لي فيه فأضرب عنقه! فقال: دعه فإن له أصحابًا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية... آيتهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدي المرأة أو مثل البضعة تدردر ويخرجون على حين فرقة من الناس. قال أبو سعيد: فأشهد أني سمعت هذا الحديث من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأشهد أن عليّ بن أبي طالب قاتلهم وأنا معه فأمر بذلك الرجل فالتمس فأتي به حتى نظرت إليه على نعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي نعته».[1]

(1) صحيح البخاري 4/ 200. وذكره مالك في المدونة 1/ 530، وأيضًا مصنف ابن أبي شيبة 7/ 562.

ونلحظ التشبيه البليغ للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، في أنهم شبه علاقتهم بالدين كعلاقة السهم الذي يمر ويمرق من الرمية من دون أن يلتصق به. ونفس هذا التعبير استعمله الإمام عليه السلام.

ونستطيع أن نتأمل في بعض صفات المارقين التاريخية، لنرى أنها قد تنطبق على فئات موجودة بين المسلمين وإن لم تسمَّ بالخوارج، ذلك أن القضية ليست قضية تسميات، وإنما واقع الحال فمن الممكن أن نجد شخصًا ممن يصنف على الخوارج ولكن فعله لا ينطبق عليهم ومن الممكن أن نجد آخر يتبرى من الخوارج ليلًا ونهارًا ولكنه يحمل نفس الفكر والطريقة.

فمن صفاتهم كثرة العبادة الظاهرية: فهم يحرصون كثيرًا على حفظ القرآن، وترديد الأذكار، والإكثار من ركعات الصلاة، ولكن كل ذلك يبقى في صورته الظاهرية وشكله الخارجي، فلا تفكر فيها، ولا تدبر في أهدافها وغاياتها، ولا تكامل بينها وبين سائر نواحي حياة هذا المتعبد.. وربما يكون الحديث (ألا لا خير في عبادة ليس فيها تفكر) ناظرًا إلى هذه العبادة المغرقة في الأشكال والاعداد والمظاهر. وينافسون غيرهم بها، حتى «إنكم لتحقرون صلاتكم إلى صلاتهم».

ومن صفاتهم: عدم التعقل والاكتفاء بظواهر الأمور: هم

يغفلون عن أن مدح ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ ﴾ يرتبط بأنهم ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾.[1]

ولذلك لا مانع عند هؤلاء المتنسكين أن يسلوا السيوف على إمام أهل الأرض ونفْس رسول الله قائلين: إن لم تجب إلى حكم الله ملنا عليك بسيوفنا! وعندما يجيبهم الإمام بأنه أعرف بمعاوية وابن العاص منهم لأنه صحبهم صغارًا وعرفهم كبارا، وأنهم لا يريدون حكم الله ولا تحكيم القرآن، لم يلق منهم غير الإعراض عن هذا الكلام والتهديد بالقتل![2]

والعجيب منهم أنهم عندما استيقظوا من نومتهم تلك، على سخرية ابن العاص منهم ومن مرشحهم الذي فرضوه على الإمام، وقبله الإمام مرغما لدرء الفتنة، عندما أفاقوا وعرفوا الخديعة ألقوا باللائمة على أمير المؤمنين وقالوا له لقد كفرت بقبول ذلك التحكيم، فلا بد أن تنقضه وإلا فأنت كافر! فاشهد على نفسك بالكفر أمام الناس وتبْ منه علانية حتى نعذرك!

(1) آل عمران:191

(2) ابن أبي الحديد؛ شرح نهج البلاغة 2/ 265 «وقد كنت نهيتكم عن هذه الحكومة، فأبيتم على إباء المخالفين المنابذين، حتى صرفت رأيي إلى هواكم. وأنتم معاشر أخفاء إلهام، سفهاء الأحلام».

تبًّا لتلك العقول التي تكون الأحذية أفضل منها! وسحقًا لذلك المنطق السقيم الذي يكون البكم أحسن منه!

وأجابهم الإمام عليه السلام بقوله: أصابكم حاصِب ولابقي منكم آبِر[1] أبعد إيماني بالله وجِهَادِي مَعَ رَسُولِ اللَّه صلى الله عليه وآله أَشْهَدُ عَلَى نَفْسِي بِالْكُفْرِ ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَاْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾[2] فَأُوبُوا شَرَّ مَآبٍ وارْجِعُوا عَلَى أَثَرِ الأَعْقَابِ ـ أَمَا إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي ذُلاً شَامِلًا وسَيْفًا قَاطِعًا ـ وأَثَرَةً يَتَّخِذُهَا الظَّالِمُونَ فِيكُمْ سُنَّة».[3]

ولأن هؤلاء لا يفكرون ولا يتعقلون فقد كفّروا عليًّا عليه السلام وكفروا شيعته ومن لا يقول بكفره! وأخذوا يتجهزون للقتال، وتجمعوا في حروراء[4] وبدأوا يظهرون (كفر) عليّ عليه السلام في وسط الكوفة وأمام الناس ويقاطعون خطابات الإمام، ويظهرون التهديد له بأنهم سوف يغتالونه، حتى خشي أصحابه عليه، وذكروا له أن يتخذ تجاههم إجراء من سجن أو يمنعهم من حضور المسجد وخطب الإمام التي كانوا يشوشون فيها ويقاطعون الإمام في خطاباته[5]

(1) الحاصب: الريح الشديدة المهلكة تثير الحصباء وهي الحجارة الصغيرة، والآبر: هو الفلاح الذي يؤبر النخل.

(2) الأنعام: 56.

(3) نهج البلاغة ص 93.

(4) منطقة تقع طرف الكوفة، وقد ارتبط اسم الخوارج بها لذلك يقال لهم أيضًا الحرورية.

(5) لتفصيل هذه الأمور وما صنع الخوارج وما قابلهم به الإمام وتطور الأحداث ننصح بمراجعة كتاب بحوث في الملل والنحل لآية الله الشيخ جعفر السبحاني5 ص 83 ـ 92.

لكن عليًّا عليه السلام الذي اختصه العليُّ لإظهار البرنامج الإصلاحي للدولة المسلمة كان حازمًا في القول: «إن لكم علينا أن لا نبدأكم بقتال، وأن لا نقطع عنكم الفيء، وأن لا نمنعكم مساجد اللّه»[1] إن عشرة بالمائة مما قام به الخوارج في الكوفة قبل الفعل العسكري، لو قام به معارض في بلد مسلم لخُلّد في السجون! فكيف يتحدث الإمام عن حقوق معارضيه؟ لكنه عليٌّ وكفى!

ولو كانت الأمور تقف عند هذا لكان الوضع طبيعيًا لدى أمير المؤمنين، لكن الخوارج أخذوا بالعصيان المسلح فبدأوا يقطعون طريق الكوفة ويعرضون الناس على امتحان الولاية والبراءة، فمن لم يتبرأ من عليّ بن أبي طالب ولم يشهد عليه بالكفر، كانوا يقدمونه للقتل! فقتلوا عبد الله بن خباب بن الأرت ومعه زوجته الحامل، فعرضوه على ذلك السؤال، وحين أجابهم بأنه لا يرى عليٌّ كافرًا قتلوه وبقروا بطن زوجته وطفله![2]

(1) ابن أبي شيبة: المصنف 8/ 741: عن كثير بن نمر قال: بينا أنا في الجمعة وعليّ بن أبي طالب على المنبر إذ جاء رجلٌ فقال: لا حكم إلا لله، ثم قام آخر فقال: لا حكم إلا لله، ثم قاموا من نواحي المسجد يحكمون الله فأشار عليهم بيده: أجلسوا، نعم لا حكم إلا لله، كلمة حق يبتغى بها باطل، حكم الله ينتظر فيكم، الآن لكم عندي ثلاث خلال ما كنتم معنا، لن نمنعكم مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، ولا نمنعكم فيئًا ما كانت أيديكم مع أيدينا، ولا نقاتلكم حتى تقاتلوا».

(2) قال الطبري في تاريخه 5/ 82 ـ ما خلاصته ـ: لما أقبلت الخارجة من البصرة حتى دنت من النهروان رأى عصابةٌ منهم رجلًا يسوق بامرأة على حمار، فدعوه فانتهروه فأفزعوه وقالوا له: من أنت؟ قال: أنا عبد الله بن خباب صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله، فقالوا له: أفزعناك؟ قال: نعم. قالوا: =

التطور الذي حدث أن الخوارج بدأوا يقطعون الطريق إلى الكوفة فكل من أراد الذهاب للكوفة سألوه عن عقيدته وبمن يؤمن في الخليفة وعلى ضوئها إما يتركوه أو يعاقبوه، وقتلوا نساء أيضًا على نفس الموضوع.

وكان من اللازم بعد ذلك ردع الخوارج عن هذا الإفساد، فأرسل لهم في البداية رسولًا يطلب منهم الامتناع عن قتل المسلمين، وتسليمه قتلة عبد الله بن خباب وزوجته، فعمدوا إلى رسول الإمام عليه السلام فقتلوه أيضًا!

وتجمعوا في النهروان وعلى رأسهم عبد الله بن وهب الراسبي ودعوا أنصارهم من المدائن والبصرة والكوفة، فخطب الإمام في أهل الكوفة أن يخرجوا معه لقتالهم، وأرسل إلى ابن عباس في البصرة أن يحشد مقاتليه لينصروا الإمام عليه السلام، وهكذا تواقف الفريقان. فأرسل الإمامُ عبدَ الله بن عباس لمناظرتهم فغلبت حجتُه ترهاتِهم، وأرسل الإمام إلى رؤسائهم رسائل يبين فيها

= لا روع عليك، إلى أن يقول: قالوا: فما تقول في عليّ قبل التحكيم. وبعده؟. قال: إنه أعلم بالله منكم وأشد توقيًا على دينه وأنفذ بصيرة. فقالوا: إنك تتبع الهوى وتوالي الرجال على أسمائها لا على أفعالها، والله لنقتلنك قتلةً ما قتلناها أحدًا.

فأخذوه وكتفوه ثم أقبلوا به وبامرأته، وهي حبلى متم... فأضجعوه فذبحوه، فسال دمه في الماء، وأقبلوا إلى المرأة فقالت: أنا امرأة ألا تتقون الله! فبقروا بطنها، وقتلوا ثلاث نسوة من طيء، وقتلوا أم سنان الصيداوية.

حقيقة الأمور المشتبهة عليهم، فردوا عليه أقبح رد، ومنعوا ابن عباس من الاستمرار في مناظراته لأنه استطاع أن يقنع عدة آلاف منهم!

فنشبت الحرب، وعلى طريقة الانغماسيين الذين رأينا بعضهم في هذه الأزمنة المتأخرة حيث يُحشَى عقل بعض المغررين سفهاء الأحلام بأوهام العشاء مع النبي والرواح إلى الجنة، فقد كانوا ينغمسون في القتال مستريحين إلى أنهم سيقعون في أحضان الحور العين، بينما كانت ملائكة النار تنتظرهم، لخروجهم على قسيم الجنة والنار إمام زمانهم، وكانت النتيجة كما قال إمام المتقين «مصارعهم دون النطفة والله لا يقتل منكم عشرة ولا ينجو منهم عشرة».

ومن الذين بقوا على قيد الحياة كان عبد الرحمن بن ملجم المرادي، الذي هرب من المعركة وأخذ يخطط لقتل الإمام عليه السلام!

روايات مقتل الإمام عليّ وشيء من التحليل

فيما تقدم من الصفحات ذكرنا مختصرًا عن كيفية تكوّن الخوارج وانتهائهم إلى القتال مع أمير المؤمنين عليه السلام في النهروان، وكيف تمَّ إقناع بعضهم قبل المعركة بالعودة عن مسلكهم الباطل، وكيف أن الإمام عليًّا عليه السلام أخبر أنه لا ينجو منهم عشرة. وبالفعل فإن الذي نجا من القتل في المعركة منهم كانوا تسعة أشخاص، كان منهم عبد الرحمن بن ملجم المرادي[1] الذي سيرتكب فيما بعد جريمة قتل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام غيلة في مسجد الكوفة فجر التاسع عشر من شهر رمضان سنة 40هـ.

(1) العسقلاني؛ ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة 5/ 85: عَبدُ الرَّحمنِ بنُ مُلجَم المُرادِيُّ أدرَكَ الجاهِلِيَّةَ وهاجَرَ في خِلافَةِ عُمَرَ وقَرَأَ عَلى مُعاذِ بنِ جَبَلٍ، ثُمَّ صارَ مِن كِبارِ الخَوارِجِ، وهُوَ أشقى هذِهِ الأُمَّةِ بِالنَّصِّ الثّابِتِ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله بِقَتلِ عَلِيِّ بنِ أبي طالِبٍ.
وأضاف العسقلاني في «لسان الميزان» 3/ 440 «يقال أن عمرو بن العاص أمره بالنزول بالقرب منه لأنه كان من قراء القرآن وكان فارس قومه المعدود فيهم بمصر وكان قرأ على معاذ بن جبل وكان من العباد ويقال أنه كان أرسل ضبيع بن عسل إلى عمر يسأل عن مشكل القرآن وقيل أن عمر كتب إلى عمرو بن العاص أن قرب دار عبد الرحمن بن ملجم من المسجد ليعلم الناس والقرآن والفقه فوسع له فكان داره إلى جنب دار بن عديس».

وهنا عدة مسائل ترتبط بعملية الاغتيال:

الأولى: في كيفية الاغتيال ووقته

وأنه هل كان في صلاة الفجر أو في نافلتها؟ إذ يترتب على كل منهما بعض الأسئلة!

والثانية: هل كان لأهل الشام وقيادتهم دور

في تخطيط أو تمويل تلك العملية؟

والثالثة: هل كان الإمام يعلم بوقت مقتله؟

وإذا كان يعلم ألا يعد ذلك إلقاءً بالنفس للتهلكة وهو محرم؟

ومجمل الرواية عن اغتيال الإمام: أنه عليه السلام كان ليلة التاسع عشر من شهر رمضان، كان في بيت إحدى بناته وقد أفطر هناك على طعام بسيط، ثم كان يسترجع طوال ليلته ويخبر عن أنها هي الليلة الموعودة، وأنه ما كُذب فيها ويوطن نفسه على لقاء الموت! وأنه بعدما أحيا ليلته بالعبادة والصلاة، تهيأ لينصرف إلى مسجد الكوفة، وبينما كان الإوز في فناء الدار يصيح في وجهه وكأن يستشعر وقوع مصيبةٍ، عالج باب الدار فانحل مئزره، فأخذ يشده وينشد:

شد[1] حيازيمك للموت فإن الموت لاقيكا
ولا تجزع من الموت إذا حل بواديكا
كما أضحكك الدهر كذاك الدهر يبكيكا

وبعدما وصل إلى المسجد وأذن في المأذنة (بناء على ما قيل) نزل يوقظ النائمين في فناء مسجد الكوفة، وكان من بينهم ابن ملجم المرادي، الذي كان يخفي سيفه تحت ردائه، فلما صار الإمام إلى محراب صلاته، وبدأ بالصلاة (النافلة أو الفريضة) قام ابن ملجم واختبأ خلف أسطوانة المسجد فلما هوى الإمام للسجدة من الركعة الأولى ورفع رأسه هوى عليه ابن ملجم بسيفه فشق رأسه.

وتذكر الروايات في مصادر الإمامية أن أمورًا غيبية قد ترافقت مع تلك الضربة، منها أنه سمع نداء بين السماء والأرض: تهدمت والله أركان الهدى وانفصمت العروة الوثقى قتل ابن عم المصطفى.

أما بالنسبة **للمسألة الأولى**: وهي أنه هل كان في وقت الفريضة أو النافلة؟ فقد يورد على كون الاغتيال في وقت الفريضة أنه كيف يمكن ذلك مع وجود المئات ـ إن لم يكن أكثر ـ يصلون

(1) بعضهم ذكرها بعنوان: اشدد، وبعض الأدباء قال إن البيت هو بدون فعل الأمر.

خلف أمير المؤمنين عليه السلام؟ فيستطيع هذا أن يتخفى بين هذه الجموع، ولا سيما إذا ضم لذلك ما نقل من أن ابن ملجم صرخ قبل أن يضربه بالسيف: الحكم لله لا لك يا عليّ؟

والظاهر من مسرح العملية وحوادثها والروايات التاريخية فيها ـ لا سيما القديمة ـ أن ضربة ابن ملجم للإمام عليه السلام كانت في نافلة الفجر التي هي قبل الفريضة للجهات التالية:

1/ أن ابن ملجم كان يريد أن يقتل الإمام وينجو بنفسه، فلم يكن يريد أن ينفذ عملية انتحارية يقتل فيها لا سيما إذا قبلنا الروايات التي تشير إلى دور قطام (زوجته أو مخطوبته) في الأمر، فما فائدة أن يقتل الإمام ثم يُقبَض عليه ويقتل؟ ولا ريب أن قتله إياه في صلاة الفجر الفريضة مع وجود جموع الناس لن يتيح له فرصة النجاة! بخلاف ما إذا ضربه والمسجد شبه خال من المصلين وهو وقت النافلة وقبل إقامة صلاة الجماعة.

2/ إن هذه الفرضية تجيب على كل الأسئلة التي لا تستطيع الفرضية الأخرى الإجابة عليها؛ كالسؤال أين كان الحسنان وبنو هاشم وخيرة أصحاب الإمام، فإن تأخرهم عن النافلة ليس بمستنكر بخلاف تأخرهم عن صلاة الجماعة للفريضة

الواجبة. ويفسر ما جاءت به الروايات من أن بني هاشم وغيرهم لما سمعوا بالهتاف السماوي هُرعوا إلى المسجد مسرعين فوجدوا الإمام عليه السلام مضروبًا بالسيف. فلا تفسير لهذا على القول بأنه ضرب في وقت الفريضة إذ لا معنى لأن يكونوا «هرعوا وأسرعوا بالمجيء» بينما على الفكرة الأخرى يكون واضحًا.

3/ إن هناك من الروايات التاريخية ما فيه صراحة في أن الضربة كانت وقت النافلة.. فمن ذلك ما نقله ابن أعثم (ت 314هـ) في الفتوح «وجاء عليٌّ رضي الله عنه إلى باب دار مفتحة ليخرج، فتعلَّق الباب بمئزره فحلَّ مئزره وهو يقول: اشدُد حيازيمك للموت فإنَّ الموت لاقيكا.. قال: ثم مضى يريد المسجد وهو يقول:

خلوا سبيل المؤمن المجاهد في اللَّه لا يعبد غير الواحد

قال: ثم جاء حتى وقف في موضع الأذان، فأذَّن ودخل المسجد.. فجعل يُنبِّه مَن في المسجد من النيام، ثم صار إلى محرابه فوقف فيه، فافتتح الصلاة، وقرأ، فلمَّا ركع وسجدَ سجدةً واستوى قاعدًا، وأراد أنْ يسجد الثانية ضربه ابنُ ملجم ضربةً على رأسه. فوقعت الضربةُ على الضربة التي كان ضربَها عمرو بنُ عبدود يوم الخندق بين يدي النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم، ثم بادر فخرج من

المسجد هاربًا، وسقط عليٌّ رحمة الله عليه لِمَا به، وتسامعَ الناسُ بذلك وقالوا: قُتل أمير المؤمنين ودنت الصلاة، فقام الحسنُ بن عليّ فتقدَّم فصلَّى بالناس ركعتين خفيفتين. (1)

4/ إنه من خلال ما تقدم ويأتي ستكون الروايات التي ذكرت من أن ابن ملجم ومعه شبيب قد اعترضا الإمام عليه السلام وهو يدخل المسجد وأن شبيبًا ضرب الإمام بسيفه فأخطأه ووقعت الضربة في الحائط، فضربه ابن ملجم على رأسه فصرعه، مما لا ينبغي الالتفات إليه، وهي لا تتحدث عن أمير المؤمنين الذي كان خياله يخيف عشرات من أمثال ابن ملجم! فهل كان الإمام ينتظرهما أن يضربه أحدهما بسيفه ويخطئه ثم يتقدم الآخر ويضربه بسيف آخر، وهو واقف مكتوف اليدين لا يحرك ساكنا حتى يجهزا عليه؟ هذا بالإضافة إلى ما قام عليه ما يشبه إجماع المؤرخين والمحدثين من أنه عليه السلام شهيد الصلاة والمحراب.

(1) ومثلها ما ذكره العلامة المجلسي في بحار الأنوار 42/ 281 من قوله: «فأمهله حتى صلى الركعة الأولى وركع وسجد السجدة الأولى منها ورفع رأسه، فعند ذلك أخذ السيف وهزه، ثم ضربه على رأسه المكرم الشريف، فوقعت الضربة على الضربة التي ضربه عمرو بن عبد ود العامري، ثم أخذت الضربة إلى مفرق رأسه إلى موضع السجود، فلما أحس الإمام بالضرب لم يتأوه وصبر واحتسب، ووقع على وجهه وليس عنده أحد قائلًا: بسم الله وبالله وعلى ملّة رسول الله، ثم صاح وقال: قتلني ابن ملجم قتلني اللعين ابن اليهودية ورب الكعبة..

وأما **المسألة الثانية**: هل كان لمعاوية وقادة الشام من دور في مقتل الإمام بنحوٍ من الأنحاء؟

فإنه قد ذهب إلى الجواب بالإيجاب بعض الباحثين؛ ومنهم الشيخ باقر شريف القرشي، فقد ذكر في كتابه: حياة الإمام الحسين عليه السلام[1] ما خلاصته:

«أنّ مؤامرة القتل لمْ تقتصر على الخوارج بل كان للحزب الأُموي ضلع كبير فيها ويدعم ذلك:

1 ـ أنّ أبا الأسود الدؤلي ألقى تبعة مقتل الإمام على بني أُميّة وذلك في رثائه الإمام عليه السلام فقد جاء فيها:

ألا أبلغ معاويةَ بنَ حربٍ فلا قرّت عيونُ الشامتينا
أفي شهر الصيامِ فجعتمونا بخيرِ الناس طُرًّا أجمعينا
قتلتُمْ خيرَ مَنْ ركب المطايا ورحّلها ومَنْ ركب السفينا

ومِن الطبيعي أنّ أبا الأسود لمْ ينسب هذه الجريمة لمعاوية إلّا بعد التأكد منها فقد كان الرجل متحرّجًا أشدّ التحرّج فيما يقول.

2 ـ أنّ القاضي نعمان المصري وهو مِن المؤرّخين القُدامى قال ما نصه: وقيل: إنّ معاوية عامَلَه ـ أي عامل ابن ملجم ـ على

(1) القرشي؛ باقر شريف: حياة الإمام الحسين 2/ 104ـ106.

ذلك ـ أي على اغتيال الإمام عليه السلام ـ ودسّ إليه فيه وجعل له مالًا عليه.

3 ـ وممّا يؤكد اشتراك الحزب الأُموي في المؤامرة هو أنّ الأشعث بن قيس قد ساند ابن ملجم ورافقه أثناء عملية الاغتيال فقد قال له: النجا فقد فضحك الصبح؛ ولمّا سمعه حِجْر بن عدي صاح به: قتلته يا أعور! وكان الأشعث مِن أقوى العناصر المؤيدة للحزب الأُموي فهو الذي أرغم الإمام عليه السلام على قبول التحكيم وهدّد الإمام عليه السلام بالقتل قبل قتله بزمان قليل كما كان عينًا لمعاوية بالكوفة.

إنّ المؤامرة ـ كما يقول الرواة ـ قد أُحيطت بكثير مِن السرّ والكتمان فما الذي أوجب فهم الأشعث ودعمه لها لولا الإيعاز إليه مِن الخارج؟!

4 ـ إنّ مؤتمر الخوارج قد انعقد في مكة أيّام موسم الحجّ وهي حافلة ـ مِن دون شك ـ بالكثيرين مِن أعضاء الحزب الأُموي الذين نزحوا إلى مكة لإشاعة الكراهية والنقمة على حكومة الإمام عليه السلام وأغلب الظنّ أنّهم تعرّفوا على الخوارج الذين كانوا مِن أعدى الناس للإمام عليه السلام فقاموا بالدعم الكامل لهم على اغتيال الإمام عليه السلام.

وممّا يساعد على ذلك أنّ الخوارج بعد انقضاء الموسم أقاموا بمكة إلى رجب فاعتمروا في البيت ثمّ نزحوا إلى تنفيذ مخططهم فمِن المحتمل أنْ يكونوا في طيلة هذه المدّة على اتصال دائم مع الحزب الأُموي وسائر الأحزاب الأُخرى المناهضة لحكم الإمام عليه السلام.

5 ـ والذي يدعو إلى الاطمئنان في أنّ الحزب الأُموي كان له الضلع الكبير في هذه المؤامرة هو أنّ ابن ملجم كان معلّمًا للقرآن، وكان يأخذ رزقه مِن بيت المال ولمْ تكن عنده أيّة سعة مالية فمِنْ أين له الأموال التي اشترى بها سيفه ـ الذي اغتال به الإمام عليه السلام ـ بألف وسمّه بألف؟! ومِنْ أين له الأموال التي أعطاها مهرًا لقطام وهو ثلاثة آلاف وعبد وقَينة؟! كلّ ذلك يدعو إلى الظنّ أنّه تلقّى دعمًا ماليًا مِن الأُمويِّين إزاء قيامه باغتيال الإمام عليه السلام.

6 ـ وممّا يؤكد أنّ ابن ملجم كان عميلًا للحزب الأُموي هو أنّه كان على اتصال وثيق بعمرو بن العاص وزميلًا له منذ عهدٍ بعيدٍ؛ فإنّه لمّا فتح ابن العاص مصر كان ابن ملجم معه وكان أثيرًا عنده فقد أمره بالنزول بالقرب منه.

وأكبر الظنّ أنّه أحاط ابن العاص علمًا بما اتفق عليه مع زميليه

مِن عملية الاغتيال له وللإمام ﷺ ومعاوية؛ ولذا لمْ يخرج ابن العاص إلى الصلاة وإنّما استناب غيره فلم تكن نجاته وليدة مصادفة وإنّما جاءت وليدة مؤامرة حيكت أُصولها مع ابن العاص؛ هذه بعض الأُمور التي توجب الظنّ باشتراك الحزب الأُموي في تدبير المؤامرة ودعمها».

ومثله ذكر الشيخ الري شهري في كتابه موسوعة الإمام عليّ فقال ما خلاصته «بأنه لا يوجد سند تاريخي يشير إلى دور معاوية في قتل الإمام لكن هناك قرائن لا يمكن للباحث أن ينكر في ضوئها دور معاوية في ذلك؛ فإنه كان بصدد قتل الإمام؛ لأنّه لن يصل إلى الخلافة طالما بقي عليّ ﷺ حيّا!، هذا من جهة، ومن أُخرى فإنّ قتل الإمام في ساحة المعركة لم يكن أمرًا ميسورًا، فأفضل السبل لإزاحة الإمام عن الطريق هو اغتياله، وقد جرّبه معاوية سابقًا مع مالك الأشتر. وأفضل من ينفّذ الاغتيالَ أنصار سابقون للإمام؛ وهم بقايا الخوارج الذين حاربوا الإمام مؤخرًا، وكانوا يفكّرون بالانتقام لقتلاهم».

وأشار الري شهري - كما الشيخ القرشي - إلى دور الأشعث بن قيس الكندي، الذي كان قد هدد الإمام بالقتل ووصفه الإمام بالنفاق، وكان له علاقات خفية بمعاوية ويشير

علمه المسبق بالعملية وعلاقة ابن ملجم معه قبل العملية يشير إلى وجود يد لدمشق فيها».[1]

والذي نعتقده ما يلي:

1/ إن ما أشار العلامة الري شهري من أنه لا يوجد أي سند تاريخي يشير إلى دور أموي في اغتيال الإمام ﷺ، هو صحيح تماما! ولا ينفع توجيه المرحوم القرشي بأن عدم وجود ذلك لأن المؤرخين أحاطوه بالإخفاء!

2/ أنه ينبغي التفريق بين التخطيط للعملية وبين الاستفادة من وقوعها! فمن الممكن أن تكون حادثة واحدة ينفذها شخص أو جهة، لكن من يستفيد من وقوعها يكونون كثيرين أو جهات متعددة. وما نحن فيه هو من هذا القبيل فإن أمير المؤمنين ﷺ كان له أعداء كثيرون ـ وبدرجات مختلفة ـ قد يكون أشرس هؤلاء هم الخوارج وهم الذين نفذوا عملية الاغتيال، لكن سيستفيد من نتيجتها معاوية وأتباعه، بل سيُسَر

(1) الري شهري؛ محمدي: موسوعة الإمام عليّ بن أبي طالب 4/ 252 (الكترونية ع الموقع). ويظهر من نقله لرأي الدكتور جعفر شهيدي أنه يذهب إلى هذا بل ربما يرى أنّ المخطّط الأصلي لاغتيال الإمام كان معاوية، وكلّ ما جاء في التاريخ عن الفاعلين ليس إلّا تلفيقًا يراد منه تبرئة ساحة معاوية من جريمة اغتيال أمير المؤمنين؟ ويميل هو وبعض المؤرخين المعاصرين إلى تأييد الفرضية، وينكرون أساسا دور الخوارج في عملية الاغتيال هذه.

بحصول ذلك من بقي من أصحاب الجمل بالرغم من انتهاء طموحهم السياسي، وسيسجد بعضهم لله (!!) شكرًا على حصول الاغتيال!

3/ ما ذكره المرحوم القرشي من اتهام أبي الأسود الدؤلي لمعاوية بالاغتيال لم نجد له وجهًا بل ربما كان في شعره ما يشير إلى خلاف ذلك، فإن الشامت عادة هو غير المنفذ. والخطاب «قتلتم» إن كان المقصود به معاوية فمن الواضح أنه غير صحيح لما سبق من عدم وجود أي سند تاريخي له، وإنما المقصود هو الخطاب للخوارج، والتهجم على معاوية وأتباعه إنما هو لجهة شماتتهم وسوء استغلالهم لمقتل الإمام عليه السلام. وأما ما ذكره عن القاضي نعمان المصري (363هـ) فهو بالإضافة إلى تأخره الزماني يعني أنه بعد ثلاثة قرون من الحادثة، إنما ينقل رأيًا له لا رواية أو سندًا تاريخيًّا، فيكون حال ذلك كحال باقي الآراء ولا ميزة له. بل ربما يشار إلى أنه حيث كان في أجواء الدولة الفاطمية وقاضي قضاتها فهو في بيئة تتحرك في أجواء الأعمال السرية وما شابهها فقد تكون نظرته للاغتيال متأثرة بهذا المنهج.

4/ إن القول بعدم وجود دور لمعاوية وأتباعه في اغتيال

الإمام ﷺ لا يعني المدح لهم فقد سبق لهم أن قاموا قبل ذلك بتجييش الجيوش ضده وقتل آلاف المؤمنين بسبب ذلك، وقاموا بعده باغتيال الإمام الحسن المجتبى ﷺ.

5/ نعتقد أن من جملة الاشتباهات في هذا الرأي وأدلته، هي في دور الأشعث بن قيس الكندي والذي كان شريكًا في مؤامرة الاغتيال (بما ثبت من اجتماع ابن ملجم إليه، وتشجيعه إياه على القيام بمهمته قبل الصبح، بل وكلام حجر بن عدي في يوم الاغتيال وبعيده بساعة ومتابعته صباح ذلك اليوم).[1] وهذا كله لا غبار عليه، فقد تمَّ حساب ذلك على أنه بتحريك معاوية وتخطيطه له، والحال أننا نعتقد أن مشروع الأشعث هو مشروع شخصي وهَوَسٌ استثنائي بالسلطة منذ أيام رسول الله ﷺ، ونستطيع أن نلحظ أن كل حركاته كانت تصب في هذا الهدف، بدءا من (إسلامه) ثم ارتداده ثم تحالفه مع الخليفة الأول، وهكذا تآمره حتى تشكلت فكرة الخوارج، فتحالفاته وعداواته كلها ضمن مشروعه الشخصي الخاص به، لا ضمن مشروع بني أمية!

(1) ابن سعد: الطبقات الكبير3/ 36: «وبعث الأشعث بن قيس ابنه قيس بن الأشعث صبيحة ضرب عليّ، ﷺ، فقال: أى بني انظر كيف أصبح أمير المؤمنين. فذهب فنظر إليه ثم رجع فقال: رأيت عينيه داخلتين في رأسه، فقال الأشعث: عيني دميغ ورب الكعبة» والدميغ: من خرج دماغه.

ولذلك لا نعتقد بما ذكره المرحوم القرشي ولا المرحوم الري شهري من أن «علمه المسبق بالعملية وعلاقة ابن ملجم معه قبل العملية يشير إلى وجود يد لدمشق فيها»!

وكذلك ما ذكر من وجود علاقة لعمرو بن العاص مع ابن ملجم وهو إشارة إلى أيام تعليمه القرآن في مصر أيام الخليفة الثاني، أي قبل عشرين سنة على الأقل! فهذا لا يثبت شيئًا.. كيف وقد شهد صفين كأحد جنود الدولة المسلمة[1] في مقابل القاسطين ومنهم عمرو بن العاص؟ ولذلك فإن ما قاله المرحوم القرشي: من أن «ابن ملجم كان عميلًا للحزب الأُموي وأنّه كان على اتصال وثيق بعمرو بن العاص وزميلًا له منذ عهدٍ بعيدٍ. وأكبر الظنّ أنّه أحاط ابن العاص علمًا بما اتفق عليه مع زميليه مِن عملية الاغتيال له وللإمام ولمعاوية» لا نجد عليه دليلًا أصلًا!

6/ وأخيرًا فما يصنع أصحاب هذا الرأي مع ما هو المعروف

(1) قد ذكرنا أنه يلزم التفريق بين أصحاب الامام عليّ وشيعته من جهة وبين من كان في جيشه في القتال وهو الجيش الذي ورثه الإمام عن الخلفاء السابقين عليه، جيش الدولة والذي لا يدين ـ بالضرورة ـ بالولاء للإمام، بل ربما كان يعاديه، لكن قوانين التعبئة والقتال وطلب الغنائم والفيء تقتضي منه الانضمام للجيش! وابن ملجم على فرض شهوده معركة صفين إنما كان ضمن هذا الإطار.

تاريخيًا من أن الخوارج الثلاثة، اتفقوا على اغتيال الإمام ومعاوية وعمرو بن العاص؟ وأن أحدهم ضرب معاوية فأصاب إليته، والثاني ضرب من يصلي بظن أنه عمرو فتبين أنه القاضي خارجة! وأصاب ابن ملجم عليًّا عليه السلام؟

فهل اتفق معاوية أو عمرو مع الخوارج أن يقتل الخوارج إياهما؟

وإجابة المرحوم الري شهري في الموسوعة - مع إقراره بالإشكال - «بأن الضربة التي أصابت معاوية، كانت لعبة سياسية أو أنها كسائر المؤامرات غير المباشرة التي تحوكها وتنفّذها العناصر المعارضة، قد تطال نيران تلك المؤامرات المخطّطين الأصليّين»! غير نافعة.. فما من عاقل يرقص مع الثعابين أو يلعب مع الخوارج هذه اللعبة لا سيما وهم يعتقدون فيه أسوأ مما يعتقدون في أمير المؤمنين ويعادونه أشد من عداوتهم للإمام!

وأما **المسألة الثالثة**: هل كان الإمام يعلم بوقت مقتله؟ وإذا كان يعلم ألا يعد ذلك إلقاءً بالنفس للتهلكة وهو محرم؟

فالروايات المتظافرة تشير بأن الإمام عليه السلام كان يعلم بأنه مقتول، وليس بميت ميتة عادية! وأنه يضرب بالسيف، وأن الضربة تكون على رأسه. وأن قاتله هو أشقى من عاقر الناقة، وأن ذلك يكون

في فجر التاسع عشر من شهر رمضان، وكان ابن ملجم معروفًا عند أمير المؤمنين وأصحابه أنه قاتله.[1]

وأحاديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم، تستبق الحدث بأكثر من ثلاثين سنة وتخبر عنه!

وقد ذكرنا في كتابنا: من قضايا النهضة الحسينية، جوابًا على مثل هذا السؤال مما يرتبط بالإمام الحسين عليه السلام، حيث أنهما من باب واحد، وننقل بعض ما ذكر هناك، حيث أن مدار السؤال والجواب هناك هو قضية الحسين:

---

(1) جمع الري شهري عددًا من الروايات التاريخية في موسوعة الإمام عليّ بن أبي طالب 4 / 229. تفيد هذا المعنى منها ما عن:

مسند ابن حنبل عن فضالة بن أبي فضالة الأنصاري: خَرَجتُ مَعَ أبي عائِدًا لِعَلِيٍّ بنِ أبي طالِبٍ مِن مَرَضٍ أصابَهُ ثُقُلَ مِنهُ، قالَ: فَقالَ لَهُ أبي: ما يُقيمُكَ في مَنزِلِكَ هذا؟ لَو أصابَكَ أجَلُكَ لَم يَلِكَ إلّا أعرابُ جُهَينَةُ، تُحمَلُ إلَى المَدينَةِ، فَإن أصابَكَ أجَلُكَ وَلِيَكَ أصحابُكَ وصَلّوا عَلَيكَ.

فَقالَ عَلِيٌّ: إنَّ رَسولَ اللّهِ صلى الله عليه وآله وسلم عَهِدَ إلَيَّ أن لا أموتَ حَتّى أُؤَمِّرَ ثُمَّ تُخضَبُ هذِهِ ـ يَعني لِحيَتَهُ ـ مِن دَمِ هذِهِ ـ يَعني هامَتَهُ ـ فَقُتِلَ، وقُتِلَ أبو فَضالَةَ مَعَ عَلِيٍّ يومَ صِفّينَ

وعن المعجم الكبير عن صهيب: إنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله وسلم قالَ يوما لِعَلِيٍّ عليه السلام: مَن أشقَى الأَوَّلينَ؟

قالَ: الَّذي عَقَرَ النّاقَةَ يا رَسولَ اللّهِ.

قالَ: صَدَقتَ، فَمَن أشقَى الآخِرينَ؟

قالَ: لا عِلمَ لي يا رَسولَ اللّهِ.

قالَ: الَّذي يَضرِبُكَ عَلى هذِهِ، وأشارَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله وسلم بِيَدِهِ إلى يافوخِهِ. فَكانَ عَلِيٌّ عليه السلام يَقولُ لِأَهلِ العِراقِ: أما وَاللّهِ لَوَدِدتُ أنَّهُ قَدِ ابتَعَثَ أشقاكُم فَخَضَبَ هذِهِ ـ يَعني لِحيَتَهُ ـ مِن هذِهِ، ووَضَعَ يَدَهُ عَلى مُقَدَّمِ رَأسِهِ.

وعن تاريخ اليعقوبي: قَدِمَ عَبدُ الرَّحمنِ بنُ مُلجَمِ المُرادِيُّ الكوفَةَ لِعَشرٍ بَقينَ مِن شَعبانَ سَنَةَ (40هـ)، فَلَمّا بَلَغَ عَلِيًّا قُدومُهُ قالَ: وقَد وافى؟ أماً إنَّهُ ما بَقِيَ عَلَيَّ غَيرُهُ، هذا أوانُهُ. فَنَزَلَ عَلَى الأَشعَثِ بنِ قَيسٍ الكِندِيِّ، فَأَقامَ عِندَهُ شَهرًا يَستَحِدُّ سَيفَهُ.

إن التوجيه للمسألة بعدم علم الإمام بمصرعه، لا ينسجم مع ما هو المختار والمشهور من علمهم صلوات الله عليهم.

وتوجيهها بعدم وجود أخبار أو آثار أيضًا لا يتفق مع المعروف تاريخيًّا. فيبقى توجيهه مع فرض العلم بالمصرع. وفيه: إما أن ينفى انطباق عنوان التهلكة عليه، فإن التهلكة بالمعنى الأخروي يعني السير في طريق لا يرضى به الله ومن المعلوم أن الطريق الذي سار عليه الحسين كان في رضا ربه.

بل حتى التهلكة بالمعنى الدنيوي أي فقدان الحياة فهي غير مرفوضة لو ترتب عليها فوائد عظيمة، فلا تعد عند العقلاء ولا عند الشرع خسارة لو كان في مقابلها شيء عظيم، ومن المعلوم عظمة الفوائد التي ترتبت على شهادة الإمام عليه السلام.

بل يقال أنه لا مانع أن يتعبد الله قومًا بامتحان أعظم لينالوا من المراتب[1] ما لا يناله غيرهم فيقدمون على الموت إذا كان ذلك في رضا الله، مع علمهم بأن هذا الطريق ينتهي إلى موتهم، وهذا في أمور الجهاد واضح حيث تجتمع من القرائن لدى الذاهب إلى

(1) روى الشيخ الصدوق في الأمالي أن الحسين لما غفا على قبر جده، ورآه في المنام قال له النبي صلى الله عليه وآله: إن لك في الجنة درجات لا تنالها إلا بالشهادة. ونقل الشيخ الطوسي في الأمالي: عن أبي عبد الله وأبي جعفر: إن الله عوض الحسين من قتله بأن جعل الإمامة في ذريته والشفاء في تربته وإجابة الدعاء عند قبره.. (وهذا المعنى ورد كثيرًا في زيارات الحسين عليه السلام.

القتال ما يعلم علمًا عاديًّا متعارفًا أنه سيقتل. ومع ذلك يذهب، بل هناك حالات يكون غيره يعلم بموته أيضًا فضلًا عنه، كما نقل أن الرسول لما وجه المسلمين لمقاتلة الروم في مؤتة، قال: إن أصيب زيد بن حارثة فجعفر بن أبي طالب على الناس فإن أصيب جعفر فعلى الناس عبد الله بن رواحة.. فعلم المسلمون أنهم يقتلون.

وإنها لمنزلة عظيمة أن يعلم الإنسان أنه مقتول في طريق الله ومع ذلك يختار ما عند الله سبحانه.»[1]

وأما أول توجيهَيْ الشيخ المفيد رحمه الله في هذه القضية فهو على خلاف مشهور العلماء، حيث أنه قد قال ما خلاصته بأننا لا نقطع بعلم الإمام عليه السلام بتفاصيل مقتله وساعة مصرعه، وإنما المعلوم إجماعًا أنه عالمٌ بالأحكام بتفاصيلها، وأنه يعلم على نحو الإجمال بمقتله، وربما علم تفصيلًا بقاتله، أما أن يعلم بتفصيل المقتل من حيث الوقت المحدد وما شاكل فلا يوجد.

والصحيح هو توجيهه الثاني بقوله: «لا يمتنع أن يتعبّده اللّه تعالى بالصبر على الشهادة والاستسلام للقتل، ليبلغه بذلك علوّ

(1) آل سيف؛ فوزي: من قضايا النهضة الحسينية.

الدرجات ما لا يبلغه إلّا به. ولعلمه بأنّه يطيعه في ذلك طاعة لو كلّفها سواه لم يُردْها. ولا يكون بذلك أمير المؤمنين عليه السلام ملقيًا بيده إلى التهلكة، ولا معينًا على نفسه معونة تستقبح في العقول[1].»

وهناك جهة أخرى وهي أن المقرر عند العلماء بأن النبي أو الإمام لو علم بشيء بطريق غير عادي، فلا يصح أن يرتب الأثر على ذلك. لأنه لو فعل ذلك، يختل النظام.

فمثلًا، يعلم النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن الأمة ستنقلب على الإمام عليّ عليه السلام، فكان يمكن يتتبع من سينقلب ويذبحهم أو ألّا يوصي لأنه مع علمه بالانقلاب وحصوله يكون الوصية والخطابات والغدير وغيره كله عبثًا!

وهكذا مع علمه بأن الهزيمة ستحل في غزوة أحد على المسلمين أو يعلم النبي أنه سيقتل فيها عمه حمزة! كان المفروض ألّا يخرج للمعركة! وهكذا!

وحل كل هذه القضايا هي بالقول: إن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والإمام إنما هو مكلف بالعلم الاعتيادي ولا بد أن يرتب الآثار عليه، أما

(1) الري شهري: موسوعة الإمام عليّ بن أبي طالب 7/ 245.

العلوم الخاصة ـ والتي كانوا يملكونها بمنة الله وتعليمه إياهم ـ فلا ينبغي لهم ترتيب أي أثر عليها، وإلا كان لزم من ذلك اختلال النظام الاجتماعي.

ولعل هذا أحد وجوه قول أمير المؤمنين لبعض من اقترح عليه أن يقتل ابن ملجم إذا كان يعلم بأنه سيقتله مستقبلًا، أو على الأقل أن يسجنه! فكان جوابه لهم: أنه سيكون إذن يقتل غير قاتله أو يسجن غير قاتله، ومعنى ذلك أنه لم يرتكب القتل إلى ذلك الوقت، فلم يصبح قاتلًا فكيف يعاقبه؟ إن ذلك يكون من مصاديق العقوبة قبل الجناية وهو غير جائز شرعًا وقانونًا.

بل ربما فتح ذلك بابًا من الشر، وهو ما نراه عند بعض الحاكمين الظالمين بما يسمونه بالضربات الاستباقية، فتراهم يسجنون شخصًا لأنهم يحتملون أن يقوم في المستقبل بعمل خطير، وهكذا.

وهذا كله من هذا الباب: أن المعصومين وقد منحهم الله تعالى علمًا خاصًا من لدنه، بحيث صار لديهم اطلاع على المستقبل لكنهم لا يرتبون الأثر عليه.

برنامج إصلاح في خمس سنوات

1/ لم يبدأ أمير المؤمنين ﷺ برنامجه الإصلاحي ببداية خلافته الظاهرية، بل بدأ به قبل ذلك! فإنه رفض أن يأتي إلى هذا المنصب ـ مع أنه حقه من الناحية الدينية لأجل كونه وصي رسول الله حقًّا ـ فرفض قبل هذا التاريخ بنحو اثنتي عشرة سنة، منطق المساومات السياسية وأصر على أنه إذا أتى سيأتي ببرنامجه هو، لا ببرنامج غيره.

ولهذا كما أن خلافته لم تكن «فلتة»[1] كذلك لم تكن «بضربات الترجيح» على طريقة الكرة. وإنما كانت بانتخاب شعبي عام ويتيم لم يشهد تاريخ الأمة الإسلامية له نظيرا، لا في الذين سبقوه، ولا في سلاطين بني أمية أو حكام بني العباس بل ولا الأتراك ولا من جاء بعدهم.

(1) نهج البلاغة: 194، وكذلك البستي؛ محمد بن حبان: الثقات 2/ 268. «لم تكن بيعتكم إياي فلتة وليس أمري وأمركم واحدًا أريد الله وتريدونني لأنفسكم وأيم الله لأنصحن الخصم ولأنصفنّ المظلوم»

وبينما كان من لا يستحق أن يؤم اثنين في صلاة كان يقاتل على الخلافة الكبرى، ويسيل دماء الخلق لينادى باسمه خليفة ويوقع في ذيل المراسيم، ولو بثمن عشرات الآلاف من المسلمين، كان عليّ عليه السلام، ينادي «أنا لكم وزير خير لكم مني أمير».

وفيما كانت تنعقد المساومات من قبله، ويحلب الواحد للثاني اليوم ما سيعيطه ثمنه غدًا! كان الإمام عليه السلام يقول: «إنّا مستقبلون أمرًا له وجوه وألوان، لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول، وإن الآفاق قد أغامت، والمحجّة قد تنكّرت واعلموا: أني إن أجبتكم، ركبت بكم ما أعلم، ولم أصغ إلى قول القائل، وعتب العاتب، وإن تركتموني فأنا كأحدكم».[1]

2/ كذلك لم يكن التمايز والفرق في أسلوب الإمام في استلام الخلافة فقط وإنما كان في الدوافع لذلك، وهو الذي عبر عنه الإمام الحسين عليه السلام بقوله: «اللهم إنك تعلم أنه لم يكن ما كان منا تنافسًا في سلطان ولا التماسًا من فصول الخصام ولكن لنري المعالم من دينك ويظهر الإصلاح في بلادك ويأمن المظلومون من عبادك ويعمل بفرائضك وسننك وأحكامك».[2]

(1) المصدر السابق: 136.

(2) الفيض الكاشاني؛ محسن: الوافي 15/ 179.

3/ عندما بايعه الناس بيعة «ابتهج بها الصّغير، وهدج إليها الكبير، وتحامل نحوها العليل» بدأ فورًا في برنامج الإصلاح الشامل، ومن أعلى الهرم، وفي الرأس أو الرؤوس الفاسدة، رافضًا ما تصنعه بعض الحكومات من أنها إذا أرادت محاربة الفساد، تبدأ بمن يصب الشاي في الدائرة وتتوقف عنده حتى كأن الفساد إنما هو بسبب هؤلاء الصغار! وتبقي الهوامير الكبار الذين هم سيؤيدون سياسة الدولة في محاربة الفساد!! وتنتهي القضية!

لقد بدأ الإمام ﷺ بالولاة الخونة الذين كان تعيينهم بدوافع غير نظيفة وكان سلوكهم وإدارتهم أقذر من دوافع تعيينهم. فعزل هؤلاء وأرسل ولاة يعتقد بتقواهم تدينا وبكفاءتهم عملا.

عزل معاوية بن أبي سفيان عن الشام، ويعلى بن منبه (منية) عن اليمن، وعبد الله بن عامر بن كريز عن البصرة وأبا موسى الأشعري عن الكوفة..

وكان من الطبيعي لهؤلاء حيث يعيشون على المنصب والولاية أن يعترضوا على ذلك وأن ينضموا إلى معارضي الإمام عليّ ويتهيؤوا للحرب، كما مرَّ عند الحديث عن الناكثين والقاسطين.

4/ كما لم يعترف أمير المؤمنين ﷺ بالألعاب السياسية في خلافة

السابقين، لم يقبلها في أيامه أيضًا، ورفض كل الاقتراحات التي قيلت له بشأن إبقاء بعض الولاة على مناصبهم لبعض الوقت ثم إذا استمكن وقوي يعزلهم! كما رفض محاباة البعض بتمييزهم بالعطاء والأموال لغرض شراء تأييدهم إيّاه! وقال لهم صريحًا؛ إن ذلك من الجور والظلم، ولا يمكن له أن يطلب النصر بوسيلة الظلم،[1] كيف؟ وإنما جاء لرفع الظلم وإزالة الجور أفهل يستعين بهما؟

5/ ولم يترك ولاته وعماله اعتمادًا على سابق عهده بهم، فإن للذهب بريقًا يعشي العيون، وما دام البعض بعيدًا عنه فهو في منجى، حتى إذا صار تحت يده أفسده! فهذا المنذر بن الجارود العبدي وقد وكله الإمام عليه السلام على اصطخر، فخان في بعض ما وليه، فأرسل له الإمام يقرعه ويطلب منه المجيء له للحساب.[2]

(1) نهج البلاغة ص 183. «أَتَأْمُرُونِّي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ ـ فِيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيْه ـ واللَّه لاَ أَطُورُ بِه مَا سَمَرَ سَمِيرٌ ـ ومَا أَمَّ نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ نَجْمًا ـ لَوْ كَانَ الْمَالُ لِي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ ـ فَكَيْفَ وإِنَّمَا الْمَالُ مَالُ اللَّه».

(2) ومن كتاب له عليه السلام إلى المنذر بن الجارود العبديّ، وقد خان في بعض ما ولاَّه من أعماله: أمّا بعد، فإنّ صلاح أبيك غرّني منك، وظننت أنّك تتّبع هديه، وتسلك سبيله، فإذا أنت فيما رقّي إليّ عنك لا تدع لهواك انقيادًا، ولا تبقي لآخرتك عتادًا، تعمر دنياك بخراب آخرتك، وتصل عشيرتك بقطيعة دينك، ولئن كان ما بلغني عنك حقّا لجمل أهلك وشسع نعلك خير منك، ومن كان بصفتك فليس بأهل أن يُسدّ به ثغر، أو يُنفَذ به أمر، أو يُعلَى له قدر، أو يُشرَك في أمانة، أو يؤمَن على خيانة، فأقبل إليّ حين يصل إليك كتابي هذا إن شاء اللّه.

وكما بدأ بالرؤوس ـ لأنها مركز الفساد ـ فقد التفت إلى الأسرة، حيث كان بعض من سبقه قد أطلق يد أسرته في أموال المسلمين، فقد كان شديد الحساسية تجاه فساد الأسرة أو التفكير في الاستفادة من قرابتهم مع أمير المؤمنين عليه السلام، وقد ضرب في قصته مع أخيه الأكبر عقيل بن أبي طالب المثل الأعلى في ذلك ولكي يقطع الطريق على كل آمل من بني هاشم أن يصبح من «الأسرة السلطانية»! وتحدث[1] عن ذلك ليعطي رسالة للأقارب قبل الأباعد.

وحين أعار أبو رافع قلادة من بيت المال لابنة أمير المؤمنين عاتبه بشدة وعاتبها

6/ ورفع عليه السلام الظلم في التوزيع عن عامة الناس، والذي كان ينطلق من منطلق خاطئ يقوم على تفصيل المسلمين على طبقات، وتفضيلهم في العطاء على أساس هذه الطبقات، فرأى أن هذه الطريقة لا تقوم على أساس شرعي ولا بدَّ من تغييرها.

(1) نهج البلاغة ص 183 والله لقد رأيت عقيلًا، وقد أملق حتى استماحني من بركم صاعًا، ورأيت صبيانه شعث الشعور غبر الألوان من فقرهم كأنّما سودت وجوههم بالعظلم، وعاودني مؤكّدًا وكرّر عليّ القول مردّدًا فأصغيت إليه سمعي فظن أني أبيعه ديني وأتبع قياده مفارقًا طريقي، فأحميت له حديدة ثم أدنيتها من جسمه ليعتبر بها فضج ضجيج ذي دنف من ألمها، وكاد أن يحترق من ميسمها. فقلت له ثكلتك الثواكل يا عقيل، أتئن من حديدة أحماها إنسانها للعبه، وتجرني إلى نار سجرها جبارها لغضبه. أتئن من الأذى ولا أئن من لظى».

وقد مرَّ علينا في صفحات سابقة كيف أنه رفض منطق التفضيل وساوى بين الناس على أساس الإسلام، ولم يقبل بتمييز بعضهم في العطاء، وهو ـ بالإضافة إلى أمور أخر ـ حركت طلحة والزبير وأشباههم لمعارضة الإمام، ومقاتلته فيما بعد.

7/ وبمقدار ما كان الإمام عليه السلام حازمًا في محاربة الفساد ورموزه، فقد كان عادلًا ومنصفًا مع معارضيه، وبعبارة أخرى كان على الطرف المعاكس مما يجده المسلمون اليوم، ففيما تشتد الوطأة على كل صوت غير موافق، ويرسل للسجن ـ وأحيانًا للمقبرة ـ من يخالف ويعارض، تكون اليد شديدة النعومة على أيقونات الفساد ورموز سرقات المال العام، وقد لا يصيبه شيء سوى أن يعزل من منصبه بهدوء وصمت!

فقد وجدنا في سياسة أمير المؤمنين عليه السلام خلاف ذلك تمامًا، ففيما عزل الفاسدين، وراقب العمال، وحذر الوكلاء، وضغط على من يحاول الاستفادة من قرابته لأمير المؤمنين، فقد سمح لمن يعترض وينصح بل رتب الأثر على ذلك، فهذه سَوْدَة بنت عمَارَة الهمدانية تشكو أحد ولاته إليه ويعزله بكتاب مفتوح أعطاها إياه.. وهذا يعتبر من المستحيلات في هذه الأزمنة.[1]

(1) ذكر ذلك العباس الضبي في كتابه أخبار الوافدات من النساء على معاوية بن أبي سفيان ص68 =

وعندما يعترض عليه الخوارج تراه يعطيهم الحق الثابت لهم، ما لم يرفعوا السلاح ويفسدوا المجتمع، بما تقدم ذكره عند الحديث عن المارقين.

8/ لم يتوقف الإمام ﷺ عن قراراته وأعماله الإصلاحية، وإبداء النموذج العالي في تطبيق القيم الإسلامية، بالرغم من المدة القليلة التي حكم فيها وهي أربع سنوات وتسعة أشهر، وبالرغم من الإعاقات التي فرضت عليه من قِبل أعدائه، حيث خاضوا معه ثلاث حروب استغرقت أكثر تلك المدة القليلة، ونحن نعلم ما الذي تخلفه الحرب الواحدة من مشاكل اجتماعية واسعة (من أيتام وأرامل ومآسٍ) وأزمات

= وفيه قالت بعد أن شكت ابن أرطاة وظلمه، فهددها حينها: «رفعت رأسها وَهِي تَقول ...

صلّى إلإله على روح تضمنها قبر فَأَصْبح فِيهَا الْعدْل مَدْفُونا
قد حَالف الْحق لَا يَبْغِي بِهِ بَدَلا فَصَارَ بِالْحَقِّ وإلايمان مَقْرُونا

قَالَ: وَمن ذَلِك؟ قَالَت: عَليّ بن أبي طَالب ﷺ قَالَ وَمَا علمك بِهِ؟ قَالَت: اتيته فِي رجل ولاه صَدَقَاتنَا لم يكن بَيْننَا وَبَينه إِلَّا مَا بَين الغث والسمين فَوَجَدته قَائِما يُصَلِّي فَلَمَّا نظر الي انْفَتَلَ من صلَاته ثمَّ قَالَ لي برأفة وَتعطف: ألك حَاجَة؟ فأخبرته الْخَبَر فَبكى ثمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ أَنْت الشَّاهِد عَليّ وَعَلَيْهِم إِنِّي لم آمرهم بظُلْم خلقك وَلَا بترك حَقك ثمَّ اخْرَج من جيبه قِطْعَة جلد كَهَيْئَةِ طرف الجراب ثمَّ كتب فِيهَا:

«بِسم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ﴾[الأعراف: 85]، ﴿وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (*) بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾[هود: 85 ـ 86] إِذا أتاك كتابي هَذَا فاحتفظ بِمَا فِي يَديك من عَملنَا حَتَّى يقدم عَلَيْك من يقبضهُ مِنْك وَالسَّلَام فَأَخَذته وَالله وَمَا خزمه بخزام وَلَا خَتمه بطين».

اقتصادية لأبناء المجتمع على أثر ما تقدم، وعلى المجتمع ككل.

نقول بالرغم من ذلك فإن الإمام ﷺ لم يتوقف عن خطواته الإصلاحية، وتقديم نموذجه في الحكم الإسلامي، ولقد أفلح في ذلك ونجح، بحيث بقي هذا النموذج ولا يزال، قادرًا على تعريف الناس بالحكم العادل.

9/ وبالإضافة إلى التجربة العملية المباشرة في تطبيق العدالة، وإبراز النموذج الفاضل في الحكم، فإنه قدم أيضًا برنامجًا نظريًّا متقدما، ودستورًا متكاملًا في الإدارة للمجتمع، وهو ما عرف فيما بعد بعنوان: عهد الإمام عليّ ﷺ لمالك الأشتر النخعي. حين عهد إليه بولاية مصر، وقد كتب كثير من العلماء والباحثين[1] عن هذا العهد ومضامينه، ونقترح على القارئ الكريم الرجوع إليه والتأمل فيما جاء فيه، أو الاستعانة بما كتب حوله.

(1) راجع اللنكراني؛ الشيخ فاضل: الدولة الإسلامية (شرح لعهد الإمام عليّ ﷺ إلى مالك الأشتر النخعي)، والفكيكي؛ توفيق: الرّاعي والرّعية شرح عهد الإمام عليّ ﷺ والشهرستاني، سيد هبة الدين: رسالة في سند عهد عليّ الى مالك الاشتر وشرح متنه.. وغيرها من الكتب، وقد كتب الباحث المعاصر إسماعيل محمدي مقالة بالفارسية، بعنوان ببليوغرافيًا عهد الإمام لمالك الأشتر، في موقع تبيان.نت، دوّن فيها ما ألف من الكتب حول العهد المذكور باللغة العربية والفارسية، ما بين شرح وإثبات نفس العهد، فجاء بنحو ثمانين كتابًا.

ويكفيك أن تنظر إلى هذه الفقرة من كلامه فيه، لتخر على أرض الخشوع تقدس هذا الإمام العظيم، لترى كيف يبين للحاكم ما الذي يجب عليه تجاه رعيته: «وأشعر قلبك الرحمة للرعية، والمحبّة لهم، واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعًا ضاريًا تغتنم أكلهم، فإنّهم صنفان: إمّا أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق، يفرط منهم الزلل، وتعرض لهم العلل، ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب وترضى أن يعطيك الله من عفوه وصفحه، فإنّك فوقهم، ووالي الأمر عليك فوقك، والله فوق من ولاك! وقد استكفاك أمرهم، وابتلاك بهم»[1]

(1) نهج البلاغة ص 427.

مظلومية الإمام عليّ في أمة الإسلام

تكرر من أمير المؤمنين عليه السلام الحديث عن مظلوميته في الأمة، وبعبارات مختلفة[1] ومواطن متعددة، وقوله: «ما زلت مظلومًا منذ قبض الله نبيه حتى يوم الناس هذا»[2] ونظائره معروف ومدون في الكتب. وتشهد عليه الحوادث.

وقد يقول قائل: ما فائدة الحديث في هذا الموضوع في هذا الزمان؟ إنه لا يخلق سوى مزيد من الإحن والعداوات فمن الأفضل تركه وعدم إثارته! تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم»، «ولا تسألون عما كانوا يعملون»!

وقبل أن نسترسل في البحث، نجيب أولًا على هذا القول؛ بالنقض: من القرآن الكريم فإن القرآن الكريم يتحدث في آياته عن هذه القضايا التاريخية مثلما جرى بين إبراهيم شيخ الأنبياء

(1) المصدر السابق 9/ 416.

(2) الكوفي؛ إبراهيم بن محمد الثقفي: الغارات 2/ 768.

ونمرود وقصصه معه، وما دبر النمرود لإبراهيم ومواقف أنصارهما، والمجتمع آنذاك، وهكذا ما جرى بين نوح وقومه؛ حواراته معهم وبالعكس، واحتجاجهم عليه وتكذيبهم بما قال، ونتيجة ذلك وقصة غرقهم بالطوفان.. الخ. وموسى وعيسى وسائر الأنبياء.. هذا مع أن بيئة هذه القصص والحوادث غريبة عن الأمة.

وقد توزعت هذه على مساحة ربما تشكل ثلث القران وهي تتلى ليل نهار من المسلمين.. أفلم يقل أحدٌ وما الذي يربطني بذلك؟ فـ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾[1]، وأحيانًا نفس القصة تتكرر مرارًا ومن جهات مختلفة!

وأما الجواب الحلِّي في الجهتين مورد السؤال وقصص القرآن، فهو أن القران الكريم يأتي بها لبيان موضع العظة والعبرة؛ ولكيلا تسقط الأجيال الحاضرة في ما سقطت فيه الأجيال الماضية، وتلتفت هذه التالية إلى أخطاء تلك السابقة. **هذا أولًا**.

وثانيًا/ من يقول بأن القضية قضية تاريخية؟ الحق أنها قضية مستمرة وحاضرة، فلا يزال من يوالي عليًّا عليه السلام يعيش المظلومية

(1) البقرة: 134.

لأجل هذا الولاء، ففي بعض الاماكن يحذف من الاقتصاد وسبل العيش، ويحاصر ثقافيًّا لأجل هذا الولاء، بل في بعض الحالات يُسجَن ويُقتل على هذا الولاء![1] وهذا يشعر به المؤمنون بولايته أبًّا عن جدٍّ، وأولئك الذي انتموا حديثًا لخطه عليه السلام.

ولأن الحديث في هذا طويل وذو شجون فسنقتصر على عناوين رئيسة وأمثلة محدودة بما يتناسب مع وضع هذا الكتاب، والبناء فيه هو على الاختصار.

1/ ظلامة عليّ عليه السلام في زمانه

لقد تآزر الخط القرشي ـ بدوافع مختلفة ـ على عداوة الإمام وظلمه حقه، وهو الأمر الذي طالما تشكى منه الإمام علانية وبشكل صريح، فقال: «اللَّهم فاجْزِ قريشًا عني الجوازي! فقد قطعت رحمي، وتظاهرت عليّ، ودفعتني عن حقي، وسلبتني سلطان ابن أمي، وسلمت ذلك إلى من ليس مثلي في قرابتي من الرسول، وسابقتي في الإسلام»![2]. وفي موضع آخر قال: «اللَّهم إني أستعديك على قريش

(1) لا نريد أن نعزز الاتجاه المتطرف للشعور بالمظلومية لدى أولياء عليّ، ولكنها حقيقة حاضرة.

(2) الحسيني الخطيب؛ السيد عبد الزهراء مصادر نهج البلاغة وأسانيده 1/ 337، ونسبه إلى مصادر متعددة منها الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، والغارات للثقفي الكوفي، وشرح النهج لابن أبي الحديد.

ومن أعانهم! فإنهم قطعوا رحمي، وصغروا عظيم منزلتي، وأجمعوا على منازعتي أمرًا هو لي».[1]

ومظاهرها كثيرة تبدأ من تصغير حقه ومنزلته، وترتيب الأثر العملي على ذلك، فإنهم أنكروا تقدمه وقرنوه إلى من هو أدون شأنًا منه، وهذا قد يهون مع سوئه إلا أن الأسوأ منه هو ترتيب الأثر على ذلك، فيؤخر في الخلافة لأنه أقل من فلان وفلان! بل وصل الحال كما ذكرنا إلى أن يقرن لا إلى الخلفاء الثلاثة، بل إلى مثل معاوية وعمرو بن العاص فيقول عليه السلام: «كنت في أيام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كجزء من رسول الله ينظر إليّ الناس كما ينظر إلى الكواكب في أفق السماء ثم غضّ الدهر مني فقُرن بي فلان وفلان ثم قُرنت بخمسة أمثلهم عثمان فقلت: وا ذفراه[2] ثم لم يرض الدهر لي بذلك حتى أرذلني فجعلني نظيرًا لابن هند وابن النابغة لقد استنت الفصال حتى القرعى».[3]

والأسوأ من ذلك هو أنهم وضعوا على لسانه أحاديث مكذوبة

(1) نهج البلاغة ص 246.

(2) حدة الرائحة الخبيثة، يقال ذلك تأفّفًا وتضجرًا.

(3) الخليل الفراهيدي، أحمد: العين 1/ 155. أي سمنت، يضرب مثلًا لمن تعدى طوره وادعى ما ليس له.

تشير إلى أن غيره أفضل منه! مع أن هذا مخالف للحقيقة، فلم يكتفوا بتفضيلهم عليه، ولا بتقديمهم في الخلافة، واغتصاب حقه، بل نُسب إليه أحاديث مثل «لا أؤتى بأحد يفضلني على أبي بكر إلا جلدته حد المفتري».[1]

وفي نفس جهة التفضيل: أجمعت مدرسة الخلفاء ـ مؤخرًا ـ على أن التفضيل بين الخلفاء هو على الترتيب في الخلافة؛ فالأفضل هو الأول ويليه الثاني وهكذا، ورابعهم في الفضيلة هو الإمام عليّ! مع أنه يقول: متى اعترض الريب فيّ مع الأول منهم؟ بل إن هناك اتجاهًا سنعبر عنه بالاتجاه الأموي كان لا يرى عليًّا في مستوى المفاضلة بين الخلفاء، بل كان يرى أفضل الناس الأول ثم الثاني ثم لا يوجد تفاضل بل يستوي الناس ومنهم عليّ عليه السلام فيما بينهم من دون فضيلة خاصة!

ومن العجيب أن بعضهم عندما يتحدث عن فترة الخلافة لكل واحد من الخلفاء يذكرها بصورة عادية كولاية، حتى إذا وصل إلى زمان أمير المؤمنين عبر عنها بالفتنة![2] ما قبله كان ولاية،

(1) بن حنبل؛ أحمد: فضائل الصحابة 1/ 83. وعشرات المصادر الأخر.

(2) ورتب بعضهم كصاحب منهاج السنة على ذلك، أنه ما دام الأمر فتنة فإن الأصح فيها والأسلم والأحق هو القعود عنها واعتزالها كما فعل ابن عمر وأبو موسى! أقول: هو مخالفة صريحة لقول رسول الله صلى الله عليه وآله من اعتبارهم الفئة الباغية، وبالتالي فقاتلوا التي تبغي بنص القرآن. ولإجماع المسلمين ـ إلا من كان على خط صاحب المنهاج المذكور ـ على أن عليًّا هو أولى من كل مخالفيه بالحق.

وما كان فيه عليٌّ فهو فتنة».[1]

أرأيت صدق مقولته عليه السلام عندما يقول: «أنا أول من يجثو للخصومة على ركبتيه بين يدي اللّه يوم القيامة».[2]

وأما حديث لعنه وشتمه على منابر المسلمين[3] فتلك غصة تبقى في فم الزمان، أما قال العلامة الشيخ أحمد الحفظي الشافعي في أرجوزته:

وقد حكى الشيخ السيوطي: إنه قد كان فيما جعلوه سُنّه

(1) فانظر مثلًا إلى البخاري في التاريخ الأوسط 1/ 93 حَدثنِي مَحْمُود ثَنَا وهب ثَنَا أبي قَالَ سَمِعت قَتَادَة ولي أَبُو بكر ستَيْن وَسِتَّة أشهر وَولي عمر عشر سِنِين وَسِتَّة أشهر وَثَمَانِية عشر يَوْمًا وَولي عُثْمَان ثِنْتَيْ عشرَة سنة غير اثْنَيْ عشر يَوْمًا وَكَانَت الْفِتْنَة خمس سِنِين وَولي مُعَاوِيَة عشْرين سنة وَولى يزِيد بن معاوية ثَلَاث سِنِين.. «فحتى يزيد هي ولاية.. أما عليّ فكانت فتنة! وتابعه على هذا من تأخر عنه ومن عاصره فانظر مسند أحمد 1/ 554 ط الرسالة، والمعجم الكبير للطبراني 3/ 26 وتاريخ دمشق لابن عساكر39/ 512 وغيرها.

(2) النيشابوري؛ أبو عبد الله الحاكم: المستدرك على الصحيحين2/ 419.

(3) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة 4/ 57.
وكان معاوية يقول في آخر خطبة الجمعة: «اللهم إن أبا تراب ألحد في دينك، وصدّ عن سبيلك فالعنه لعنًا وبيلًا، وعذبه عذابًا أليمًا، وانّه كتب بذلك إلى الآفاق، فكانت هذه الكلمات يشار بها على المنابر، إلى خلافة عمر بن عبد العزيز.
وكان خالد بن عبد الله القسري والي العراق لهشام بن عبد الملك يقول في خطبته: «اللهم العن عليّ بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم، صهر رسول الله على ابنته، وأبا الحسن والحسين! ثمّ يقبل على الناس ويقول: هل كنيت!».
وكانت جماعة من بني أمية قالت لمعاوية بعد سنين من حكمه: «إنك قد بلغتَ ما أمّلتَ، فلو كففت عن لعن هذا الرجل! فقال: لا والله حتّى يربو عليه الصغير، ويهرم عليه الكبير، ولا يذكر له ذاكر فضلًا»!

سبعون ألف منبر وعشره من فوقهن يلعنون حيدره
وهذه في جنبها العظائم تصغر بل توجه اللوائم[1]

2/ الظلامة المستمرة لليوم

لم يكتف الجيل الذي كان مع الإمام عليه السلام ومقاربًا لعصره وبعده بما تقدم، بل سار اللاحقون من محدثين وفقهاء على نفس المسلك في تكريس ظلامته عليه السلام من خلال أمور:

منها: إنكار فضائله تمامًا

والتعمية عليها، إما بعدم الحديث عنها أصلًا، أو حتى حذفها من الكتب في الطبعات اللاحقة، أو إذا خلص شيء من هذا وذاك يتم الخدش فيها والتضعيف لها.[2]

وخصوصًا مع تشكل تيار في الأمة خاصته الأساس بغض أمير المؤمنين، ومحوره نصب العداوة له، وهو ما سمي بالنواصب، وهو تيار استقوى ببعض حكام الدولة الأموية، ثم ببعض حكام الدولة العباسية، واستوطن خصوصا في بلاد الشام، وفي بلاد فارس في سجستان والجوزجان، وغيرها من البلاد. بحيث أصبح

(1) الأميني؛ الشيخ عبد الحسين: الغدير 2/ 103.

(2) تجد أتباع خط النصب للإمام يضعفون أشهر الأحاديث والتي أخرجها بعض أئمة الحديث في مدرسة الخلفاء.

الحديث عن مناقب عليّ بن أبي طالب في بعض المناطق يكلف المحدث حياته، وينتهي به إلى الموت كما حصل للمحدث النسائي[1] في الشام والكنجي الشافعي.[2]

وكنت أتمنى لو تيسر لأحد الباحثين أن يتتبع تيار النصب في علم الرجال والحديث فينظر كيف عمل في داخل الأمة حتى أصبح من ينصب العداء لعليّ بن أبي طالب علناً يكون «ثبتًا وثقة

(1) الحافظ أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النَّسائي (215هـ ـ 303هـ) صاحب كتاب سنن النسائي يعد من شهداء مناقب عليّ بن أبي طالب وذلك أنه بعدما ولد في بلدته نسا في خراسان، وصار تعليمه في مصر، علم أن في دمشق انحرافًا عن طريق عليّ بن أبي طالب والاعتراف به تبعًا لتأثير الثقافة الأموية، فشد الرحال إلى دمشق وهناك بدأ يدرس في مساجدها العامة مناقب الإمام وألف كتابًا أسماه (خصائص أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب)، وقد أغاظ ذلك أتباع الخط الأموي.
فقالوا له ألا تحدثنا عن خال المؤمنين معاوية؟
قال: أما رضي معاوية رأسًا برأس حتى يريد أن نأتي بفضائل فيه. ولما ألحوا عليه في ذلك قال: لا أحفظ عن رسول الله بسند صحيح إلا حديث (لا أشبع الله له بطنًا) فظلوا يضربونه ويرفسونه حتى أصيب بالفتق وتهتكت أمعاؤه وتوفي على إثر ذلك.

(2) الحافظ محمد بن يوسف بن محمد الكنجي، من علماء الشافعية في القرن السابع الهجري. قتل في دمشق عام 658هـ بسبب نشره لفضائل عليّ بن أبي طالب ﷺ وأخبار صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه في كتابيه (كفاية الطالب) و(البيان) وقد كان يتحدث عن الغدير فاستشهد بحديث رسول الله وبشعر حسان بن ثابت:

يناديهم يوم الغدير نبيهم بخم وأسمع بالرسول مناديا

فاعترض عليه أحدهم بأن هذا الحديث ضعيف!! فصمم على أن يؤلف في خصائص أمير المؤمنين بالأحاديث الصحيحة، وكتب كتاب «كفاية الطالب في مناقب عليّ بن أبي طالب» وبعدها وجدوه مقتولًا شهيدًا!

وحافظًا» ولا يضره إعلانه النصب لعليّ وهو نفس رسول الله بمقدار شعرة! بينما «تشيّع البعض وحبهم لعليّ» يكون مثلبة يعاب عليه من يتهم به، ويسقط بذلك عن الاحتجاج[1].. ولعل الله يوفق بعض أهل العلم لهذا الغرض فيكشف للناس كيف تمَّ إسقاط روايات مناقب عليّ وفضائله بمختلف الوسائل والطرق.

إننا نلاحظ مثلاً أن بعضهم حين ينقل ـ حيث لا يستطيع حذف ذلك ـ لأن المنقبة هي محور الحدث التاريخي كما هو الحال في حديث الإنذار يوم الدار، يقوم بتشويه المنقول، فانظر مثلاً إلى ما نقله الطبري (ت 310هـ) في تاريخه: «فقال النبي: «فأيّكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم؟ قال: فأحجم القوم عنها جميعًا، وقلت: وإني لأحدثهم سنًّا، وأرمصهم عينًا، وأعظمهم بطنًا، وأحمشهم ساقًا، أنا يا نبي الله، أكون وزيرك عليه فأخذ برقبتي، ثم قال: إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا..»[2] ومثل ذلك نقلها ابن الأثير (ت 637)[3]

(1) فانظر إلى ما ذكروه في أحوال ثوير بن أبي فاختة، وعبد الله بن موسى وعليّ بن غراب وغيرهم.

(2) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري 2/ 321. ولكن الجهة التي طبعت تفسير الطبري ـ جامع البيان ـ لم يُرُقْ لها هذا النص فغيرته إلى النص الموجود في كتب الاتجاه الأموي واستعملت كذا وكذا بدل النص الأصلي: أخي ووصيي وخليفتي. فانظر إلى ملاحقتهم لفضائل الإمام بالمسح والإلغاء حتى بعد طباعتها.

(3) ابن الأثير: الكامل في التاريخ 1/ 661.

وفيها تصريح النبي بأخوة عليّ بن أبي طالب ووصايته وخلافته، وهل بعد هذا نصٌّ أقوى؟

لكن نفس الرواية عندما ينقلها ابن كثير الدمشقي (توفي 774هـ وهو من الاتجاه الأموي) وهو بعد الطبري بأربعمائة وأربع وستين سنة وجدناه ينقلها من تلك الجملة تنكرًا منه للإمام وفضائله، ويستبدلها بكذا وكذا قال: «فَأَيُّكُمْ يُؤَازِرُنِي عَلَى هَذَا الْأَمْرِ عَلَى أَنْ يَكُونَ أَخِي «وَكَذَا. قَالَ: فَأَحْجَمَ الْقَوْمُ عَنْهَا جَمِيعًا، وَقُلْتُ وَلَإِنِّي لَأَحْدَثُهُمْ سِنًّا وأرمصهم عينًا، وأعظمهم بَطنًا، وأحمشهم سَاقًا: أَنَا يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَكُونُ وَزِيرَكَ عَلَيْهِ. فَأَخَذَ بِرَقَبَتِي فَقَالَ: «إِنَّ هَذَا أَخِي وَكَذَا فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا».[1]

وترى جهودهم كبيرة ـ لا أثابهم الله ـ في إلغاء المناقب والفضائل لا سيما التي يمكن أن يستفاد منها في العقائد والإمامة،

(1) الدمشقي؛ ابن كثير: السيرة النبوية، من البداية والنهاية1/ 459 والعجب أنه أصر على إثبات أن عليًّا أرمصهم عينًا وأحمشهم ساقًا وأعظمهم بطنًا.. مع أننا نشكك في صدور هذه الجمل منه لأسباب مختلفة.. ولم تضق بها صفحات كتابه لكن النقطة المهمة وهي النص على الإمام بالأخوة والخلافة والوصاية حذفها في المرتين! وضاقت عنها صفحات الكتاب، فصار مكانها كذا وكذا.

وفي كتابه تفسير ابن كثير 6 / 170 نقلها بشكل مختلف عن العبارتين: ««أَيُّكُمْ يَقْضِي عَنِّي دَيني وَيَكُونُ خَلِيفَتِي فِي أَهْلِي؟ «. قَالَ: فَسَكَتُوا وَسَكَتَ الْعَبَّاسُ خَشْيَةَ أَنْ يُحِيطَ ذَلِكَ بِمَالِهِ» وهكذا.. المهم عندهم أن تبعد عن نصها الأصلي.

كما صنع ابن أبي داود السجستاني في تكذيبه حديث الطير.[1] وذلك لأن دلالة قول النبي «اللَّهم ائتني بأحب خلقك إليك» لا تقبل النقاش ولا تبقى لمتكلم كلمة في تقدم عليّ بن أبي طالب على كل الخلق بعد الرسول ﷺ.. ولأن هذا لا يتحمله من يبغض عليًّا عليه السلام فقد عملوا على تكذيبه، وزعم ابن أبي داود هذا بأنه لو صح حديث الطير فنبوة النبي باطلة!! وقد قدم وجهًا لا يوجد أسخف منه بقوله: لأنه حكى عن حاجب النبي خيانة وحاجب النبي لا يكون خائنًا!

(1) النسائي؛ الحافظ أحمد بن شعيب: خصائص عليّ ص29 «عَن أنس بن مَالك أَن النَّبِي ﷺ كَانَ عِنْده طَائِر فَقَالَ اللَّهُمَّ ائْتِنِي بِأحب خلقك إِلَيْك يَأْكُل معي من هَذَا الطير فجَاء أَبُو بكر فَرده وَجَاء عمر فَرده وَجَاء عَليّ فَأذن لَهُ».. فهل ترى حديثا بهذا اللفظ يمكن أن تقبله مدرسة الخلفاء؟ ولو كان متواترًا؟

وفي نقل الحاكم النيشابوري في المستدرك على الصحيحين 3/ 141: عن أنس بن مالك قال: كنت أخدم رسول الله ﷺ، فقدم لرسول الله ﷺ فرخ مشوي، فقال: «اللهم ائتني بأحب خلقك إليك يأكل معي من هذا الطير» قال: فقلت: اللهم اجعله رجلًا من الأنصار فجاء عليّ رضي الله عنه، فقلت: إن رسول الله ﷺ على حاجة، ثم جاء، فقلت: إن رسول الله ﷺ على حاجة ثم جاء، فقال رسول الله ﷺ: «افتح» فدخل، فقال رسول الله ﷺ: «ما حبسك عليّ» فقال: إن هذه آخر ثلاث كرات يردني أنس يزعم إنك على حاجة، فقال: «ما حملك على ما صنعت؟» فقلت: يا رسول الله، سمعت دعاءك، فأحببت أن يكون رجلًا من قومي، فقال رسول الله: «إن الرجل قد يحب قومه» هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه «وقد رواه عن أنس جماعة من أصحابه زيادة على ثلاثين نفسًا، ثم صحت الرواية عن عليّ وأبي سعيد الخدري وسفينة، وفي حديث ثابت البناني عن أنس زيادة ألفاظ!

أقول: لا أدري أيهما أسخف من الثاني: الدعوى أو الدليل عليها!

ولهذا فقد رد عليه بعضهم[1] ـ من مدرسة الخلفاء ـ ولم يقبل قوله وأبطله مع أن الرد ليس قويًّا، لكن هي شنشنة نعرفها من أخزم فقد كان ابن أبي داود هذا معروفًا بالنصب والبغض[2] لأحب خلق الله لله.

ومنها: التضعيف والتوهين

لأحاديث فضائله عليه السلام، فهم في البداية يهملون ذكرها، ولا يروونها استجابة للأمر السلطاني الأموي[3] والذي بقي سياسة دائمة مع تقادم الزمان، بل إذا روي وطبع في كتاب يتم طباعته في طبعة أخرى بعد حذف هذه الروايات، وقد تتبع العلامة الأميني رحمه الله ذلك في بعض أجزاء الغدير، فلا تحصل الأجيال

(1) قال الذهبي: هذه عبارة رديئة، وكلام نحس، بل نبوة محمد حق قطعي، إن صح خبر الطير، وإن لم يصح، وما وجه الارتباط؟ هذا أنس قد خدم النبي قبل أن يحتلم، وقبل جريان القلم، فيجوز أن تكون قصة الطائر في تلك المدة. فرضنا أنه كان محتلما، ما هو بمعصوم من الخيانة..
أقول: بعد هذا أخذ يشرق ويغرب ويُتْهم ويُنْجد فكان ما أفسد آخرًا أكثر مما أصلح أولًا.

(2) وقد أنكر حديث الغدير! الأمر الذي جعل ابن جرير الطبري يؤلف في طرق الغدير ما قال عنه الذهبي ـ مع تعصبه المذهبي: «جمع طرق حديث: غدير خم في أربعة أجزاء، رأيت شطره، فبهرني سعة رواياته، وجزمت بوقوع ذلك».

(3) سيأتي ذكر المرسوم الذي أصدره معاوية بن أبي سفيان بمنع ذكر فضائل الإمام عليه السلام.

التالية على النسخة الاصلية التي كانت فيها الأحاديث.

فإذا سلمت هذه الأحاديث من الإهمال ومن الحذف بعد النقل، لشهرتها مثلاً فتأتي مرحلة أخرى وهي التضعيف لها سندًا والتوهين لطرقها بشتى الوسائل، مثلما صنع ابن حزم الاندلسي، وابن تيمية الحراني في حديث الغدير![1]

وقد تعجب الألباني من ابن تيمية في رده حديث الغدير وتسرعه في ذلك، وبعد أن أورد الأدلة على صحة الحديث قال: «فلا أدري بعد ذلك وجه تكذيبه للحديث إلا التسرع والمبالغة في الرد على الشيعة»[2]

وأقول: إننا نتعجب من تعجب الألباني فهل هي أول قارورة كُسرت؟ وهل وُضع كتاب منهاج السنة لغير هذا الغرض؟ فلماذا يتعجب؟

(1) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية 7/ 319 وأما «من كنت مولاه فعليّ مولاه»، فليس هو في الصحاح لكن هو مما رواه العلماء، وتنازع الناس في صحته فنقل عن البخاري، وإبراهيم الحربي، وطائفة من أهل العلم بالحديث أنهم طعنوا فيه. وأمّا ابن حزم فإنّه يقول عنه: فلا يصح من طريق الثقات أصلا.

أقول: قد مرَّ عليك آنفًا ما عن الذهبي ـ مع أنه شقيق ابن تيمية في هذا ـ من أنه اطلع على تأليف محمد بن جرير الطبري صاحب التاريخ أربعة مجلدات في طرق حديث الغدير، وبهره سعة رواياته فجزم بوقوع ذلك.

(2) الألباني؛ محمد ناصر: سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها5/ 264.

ومنها: التأويل والتفسير

بما يفسد معناها الحقيقي: فإذا كان معنى الرواية واضحًا في الجهة العقائدية، قاموا بحرفه عن معناه وفسروه بطريقة لا تبقي له باقية، والشواهد على ذلك كثيرة.

فمن ذلك ما ذكرناه آنفًا مما صنعه ابن كثير حين حول **رواية الإنذار يوم الدار** من كونها نصًّا واضحًا في الأخوة والوصية والخلافة إلى أنه حولها إلى أيكم يقضي ديني ويكون خليفتي في أهلي؟ ولا أعلم ما هو غرض النبي من ذلك؟ وهل كان سيموت غدًا؟ أو هل كان مديونًا يستجدي أحدًا يقضي ديونه؟ وهل جاءت الآية ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[1] ليقول لهم هذا الكلام؟

وفي هذا الباب فقد أظهروا العجب العجاب؛ ففي **أنت مني بمنزلة هارون من موسى**.. التي شرحها القرآن الكريم بقوله سبحانه: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (*) هَارُونَ أَخِي (*) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (*) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (*) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (*) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (*) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا (*) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾[2].

(1) الشعراء: 214.

(2) طه: 29 ـ 36؛ وفيها موقع الوزارة، والأخوة، وشد الأزر به، والشراكة في الأمر، حتى إذا انتهى إلى هنا أصبح يتكلم بلسان الاثنين: كي نسبحك كثيرًا ونذكرك كثيرًا، وقد استجاب الله له فقال: قد أوتيت سؤلك يا موسى.

فقالوا: إن النبي إنما قال ذلك تطييباً لخاطر عليّ بن أبي طالب!! وكأنما كانوا في قلب رسول الله يعلمون لماذا قال النبي ذلك؟

وإذا لم تسلم هذه، جاؤوا بأخرى فقالوا إن ذلك لا يمنع أن يكون غيرُ عليٍّ أيضًا هو بمنزلة هارون من موسى!! وتقول لهم ما الدليل على هذا؟ ولماذا لم نجد أحدًا قال له النبي ذلك؟ فلا تجد جوابا! المهم هو التأويل والتفسير وتشتيت الانتباه عن المعنى الأصلي الذي شرحته الآية، وأرجع إليه النبي حتى لو حُرّف كلامه فلن يُحرف لفظ القرآن.

وفي حديث الطير: إئتني بأحب خلقك إليك، والذي فهم منه أنسُ بن مالك ما يفهم الإنسان سليم السليقة، وهو أن النبي يدعو أن يكون معه على الطعام شخص هو أحب الخلائق لله، بعد النبي، فكان حريصًا أن يكون ذلك الشخص من قومه الأنصار، ولهذا سعى أن يمنع عليًّا من الدخول قدر ما استطاع.

وإذا ثبت هذا المعنى بهذا الحديث فأي شيء يبقى لهم ليفضلوا به شخصياتهم على عليّ عليه السلام، فبدأوا بالتفسير الباهت والتأويل الباطل؛ فقال بعضهم: إن المقصود أن يأتي جماعة هم محبوبون من الله! وليس فردًا واحدًا! وتسألهم فهل تحقق هذا أو أن النبي أصر على مجيء عليٍّ، وعندما جاء لم ينتظر أحدًا!

والذي يضحك الثكلى أن بعضهم قال المقصود هو أحب الخلق أكلًا!![1] لا أحب الخلق إلى الله!

وفي حديث الغدير: الذي هو أوضح الواضحات في معناه، حيث استنشدهم النبي: ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ مشيرًا إلى آية (النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ)[2] فلما قالوا: بلى. قال: فمن كنت مولاه (يعني بتلك الولاية المطلقة) فعليّ مولاه.

هنا جاؤوا بقصة مفتعلة مكذوبة من اليمن، وقالوا إن النبي بعدما حدث كلام بين عليّ بن أبي طالب وبين بعض من كان معه، أراد أن (يطيّب) خاطر عليّ! وأن يبين للناس أنه يحب عليًّا ويحبه عليٌّ! وكأن عمل النبي فقط أن يداري هذا الشخص غير الطبيعي ويطيب خاطره من حين لآخر، ومن موضع إلى موضع. فهو في حديث المنزلة يريد أن يطيب خاطره وهنا كذلك وفي سائر المواضع؛ تطييب وراء تطييب!.

أو أنه يريد أن يبين للناس أنه محب لعليّ! فأوقف الناس وهم بالآلاف رجالًا ونساء في وسط الصحراء وفي هجير الشمس حتى أن الشخص ليضع رداءه تحت رجله من الحر، ليتبادل معه مشاعر المحبة والعواطف!

(1) وقد أجاب السيد حامد النقوي رحمه الله عن هذه الدعوى في كتابه عبقات الأنوار، بـ«70» وجهًا!
(2) الأحزاب: 6.

أرأيت عزيزي القارئ أي إسفاف يصل إليه هؤلاء؟ بنسبة هذا المعنى لرسول الله، ولعليّ بن أبي طالب؟

وإذا أعوزهم التفسير والتأويل ذكروا أن هذه المنقبة ليست خاصة بعليّ بن أبي طالب فقد اشترك معه فيها غيره؛ ففي باب أولية إسلامه، حيث توجد روايات صريحة يصعب تكذيبها، قالوا: نعم ولكن هو الأول من الصبيان وفلان الأول من الكبار، بل ربما أضافوا إلى ذلك إن إسلام عليّ صبيًّا لا ينفع لأن الصبي لا يصح إسلامه! وتقول لهم: إذن ينبغي أن يوجه الإشكال للنبي ـ حاشاه ـ فكيف دعاه للإسلام ثم قبل منه ذلك؟ إذا كان إسلام الصبي لا ينفع؟ وقد ذكرنا في فقرات فصل: ما قبل الميلاد إلى الاستشهاد ما يرتبط بهذا.. فراجع.

ومنها: نسبة فضائله ومناقبه لغيره

فقد نسبوا ولادته في الكعبة المشرفة إلى حكيم بن حزام بن خويلد! ونسبوا قتل مرحبٍ اليهودي في خيبر إلى محمد بن مسلمة الأنصاري!

وأعجب منه أن تنسب فضائله لغيره على لسانه ﷺ! فقد ذكروا أنه:

«لما كان اليوم الذي قبض فيه أبو بكر ارتجت المدينة بالبكاء ودهش الناس كيوم قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجاء عليّ بن أبي طالب باكيًا مسرعًا وهو يقول اليوم انقطعت خلافة النبوة حتى وقف على البيت الذي فيه أبو بكر مسجى! فقال: رحمك الله يا أبا بكر! كنت أول القوم إسلامًا وأكملهم إيمانا وأخوفهم لله وأشدهم يقينًا وأعظمهم غنى وأحوطهم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأحدبهم على الإسلام وآمنهم على أصحابه وأحسنهم صحبة وأفضلهم مناقب وأكثرهم سوابق وأرفعهم درجة وأقربهم من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم....» إلى آخره.

وهذه الرواية هي (قص ولصق) كما يقولون في هذه الأيام عن كلمات منسجمة قالها الخضر في تأبين أمير المؤمنين عليه السلام، لما قضى نحبه بسيف ابن ملجم المرادي. وننقل تلك الكلمات التأبينية للخضر في حق الإمام عليّ، ثم نعلق على الرواية السابقة.

وقد رواها الكليني في كتابه الكافي بسنده إلى أسيد بن صفوان قال: «لما كان اليوم الذي قبض فيه أمير المؤمنين عليه السلام ارتج الموضع بالبكاء ودهش الناس كيوم قبض النبي صلى الله عليه وآله وسلم وجاء رجل باكيًا وهو مسرع مسترجع وهو يقول: اليوم انقطعت خلافة النبوة حتى وقف على باب البيت الذي فيه أمير المؤمنين عليه السلام فقال:

رحمك الله يا أبا الحسن كنت أول القوم إسلامًا وأخلصهم إيمانًا، وأشدهم يقينًا، وأخوفهم لله، وأعظمهم عناء وأحوطهم على رسول الله ﷺ وآمنهم على أصحابه، وأفضلهم مناقب، وأكرمهم سوابق، وأرفعهم درجة، وأقربهم من رسول الله ﷺ وأشبههم به هديًا وخلقًا وسمتًا وفعلًا، وأشرفهم منزلة، وأكرمهم عليه، فجزاك الله عن الإسلام وعن رسوله وعن المسلمين خيرًا.

قويت حين ضعف أصحابه، وبرزت حين استكانوا، ونهضت حين وهنوا، ولزمت منهاج رسول الله ﷺ إذ همّ أصحابه، وكنت خليفته حقًّا، لم تنازع ولم تضرع برغم المنافقين، وغيظ الكافرين، وكره الحاسدين، وصغر الفاسقين.

فقمت بالأمر حين فشلوا، ونطقت حين تتعتعوا، ومضيت بنور الله إذ وقفوا، فاتبعوك فهدوا، وكنت أخفضهم صوتًا، وأعلاهم قنوتًا وأقلهم كلامًا، وأصوبهم نطقًا، وأكبرهم رأيًا، وأشجعهم قلبًا، وأشدهم يقينًا، وأحسنهم عملًا، وأعرفهم بالأمور».[1]

ونسجل هنا ملاحظاتنا على الرواية الأولى فنقول:

(1) وأول من نقلها فيما يبدو عن أسيد بن صفوان هو البزاز في مسنده، البحر الزخار 3/ 139 ثم غيره كالعقد الفريد وغيره، ولم تنقل في الكتب الأساسية عندهم.

ا/ ما يجعلنا لا نقبلها أن أمير المؤمنين في مواضع كثيرة جدًا[1] كان يصرح بأنه أول من أسلم وأقدم من آمن، وأنه أسلم قبل الناس وصلى مع رسول الله، فكيف يأتي هنا ليقول كنت أول القوم إسلامًا؟ وهو الذي يقول في تلك المواضع: لا يقولها بعدي أو غيري إلا كاذب؟

ب/ ماذا يعني أن يقول عليّ - بزعمهم في الرواية الأولى - اليوم انقطعت خلافة النبوة؟ إنه بناء على مسلك مدرسة الخلفاء لم تنقطع الخلافة بل الخلافة بعد أبي بكر صارت أقوى وأطول مدة. فلا معنى لقوله - كما زعموا انقطعت خلافة النبوة - وهذا يعني أن الذي نقل هذه الكلمات لم يلتفت وهو يغير الاسم إلى هذه الجهة. أما لو قال القائل انقطعت خلافة النبوة بمقتل أمير المؤمنين فهو صحيح بناء على قول

(1) فراجع ما جمعه الري شهري في موسوعة الإمام عليّ بن أبي طالب ﷺ 9/ 111، حيث أورد 126 حديثا من مصادر الفريقين، تؤكد أوليته على جميع الناس في إسلامه، وبعضها بتصريحه ﷺ أنه سبق أبا بكر وصلى قبله بسبع سنين، وبعضها بتصريح رسول الله أن عليًّا هو أول من آمن به وصدقه، ومن أقواله الكثيرة قوله على منبر البصرة: «أنا الصديق الأكبر، آمنت قبل أن يؤمن أبو بكر، وأسلمت قبل أن يسلم» ومنها قوله: «أنا عبد الله، وأخو رسوله، وأنا الصديق الأكبر، لا يقولها بعدي إلا كاذب، آمنت قبل الناس سبع سنين» ومنها ما عن أبي ذر وسلمان: أخذ رسول الله ﷺ بيد عليّ ﷺ فقال: «إن هذا أول من آمن بي، وهو أول من يصافحني يوم القيامة، وهذا الصديق الأكبر». ومنها شعره المشهور عنه:

سبقتكم إلى الإسلام طرًّا غلامًا ما بلغت أوان حلمي

أهل البيت حيث الخليفة بعد النبي هو عليّ بن أبي طالب وبشهادته انقطعت خلافة النبوة. وحتى بناء على رأي مدرسة الخلفاء حيث يعتبرون أن خلافة النبي هي للخليفة الرابع وبعدها يبدأ الملك العضوض.

ج/ مما يشير إلى أن الكلمات (والتأبين) ليس لأبي بكر وإنما المقصود منها عليّ بن أبي طالب هو أن فيها نقدًا مباشرًا للأصحاب وبيانًا لتميز الإمام عليهم، فإن أصحاب النبي بحسب هذا النص قد ضعفوا واستكانوا ووهنوا، وهمّوا بالانحراف عن منهاج النبي، وفي المقابل فإن المخاطَب كان قويًّا، وناهضًا وقد لزم المنهاج. وقائمًا بالأمر حين فشلوا، وناطقًا حين تتعتعوا، وماضيًا بنور الله إذ وقفوا.

وهذا الخطاب بالنسبة للصحابة لا تقبله مدرسة الخلفاء، إذ ترى أصحاب النبي كلهم عدولًا، وأنهم خير الخليقة بعد رسول الله.

وإنما نمط هذا الخطاب هو ما يميز مدرسة أهل البيت، حيث تقيم الأصحاب؛ كلٌّ بحسب غنائه ودوره في نصر الدين، وتعتبر أنه كما فيهم المخلص القوي، فكذلك فيهم المنافق السيء، وفيهم المنحرف عن نهج النبي.. وبين هؤلاء فإن خيرهم في كل شيء هو الإمام عليّ عليه السلام.

د/ ونختم كلامنا بما علق به آية الله التستري على هذه الرواية التي نقلت على أنها تأبين لأبي بكر، فقد قال في شرحه على نهج البلاغة: «ومن المضحك انّهم غيّروا ما ورد أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لمّا توفي ارتجت الكوفة كالمدينة يوم قبض النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وجاء رجل باكيًا وهو مسرع مسترجع وقال: «رحمك اللّه يا أبا الحسن، كنت أوّل القوم إسلامًا...» بألفاظه في أبي بكر، فقالوا كما في (العقد): لمّا قبض أبو بكر وسجّي بثوب ارتجت المدينة كيوم قبض النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وجاء عليّ باكيًا مسرعًا مسترجعًا حتّى وقف بالباب، وهو يقول: «رحمك اللّه يا أبا بكر كنت أوّل القوم إسلامًا..»

ومن فقراته: «كنت كالجبل لا تحركّه العواصف».. ولا أدري أين كان هذا الوقار منه، هل في يوم خيبر أو في باقي مشاهده.

وبالجملة، لا نعلم من الرجل إلّا انهّ لم يكن يشهد الحرب، أو يشهد فيفرّ حتّى قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لمّا فرّ هو وصاحبه يوم خيبر: «لأعطين الراية غدًا رجلًا يحبّ اللّه ورسوله ويحبهّ اللّه ورسوله كرّارًا غير فرّار»..

ومن فقراته: «لم يكن لأحد عندك مطمع ولا هوى».

فنسألهم لم يكن لأحد عنده مطمع، حتى لخالد بن الوليد

الذي قتل مالك بن نويرة مسلمًا وزنا بامرأته، حتى أنكر عمر عليه عدم إنكاره على خالد»[1]

ونكتفي بهذا المقدار من التطواف مع أننا لم نبلغ كل ما نريد، فضلًا عن أن نحيط بكل ما ينبغي حيث لا يتسع وضع الكتاب وخطته لأكثر من هذا.

(1) التستري؛ الشيخ محمد تقي بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة 9/ 492.

مناقب الإمام
خارطة طريق لإمامته

كُتب الكثير عن مناقب[1] الإمام عليّ عليه السلام وفضائله، مع أنها - بمجموعها - لم تصل إلى كل ما جاء فيه ولم تُحط بكل خصائصه، لا لأن تلك الجهود كانت قليلة وإنما لسعة هذه الشخصية الإلهية، وتعدد أبعادها، ومن المواضيع التي لم تبحث في فضائله ومناقبه عليه السلام إلا قليلاً، دراستها من الخارج والتأمل فيها كمنظومة واحدة، وسوف نحاول في هذه الصفحات القيام بذلك قدر الإمكان ونسجلها في نقاط ليسهل أخذها والرجوع إليها.

1/ ينبغي التساؤل عما هو غرض ذكر هذه المناقب والإشارة إلى تلك الفضائل من قِبل النبي المصطفى صلوات الله عليه، بل من القرآن الكريم؟ سوف نلاحظ أن القرآن الكريم أشار إلى

(1) قال الزبيدي في تاج العروس 7/ 88 والمَنْقَبَةُ: المَفخَرَةُ، وهي ضِدُّ المَثْلَبَةِ. وفي اللّسان: المَنْقَبَةُ: كَرَمُ الفِعْلِ، وجَمعُها المَنَاقِبُ، يقال: إنّه لَكَرِيمُ المَنَاقِبِ، من النَّجَدات وغيرِها، وفي فلانٍ مَناقِبُ جَمِيلَةٌ: أَي أَخلاقٌ حسَنَةٌ. وفي الأَساس: رجلٌ ذُو مَنَاقِبَ وهي المَآثِرُ والمَخابِرُ.

فضائل الإمام عليّ عليه السلام وأنزل في حقه آيات تتلى آناء الليل وأطراف النهار.. فما هو الغرض من ذلك؟ وهكذا فإنه قد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مئات بل آلاف الأحاديث في شأن عليّ بن أبي طالب، من بداية دعوته لله وإلى أيام وفاته.. فما هو هدف تلك الأحاديث؟

البعض يتصور أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، صنع ما يصنعه كل إنسان عادي حين يرى شيئًا حسنًا فهو يشير إليه ويعرّف به، فكما رأى في عليّ صفات حسنة رأى في غيره كذلك وأشار إليها لكن عليًّا كان هو الأكثر، وربما تسكن هذه الفكرة ذهن كثيرين حتى من علماء مدرسة الخلفاء الذين ذكروا «مناقب العشرة المبشرين» كما قالوا، وبضمنهم الإمام عليّ الذي كان أكثرهم مناقب! أو حين ذكروا فضائل الصحابة أو بني هاشم وهكذا.

إلا أن ما نعتقده ونراه الصحيح هو أن دور بيان المناقب والفضائل، هو جزء من البلاغ المبين الذي قام به النبي للأمة لكي تهتدي طريقها بعده، وتسير على منهاجه في مستقبل أيامها..

وقد يرشد إلى هذا المعنى أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، قد ابتدأ بذكر مناصب عليّ عليه السلام بشكل مباشر من بداية دعوته وإنذاره عشيرته الأقربين، وهو المعروف بحديث الإنذار يوم الدار، وبيّن لهم أنه أخوه ووصيه ووارثه وخليفته فليسمعوا له وليطيعوا إياه!

وهذه هي الغاية من ذكر المناقب والفضائل، فلم يكن ذكرها لأجل أن يفخر عليّ على غيره أو يبطر بها! كما أن النبي ﷺ كان له من الأعمال والأدوار ما لا يسمح له بأن يبين أن هذا أعلم أو أن ذاك أخوه أو قسيم الجنة.. لا سيما مع هذه الكثرة الكاثرة من الأحاديث ومن الأيام الأولى إلى آخر أيامه..

إن ذلك ليرشد إلى الأهمية الفائقة التي كان يوليها النبي لبيان هذه المناقب والفضائل، بل القرآن الكريم عندما يسجلها، إنما ذلك لغاية تتناسب مع هذا الاهتمام، وتلك الغاية هي إمامة الناس وقيادتهم، التي بينها القرآن بصريح القول: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾[1] فإن هذا اللحن من قول الله عز وجل يتناسب مع موضوع الإمامة وهداية الناس إليها، وخريطة صحيحة في الاتجاه بعد الرسول، وهكذا.

ويشهد لذلك أيضًا أن النبي ﷺ كان يقول هذه الكلمات ويبين هذه الفضائل عادة في حضور آخرين، حتى يشهدوه وينقلوه لغيرهم، وكلامه فيها بمقتضى البلاغ المبين الذي كان وظيفة النبي، وأجلى ما كان هو حدث الغدير، في عدد الحاضرين فيه وأول حدث شهد بيان الإمامة والخلافة لعليّ كان يوم الإنذار وما

(1) المائدة: 67.

بينهما جرت أحداث كثيرة كان فيها رسول الله يستثمرها في بيان ذلك الأمر المهم.

2/ نعتقد أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد بلغ بلاغًا مبينًا، وبيانًا واضحًا، وعمل بما هو مسؤوليته، كما أوجب عليه الله سبحانه ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[2] وتلك هي وظيفة كل الرسل؛ أن يكون بلاغٌ، وأن يكون ذلك البلاغ مبينًا ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.[3]

وضمن هذا فقد بيّن الرسول الكريم للناس، وأوصل لهم الهدى والبينات، وبلّغهم الصراط الواضح، لما ينبغي أن تكون عليه حياتهم أيام حضوره وبعد مماته أيضًا.

ولذلك لاحظنا اختلاف وتعدد طرق البلاغ المبين باختلاف مستويات الناس، وحالاتهم، وكيفية تأثرهم، فقد يكون تارة بالصراحة وأخرى بالملازمة، وثالثة في ضمن جمع قليل ورابعة في جمع كثير وهكذا.

(1) النور: 54.
(2) المائدة: 92.
(3) النحل: 35.

ولعل قائلًا يقول ـ كما تمسك به بعض المنكرين ـ: لو كان هناك بلاغٌ مبينٌ ونصٌّ جليٌّ في إمامة عليّ بن أبي طالب لما تخلف عن ذلك المسلمون، والحال أنهم لم يسلموا له بالإمامة، فيتبين من ذلك أنه لا بلاغَ مبينٌ ولا نصَّ جليٌّ!

وجواب ذلك: **أولًا**: ما جاء في الآيات المباركات ولا سيما قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[1] ومعنى ذلك أنه ليس من مسؤوليته أن يؤمن الناس، فإيمان الناس وقبولهم له أسباب مختلفة مثلما هو عصيانهم ورفضهم الإيمان، وإنما مسؤولية الرسول أن يبلغ ما أنزل إليه..

وثانيًا: إن القائل بما سبق يفترض أن يلتزم بأن المسلمين جميعًا في زمان النبي لا يعصون ربهم ولا يخالفون أوامره، فلو بلغ الرسول فيها بلاغًا مبينًا لما عصوا ربهم! فإما أن يلتزم القائل: بأنه لم يكن هناك عصيان لله في زمان الرسول وأن لا أحد من المسلمين قد ارتكب ذنبًا في زمانه، أو أن يكون الرسول لم يبلغ البلاغ المبين! والكلام الذي يقال هناك يقال هنا.

والصحيح: هو أن الرسول قد بلغ البلاغ المبين في العقائد

(1) المائدة: 92.

والأحكام، وكان من المسلمين من أطاع في الجهتين فآمن بعليّ خليفة للنبي، وترك المعاصي بقدر طاقته، كما كان من المسلمين من عصى الله في إحدى الجهتين أو كلتيهما!

ثالثًا: إن الرسول قد بلغ البلاغ المبين في شأن إمامة أمير المؤمنين عليه السلام، لكن بعض المسلمين قد حصلت لهم شبهة في الفهم فلم يستطيعوا الوصول إلى المطلوب، لا لإشكال في البلاغ وإنما لبلاهة في الفهم.. فماذا يستطيع النبي أن يصنع وهو ليس إلا مذكر، وليس عليهم بمسيطر.

وهناك من تعمد التأويل ضلالًا منه وإضلالًا لغيره. فماذا يستطيع النبي أن يصنع مع من في قلبه مرض؟ لقد كانت إحدى مشاكل النبي مع الذين أوتوا الكتاب هي هذه ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾[1] ذلك ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[2] والقسم الأول يمكن مع النقاش وبيان الحقائق أن يرجع إلى الهدى دون الثاني، فكلما أتيته بحديث كذبه، وإذا لم يستطع تكذيبه أوّلَه وفسّره على غير وجهه، فإن لم يستطع تفسيره قال هذا ليس نصًّا واضحًا في الإمامة،

(1) البقرة: 145.

(2) يونس: 96.

وهكذا وقد مرَّ شيء من الحديث في هذا الموضوع في بحث ظلامة عليّ عليه السلام ومظلوميته.

3/ إن المناقب المذكورة في حق أمير المؤمنين عليه السلام تكشف عن تكامل تام في الشخصية، وهو المطلوب في إمام المسلمين - بما هو عقيدة الإمامية في الإمام المنصوب من الله. فهذه الفضائل والمناقب تشير إلى شخص اختصه الله منذ ما قبل ولادته (أحاديث النور الذي وصل لعبد المطلب ثم انقسم في ابنيه عبد الله وأبي طالب/ وأحاديث الشجرة: أنا وأنت من شجرة واحدة.. وغيره) وكان (أعلمكم، وهو باب مدينة العلم النبوي..) وهو نفسه (أول من آمن بي)، وهو (وارثي ووصيي) وهو الذي ما قلع باب خيبر بقوة جسدانية بل بقوة رحمانية، وهو وارث الأنبياء (من أراد أن ينظر إلى آدم في علمه وإلى إبراهيم.. ونوح..). وتتعجب من اجتماع هذه الصفات (المتخالفة ظاهرًا[1] (لولا أن الله سبحانه قد أراد لهذا الشخص أن يكون مكان النبي بعد وفاته، هاديًا لأمته وقائدًا لها..

وهذا النهج يختلف تمامًا عمّا يذكر لبعض الأشخاص من فضائل تراها لا تتناسب مع غيرها فيه، ولا يصدقها الواقع.

(1) فانظر إلى كلمات ابن أبي الحديد في مقدمته لشرح نهج البلاغة إلى ص 27.

4/ تكامل الأحاديث نفسها، وتصديق الواحد منها للآخر، فهذا يشير لذاك، وذاك يشرح هذا، وكلاهما يفسر الآية النازلة في شأنه، كما أننا نلاحظ أن النبي لم يكن يقول الحديث مرة واحدة.

فإذا جاءت آية المباهلة ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾[1] جاءت أحاديث: أنت مني وأنا منك، وإنه مني وأنا منه. وشرحتها حادثة تبليغ سورة براءة وقوله أتاني جبرئيل وقال: «لا يؤدي عنك إلا أنت أو أحد منك» وأبانها قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «لينتهين بنو وليعة أو لأبعثنّ لهم رجلًا مني كنفسي».

وإذا جاءت آية التطهير ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[2] جاء حديث سد الأبواب تطبيقًا لتلك الآية إذ لا معنى لفتح بابه على المسجد، والجنب لا يجوز أن يبقى في المسجد لا سيما مسجد النبي وبنفس الطريقة يرد نسبة وجود أبواب أخر على المسجد لغيره، وإذا اعترض أحد قال لهم النبي: ما منعتكم بل الله.

وإذا جاء حديث «أنت مني بمنزلة هارون من موسى» شرحته

(1) آل عمران: 61.

(2) الأحزاب: 33.

الآيات المباركة (اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ) وقوله تعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (*) هَٰرُونَ أَخِي (*) ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي (*) وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي﴾[1].

وإذا جاءت الآية المباركة حاصرة الولاية في الله والنبي والإمام عليّ المتصدِّق راكعًا ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾[2] شرحها قول النبي في الغدير «ألست أولى بكم من أنفسكم؟ قالوا بلى: قال: فمن كنتُ مولاه فعليّ مولاه اللَّهم والِ من والاه وعاد من عاداه»، وبينها قوله ﷺ: «أنت وليّ كل مؤمن بعدي».

وإذا جاءت الآية المباركة ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾[3] جاء حديث «أنا مدينة العلم وعليّ بابها فمن أراد المدينة والحكمة فليأتها من بابها». وبينها الإمام بصريح قوله: «سلوني قبل أن تفقدوني؛ سلوني عن طرق السماوات فلأنا أعلم بها من طرق الأرض، سلوني فما من آية نزلت في ليل أو نهار إلا علمتها وعلمت تأويلها». وشرح كيفية ذلك بقوله: «علّمني رسول الله

(1) طه: 29 ـ 32.
(2) المائدة: 55.
(3) الرعد: 43.

ألف باب من العلم، يفتح كلّ باب ألف باب، ولم يعلّم ذلك أحدًا غيري.»

وإذا جاء حديث يقول: «يا عليّ: لولاك ما عُرف المنافقون من المؤمنين» شرحه بعض الشرح حديث آخر، عن النبي في قوله: «يا عليّ لا يحبك الا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق» وشرحه بشكل أوضح قول النبي الآخر: «يا عليّ انت قسيم الجنة فيوم القيامة تقول للنار هذا لي وهذا لك».

وإذا جاء حديث عن النبي: «يا عليّ أنا وأنت من شجرة واحدة وسائر الناس من شجر شتّى» وبالطبع لا يقصد هنا شجرة النسب وإلا لكان سائر أبناء أبي طالب (كعقيل وجعفر) يشتركون معهما، وإنما المقصود هو ذلك النور الخاص الذي أكده ودلّ عليه ما جاء «كنت وعليّ نورًا في صلب عبد المطلب».

سورة براءة لا يؤدي عنك إلا أحد منك = أنت مني وأنا منك = أو لأبعثنّ لهم رجلًا مني كنفسي، ويرتب على ذلك أن: «من أبغض عليًّا فقد ابغضني ومن فارق عليًّا فقد فارقني إنّ عليًّا مني وأنا منه، خلق من طينتي وانا خلقت من طينة إبراهيم».

5/ إن هذه المناقب والفضائل بالإضافة إلى أنها من إنباء الوحي في القرآن أو عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو كاف في تصديقها

والإذعان بها، فإنها قد صدقتها الحقائق الخارجية ـ فيما يحتاج إلى جهة خارجية، فمثلًا جانب العلم وأنه باب مدينة العلم النبوي، وأنه صاحب كلمة «سلوني» فما قالها غيره إلا افتضح، ولقد تألق سلام الله عليه في كل جواب؛ لقد تكلم في تفسير القرآن حتى أوقر حمل سبعين جمل من تفسير سورة الفاتحة، وتكلم في الفقه فأوضح المعضلات، ووصف في الطبيعة الحيوان فأبهر علماء الحيوان وهكذا.

وعندما وصفه الأمين جبريل مبلغًا عن ربه بأنه لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا عليّ، كانت المعارك تنطق بهذا مصدقة وبطولاته فيها مسجلة ولا تخفى على متتبع.

6/ الأعجب مما سبق هو أن هذه المناقب والفضائل التي بين أيدينا في هذا الزمان هي «بقية» السيف و«ثمالة الكأس» والقليل الذي سلم من نظرات وأيدي موظفي جمارك السلطات، وشرطة التفتيش على مدى أربعة عشر قرنًا، كانت فيها فضائله مطاردة ومناقبه.

فإن ما يقرب من 85 سنة، من بعد وفاة النبي إلى خلافة عمر بن عبد العزيز كان فيها المرسوم السلطاني بمنع كتابة الحديث ونشره هو السياسة العامة المطبقة بحزم، قد أضاعت الكثير من

حديث رسول الله في فضائل أمير المؤمنين ومناقبه، بل قال بعض المحققين: إن الغرض الأساس من ذلك المنع كان القضاء على تلك المناقب والفضائل وتضييعها، بموت حامليها.

وصار هذا مرسوما أكيدًا في زمان معاوية بن أبي سفيان،[1] واشتد في زمان المنصور والمتوكل العباسي بأسوأ نحو،[2] ومع كلِّ ذلك فقد بقي هذا العدد الضخم من روايات مناقبه وفضائله، وهذا يشير إلى أمرين:

- إرادة الله سبحانه في أن يظهر هذا المعنى، وألّا يضيع بلاغ رسول الله المبين في تثبيت إمامة ولي الله ووصي رسوله، ولكي تبقى هذه الأحاديث معالم هداية في طريق الخلق إلى يوم الدين. ذلك أن الحرب التي تعرضت لها هذه الأحاديث

(1) ابن ابي الحديد: شرح نهج البلاغة 11/ 44 كتب معاوية نسخة واحدة إلى عماله بعد عام الجماعة: أن برئت الذمة ممن روى شيئًا من فضل أبي تراب وأهل بيته فقام الخطباء في كل كورة وعلى كل منبر يلعنون عليًّا ويبرؤون منه ويقعون فيه وفي أهل بيته، وكان أشد الناس بلاء حينئذ أهل الكوفة لكثرة من بها من شيعة عليّ عليه السلام.

(2) ذكر الخطيب البغدادي في كتابه تاريخ بغداد 13/ 289 في ترجمة عليّ بن نصر الجهضمي أنه حدّث «أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أخذ بيد حسن وحسين فقال: «من أحبني وأحب هذين وأباهما وأمهما كان معي في درجتي يوم القيامة».
قال أبو عبد الرحمن عبد الله: لما حدث بهذا الحديث نصر بن عليّ أمر المتوكل بضربه ألف سوط!!، وكلمه جعفر بن عبد الواحد وجعل يقول له: هذا الرجل من أهل السنة، ولم يزل به حتى تركه، وكان له أرزاق فوفرها عليه موسى. قلت: إنما أمر المتوكل بضربه لأنه ظنه رافضيًّا، فلما علم أنه من أهل السنة تركه «.

كانت من الشدة بحيث لولا أن الله أراد إظهارها وإبقاءها لكانت بمنطق المعادلات البشرية تختفي ولا يبقى منها شيء.. إذ الحرب الرسمية عليها بالطرق المختلفة التي أشرنا لها في فصل مظلومية أمير المؤمنين عليه السلام، استمرت نحو أربعة عشر قرنا، وبالنحو الذي أراده معاوية بن أبي سفيان، حتى يكبر عليه الصغير ويهرم عليه الكبير.[1] لكن أراد الله غير ذلك ولا راد لإرادة الله.

- كما يشير إلى أن هذه المناقب والفضائل والروايات المظهرة لها كان من الكثرة بحيث أنه مع كل ما حدث من حذف وإلغاء وتشويه وتأويل ومنع كتب وإيذاء محدثين وكل السياسات الظالمة الأخرى، مع ذلك بقي هذا العدد الكبير، ويتبين من ذلك أن العدد الأصلي هو أضعاف ما وصل إلينا.

7/ ثم إنه قد كتب في مناقب الإمام وفضائله، علماءٌ أبرار من المدرستين، وهو مما ساهم في إبقاء ما بقي فلله درُّهم وعليه أجرهم ولقد تحمل بعضهم الشيء الكثير بسبب كتابتهم تلك.

(1) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة 4/ 57 وروى أبو عثمان أيضًا أن قومًا من بني أمية قالوا لمعاوية: يا أمير المؤمنين، إنك قد بلغتَ ما أملت، فلو كففت عن لعن هذا الرجل! فقال: لا والله حتى يربو عليه الصغير ويهرم عليه الكبير، ولا يذكر له ذاكر فضلًا!

أما في المدرسة الإمامية فهو طبيعي إذ أن إيمانهم بإمامة الإمام، واعتقادهم بتقدمه على سائر خلق الله تعالى ـ باستثناء نبيه المصطفى ـ ورغبتهم في أن يهتدي الخلق إليه، جعلهم يدونون هذه الفضائل.

وأما في مدرسة الخلفاء فإن تدوين بعضهم لمناقبه قد يكون دافعه الرد على انتشار اتجاه البغض ونصب العداء لأمير المؤمنين عليه السلام والذي قام به بعض فقهاء الاتجاه الأموي حقدًا وغيظا منه عليه السلام، أو قد يكون هؤلاء يسترزقون من الخلفاء الظالمين في مقابل ذم عليّ وشتمه، فتأخذ البعض الغيرة الدينية، وتدعوهم محبته عليه السلام إلى تدوين هذه الكتب، وإن لم يكونوا يؤمنون بإمامته بالمعنى الذي تؤمن به الشيعة الإمامية، ويشترك مع هؤلاء بعض الزيدية والاسماعيلية.

وقد رأيت في موقع المرجع الإلكتروني للمعلومات[1] نقلًا عن موسوعة سيرة الإمام عليّ عليه السلام أنه عدد نحو 260 كتابًا باللغة العربية وغيرها، تتناول مناقب وفضائل الإمام عليّ عليه السلام، وقد اعتمد الكاتب على ما أورده المرحوم الشيخ آقا بزرك الطهراني في كتابه الذريعة إلى تصانيف الشيعة.

(1) https://almerja.com/reading.php?idm=126812 قرئت بتاريخ 23/ 12/ 1444

ومن مدرسة الخلفاء فقد اشتهر كتاب المحدث أحمد بن شعيب النسائي[1] في خصائص الإمام عليّ عليه السلام وأورد فيه 190 حديثًا في فضائل الإمام أمير المؤمنين وخصائصه.

وقد ذكرنا فيما سبق أن كل من ألّف في ترجمة أصحاب النبي قد ذكر شيئًا قليلًا أو كثيرًا من مناقبه وفضائله. ومشكلة بعض تلك التصنيفات أنها مؤلفة في ضمن التوازنات فلا يصح مثلًا أن يذكر مؤلفها عن فلان من الصحابة عشرة أحاديث قد لا يسلم منها نصفها، وفي نفس الوقت يذكر عن عليّ عليه السلام خمسمائة حديث! فيرى نفسه مسوقًا للاختصار الشديد في فضائل الإمام عليه السلام.

كما أن بعضها يكون مؤلفها محكومًا بعقيدته وانتمائه المذهبي فلا يورد الأحاديث التي تذكر فضائل للإمام وتتنافى مع عقيدته تلك، وإن كانت بحسب الموازين العلمية سليمة سندًا ومتناً.

وبعضها متأثر بتوجه الحاكم والخليفة الذي يعيش تحت سقفه المؤلف، فإذا كان بطاشًا ومبغضًا للإمام فإنه لا يذكر الكثير من فضائل الإمام عليه السلام. وبهذا اعتذر بعض الكتاب عن اختصار

(1) وقد ذكرنا في صفحات سابقة شيئًا من ترجمته ومقتله!

البخاري فضائل الإمام عليه السلام باعتبار أنه كان في أجواء المتوكل العباسي الذي عُدّ من النواصب المبغضين.

فتجد في صحيح البخاري مثلًا أنه أورد سبعة أحاديث!! في باب مناقب عليّ بن أبي طالب؛ وهذه السبعة مشوهة الألفاظ، وبعضها لا يرتبط بمناقبه، أما المناقب الأساس والفضائل الكبرى فغابت تمامًا؛ فقد أورد عن النبي قوله لعليّ: أنت مني وأنا منك (من غير إسناد ولا أعلم هل ليسهل الخدش فيه؟) وحديث سهل بن سعد في قضية خيبر جاء به «منزوع الدسم» فأصبح حكاية بسيطة «لأعطين الراية رجلًا يفتح الله على يديه» هكذا. والحديث الذي بعده أثبت فيه أولًا: أن عليًّا تخلف عن رسول الله!! ثم التحق به! وفي العبارة المهمة «يحبه الله ورسوله ويحب الله ورسوله» جعلها بـ (أو) وحذف منها الجملة المشهورة: كرارًا غير فرار! كما حذف منها انهزام الآخرين.

والرابع: لم يكن عن النبي في فضل عليّ وإنما عن ابن عمر وأنه سئل عنه، فذكر محاسن عمله!! ما هي؟ لا وجود لها.

والخامس: عن أمير المؤمنين نفسه، وهو قصة تعليم النبي فاطمة وعليًّا تسبيح الزهراء!

والسادس: حديث المنزلة.

والسابع: ما زعم عن عليّ أنه قال: اقضوا كما كنتم تقضون فإني أكره الاختلاف حتى يكون للناس جماعة! فكان يقول ابن سيرين: عامة ما يروى عن عليّ الكذب!

وهذا ليس من مناقبه بل مما يذم به عليه السلام!؛ فإذا كان النبي يقول للمسلمين: «أقضاكم عليٌّ» وهو يقول اقضوا كما كنتم تقضون، فإما أن يكون النبي مشتبهًا في كلامه ذاك! أو عليٌّ مشتبها في قضائه الخاص. وإنما بحسب هذا الحديث أرجعهم الإمام عليّ إلى ما كانوا يقضون به، وقدم قضاءهم على قضائه، وكأن في قضائه الاختلاف والفرقة! هل هذه مناقب يا صاحب الصحيح؟

هذا الأحاديث السبعة وأنت ـ عزيزي القارئ ـ ترى ما فيها، في مقابل ثلاثة وعشرين حديثا للخليفة الأول وخمسة عشر حديثا للخليفة الثاني.

وفي صحيح مسلم كانت «حصة» أمير المؤمنين عليه السلام من الفضائل كانت ثمانية أحاديث! وهي متكررة بحسب تعدد الأسانيد، وبعض الزيادة والنقيصة في الحديث، ولكن كل ما ذكر هو حديث المنزلة «بمنزلة هارون من موسى» وحديث سعد الذي فيه خصال الإمام «حديث المنزلة والمباهلة ولأعطين الراية في قصة خيبر» وعندما جاء لحديث الغدير ذكر القسم الأول منه

وهو خلاصة حديث الثقلين وترك المهم فيه وهو «من كنت مولاه فعليّ مولاه»، وآخرها كان حديث «تسميته أبا تراب». في مقابل ثلاثة عشر حديثا لأبي بكر، وأحد عشر لعمر، وأربعة لعثمان.

وهذا الاختزال الشديد لفضائل الإمام عليه السلام متأثر بسبب أو أكثر مما ذكرنا آنفًا. أو كان يوافق هوى بعضهم في البغض له عليه السلام.

بعض مناقبه المشهورة

ما جاء في كتاب الله

1/ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾.[1]

وقد نزلت هذه الآية المباركة في حق عليّ عندما تصدق بخاتمه، وهو راكع في الصلاة، وهي قضية مشهورة ذكرها المفسرون وأرخها حسان بن ثابت[2] في شعره فقال:

أبا حَسنٍ تفديكَ نَفسي وأُسرَتي
وكُلُّ بطيءٍ في الهُدى//ومُسارِعِ
أيذهبُ مدحٌ من مُحِبِّكَ ضائِعًا
وما المدحُ في جنبِ الإلهِ بضائِعِ
فأنتَ الذي أعطيتَ إذ كُنتَ راكعًا
عليٌّ فدتك النفسُ يا خيرَ راكِعِ

(1) المائدة: 55.

(2) سبط ابن الجوزي: تذكرة الخواص ص 25.

فأنــزلَ فيــكَ اللَّــه خيــرَ ولايــة

وبينهــا فــي محكمــاتِ الشــرائع

ودلالتها على الانحصار واضحة، وما دامت كذلك فلا يمكن تفسيرها إلا بالولاية التي ذكرها النبي صلى الله عليه وآله وسلم في يوم الغدير، لا بمعنى المحبة والموالاة، لأن المؤمنين بعضهم أولياء بعض بهذا المعنى ولا ينحصر في واحد دون آخر، أما الولاية بالمعنى الأول فهي منحصرة بالله ورسوله وأمير المؤمنين.

2/ قال الله تعالى: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾.[1]

وقد نزلت هذه الآية المباركة في قصة المباهلة بين النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعليّ وفاطمة والحسنين من جهة ونصارى نجران من جهة أخرى، ودلالتها على التطابق بين رسول الله وعليّ عليهما السلام؛ علما وعملا إلى حد أن عليًّا هو نفس النبي صلى الله عليه وآله وسلم، واضحة.

3/ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[2]

(1) آل عمران:61

(2) الأحزاب:33

ودلالتها على التطهير الكامل من الرجس (المعنوي والمادي) لأهل البيت عليهم السلام وسيدهم ـ بعد رسول الله ـ عليّ بن أبي طالب عليه السلام واضحة. وقد استفاد منها العلماء كثيرًا من العقائد منها العصمة التامة لمن احتوتهم الآية، ومنها ما يرتبط بسد أبواب الصحابة كلهم إلا باب عليّ عليه السلام.

4/ قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾.[1]

وقد صُنفت كتب متعددة في ما نزل من القرآن في عليّ عليه السلام، من الآيات بمناسبة سبب نزولها، أو أُوّلَت بذلك.

ومن ذلك كتاب: ما نزل من القرآن في عليّ بن أبي طالب. لمحمد بن عمران المرزباني. (ت 384هـ) وكتاب النور المشتعل في ما نزل من القرآن في عليّ لأبي نعيم الأصفهاني (ت 430هـ) وكتب الكاتب المعاصر سعيد أبو معاش فضائل أمير المؤمنين في القرآن الكريم في عشرة أجزاء.

(1) الرعد: 43. ولمن أراد التفصيل يمكنه الرجوع إلى موسوعة الإمام عليّ بن أبي طالب 8/ 16 للشيخ محمد الري شهري، فقد أورد سبع عشرة آية فسرت بالإمام ـ أو كان سبب نزولها ـ قضية ترتبط به عليه السلام. وذكر هناك مصادرها.

الروايات عن رسول الله

الروايات عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كثيرة، كثرة فضائل الإمام التي لا تعد ولا تحصى كما ورد ذلك في حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد ذكرنا في ما مضى أن ما بقي وما انتهى إلينا هو شيء قليلٌ بالقياس إلى ما قيل فيه حقيقة، وأما ما ضاع وأُتلف على أثر السياسات الظالمة من الحاكمين، والعناد الحاقد من المبغضين فهو شيء كثير للغاية.

وقد أورد المرحوم الشيخ محمد الري شهري في كتابه موسوعة الإمام عليّ عن رسول الله نحو (430) رواية من مصادر الفريقين[1] وقد رتبها على حسب عناوين كثيرة، سوف ننتخب من هذه الروايات عددًا يسيرًا منها، وهي التالية.

1/ عنه صلى الله عليه وآله وسلم: خُلقت أنا وعليّ من نور واحد.[2]

2/ وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: كنت أنا وعليّ نورًا في جبهة آدم عليه السلام، فانتقلنا من

(1) هذا من جهة التعداد وأما من جهة الاستدلال والبحث العلمي المتقن في الأحاديث المشهورة بين الفريقين فقد جلّى في سمائه علامة الهند السيد مير حامد حسين النقوي اللكنهوي في كتابه عبقات الأنوار، والذي اختصره العلامة المعاصر السيد عليّ الحسيني الميلاني في عشرة مجلدات. ونذكّر القراء الأعزاء أننا قد ذكرنا ترجمة مفصلة للسيد مير حامد حسين النقوي في كتابنا: من أعلام الإمامية، وأشرنا إلى هذا الكتاب القيم.

(2) المصدر نفسه ص 66 فما بعدها.

الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام المطهّرة الزاكية حتى صرنا في صلب عبد المطّلب، فانقسم النور قسمين، فصار قسم في عبد الله وقسم في أبي طالب، فخرجت من عبد الله، وخرج عليّ من أبي طالب.

3/ وعنه ﷺ: أنا وعليّ من شجرة واحدة، والناس من أشجار شتّى.

4/ وعنه ﷺ: إنّ الله عزّ وجلّ جعل ذرّيّة كلّ نبيّ في صلبه، وإنّ الله تعالى جعل ذرّيّتي في صلب عليّ بن أبي طالب.[1]

5/ عليّ منّي بمنزلة رأسي من بدني.

6/ عليّ منّي، وأنا من عليّ، ولا يؤدّي عنّي إلّا أنا أو عليّ.

7/ لينتهينّ بنو وُليعة أو لأبعثنّ إليهم رجلًا عندي كنفسي، يقتل مقاتلتهم ويسبي ذراريهم، وهو ذا. ثمّ ضرب بيده على كتف عليّ بن أبي طالب.

8/ عن عليّ عليه السلام: قال لي رسول الله ﷺ: أنا وأنت يا عليّ أبوا هذا الخلق، فمن عقّنا فعليه لعنة الله، أمِّنْ يا عليّ، فقلت: آمين يا رسول الله.

(1) المصدر نفسه/ 75.

فقال: يا عليّ، أنا وأنت مَوْلَيَا هذا الخلق، فمن جحدنا ولاءنا وأنكرنا حقّنا فعليه لعنة الله، أمِّن يا عليّ، فقلت: آمين يا رسول الله.[1]

9/ عن النبي: إنّ الله عزّ وجلّ أوحى إليّ في عليّ ثلاثة أشياء ليلة أسرى: أنّه سيّد المؤمنين، وإمام المتّقين، وقائد الغرّ المحجّلين.

10/ عنه صلى الله عليه وآله وسلم: يا عليّ، إنّ الله عزّ وجلّ أشرف على الدنيا فاختارني منها على رجال العالمين، ثمّ اطّلع الثانية فاختارك على رجال العالمين بعدي.

11/ عنه صلى الله عليه وآله وسلم: أقول كما قال أخي موسى: ربّ اشرح لي صدري، ويسّر لي أمري، واجعل لي وزيرًا من أهلي، عليًّا أخي، اشدد به أزري.

12/ عنه صلى الله عليه وآله وسلم: أحبّ أهل بيتي إليّ، وأفضل من أترك بعدي عليّ بن أبي طالب.

13/ عنه صلى الله عليه وآله وسلم ـ لعمّار ـ: إنّه سيكون في أُمّتي من بعدي هنات[2]

(1) المصدر نفسه / 92.

(2) أمور عظام وشدائد

حتى يختلف السيف فيما بينهم، وحتى يقتل بعضهم بعضًا، وحتى يبرأ بعضهم من بعض، فإذا رأيت ذلك فعليك بهذا الأصلع عن يميني عليّ بن أبي طالب، وإن سلك الناس كلّهم واديًا وسلك عليّ واديًا، فاسلك وادي عليّ، وخلّ عن الناس، إنّ عليًّا لا يردّك عن هدى، ولا يدلّك على ردى. يا عمّار، طاعة عليّ طاعتي، وطاعتي طاعة الله.

14/ عنه ﷺ: صدّيق هذه الأُمّة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، وهو الصدّيق الأكبر، والفاروق الأعظم.

15/ عنه ﷺ: أُعطيت في عليّ تسع خصال: ثلاثًا في الدنيا، وثلاثًا في الآخرة، واثنتين أرجوهما له، وواحدة أخافها عليه. وأمّا الثلاثة التي في الدنيا: فساتر عورتي، والقائم بأمر أهل بيتي، ووصيّي في أهلي. وأمّا الثلاثة التي في الآخرة: فإنّي أُعطى لواء الحمد فأُعطيه يحمله، وأتّكئ عليه عند قيام الشفاعة، ويُعينني على مفاتيح الجنّة. وأمّا الاثنتان اللتان أرجوهما له: فإنّه لا يرجع بعدي كافرًا، ولا ضالًّا. وأمّا الواحدة التي أخافها عليه: فغدر قريش به بعدي.[1]

(1) المصدر نفسه / 175

16/ عنه صلى الله عليه وآله وسلم: أيّها الناس! أنا البشير وأنا النذير، وأنا النبيّ الأُمّي، إنّي مبلّغكم عن الله عزّ وجلّ في أمر رجل لحمه من لحمي، ودمه من دمي، وهو عَيْبة العلم، وهو الذي انتخبه الله من هذه الأُمّة واصطفاه وهداه وتولاّه، وخلقني وإيّاه، وفضّلني بالرسالة وفضّله بالتبليغ عنّي، وجعلني مدينة العلم وجعله الباب، وجعله خازن العلم والمقتبس منه الأحكام، وخصّه بالوصيّة، وأبان أمره، وخوّف من عداوته، وأزلف من والاه، وغفر لشيعته، وأمر الناس جميعًا بطاعته. وإنّه عزّ وجلّ يقول: من عاداه عاداني، ومن والاه والاني، ومن ناصبه ناصبني، ومن خالفه خالفني، ومن عصاه عصاني، ومن آذاه آذاني، ومن أبغضه أبغضني، ومن أحبّه أحبّني، ومن أرداه أردائي، ومن كاده كادني، ومن نصره نصرني.

17/ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إنّ الله تبارك وتعالى جعل لأخي عليّ بن أبي طالب فضائل لا يُحصي عددها غيره.[1]

18/ عنه صلى الله عليه وآله وسلم: يا عليّ، ما عرف الله حقّ معرفته غيري وغيرك، وما عرفك حق معرفتك غير الله وغيري.

(1) المصدر نفسه / 182.

الإمام عليّ من لسان عليّ

كما أورد الري شهري في موسوعته (112) حديثًا على لسان أمير المؤمنين عليه السلام يصف فيها نفسه ويعرف بفضائله وسجاياه، وبينما يقتصر في بعضها على صفة واحدة، يذكر في أحاديث أخرى سبعين منقبة وفضيلة اختص بها دون غيره.[1]

فليرجع إلى ذلك من أحب الاطلاع عليه.

(1) فراجع ما قاله عليه السلام كما نقله في الخصال ص 234عن مكحول: قال أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام: لقد علم المستحفظون من أصحاب النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله أنّه ليس فيهم رجلٌ له منقبة إلّا وقد شركتُه فيها وفضلته، ولي سبعون منقبة لم يشركني فيها أحدٌ منهم. قلت: يا أمير المؤمنين، فأخبرني بهنّ..

من التراث العلمي للإمام عليّ عليه السلام

لعل من العبث أن نحاول الإحاطة بعلم أمير المؤمنين عليه السلام، لأنه يعني الإحاطة بعلم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهو غير ممكن. سواء لجهة الكاتب فإنه يصحر بعجزه، أو لجهة الكتاب حيث هو مبني على الاختصار. أو لجهة الموضوع نفسه، ولكن مع ذلك سنرد هذا المحيط المتلاطم، وننتقع بمائه.

وأول ما سيأتي ببالنا هو حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا مدينة العلم وعليّ بابها».

ونلاحظ هنا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يشبه نفسه المقدسة بمدينة العلم، ويُشبه عليًّا عليه السلام بباب تلك المدينة. فهنا ثلاثة عناوين: المشبه (الرسول، وعليّ)، والمشبه به (المدينة، والباب)، وجهة التشبيه. وهذه الجهة يمكن أن نستوحي منها عدة أمور:

1/ أن أي مدينة ـ لا سيما إن كانت على النمط القديم ـ لا بدَّ لها من أبواب، وتقتضي القاعدة أن تؤتى المدن ـ والبيوت من أبوابها كما يقول الله تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن

﴿ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ﴾[1]، فإذا أراد أحدٌ ما من علم رسول الله فإن عليه أن يأتي من باب تلك المدينة ويأخذ من عليّ بن أبي طالب. ولو خالف ذلك التوجيه النبوي وأتى من غير الباب، لكان متسورًا وعُد سارقًا! بل قد يعد كاذبًا، فما يدرينا لعله يدعي الأخذ من علم النبي والحال أنه ليس كذلك، ما لم يدخل من بابه؟ ولعل هذا هو المعنى الذي تشير إليه أحاديث في أنه ما خرج العلم الصحيح إلا من عند عليّ ﷺ باعتبار أن من خلاله يخرج علم النبي الحقيقي للناس![2] وفي المقابل ما حذر منه النبي من قوله: «من كذب عليّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار»[3]

2/ إن هذا العلم المخزون في المدينة ليس بِذلة لكل أحد، وإنما يحتاج إلى «حامل يقوم بحقه» و«لقن يفهم أين يضعه»! فلا يستعمل الدين للدنيا.

3/ بعد أن عرفنا أن العلم النبوي هو الأصل وأن بابه هو عليّ بن

(1) البقرة: 189.

(2) الحر العاملي: الاثنا عشرية ص 199 ما رواه بإسناده الصحيح عنه ﷺ قال: إنه ليس أحد عنده علم إلا شيء خرج من عند أمير المؤمنين ﷺ فليذهب الناس حيث شاؤوا فوالله ليس الأمر إلا من هيهنا وأشار بيده إلى بيته.

(3) من أشهر الأحاديث بين الفريقين والمدرستين.

أبي طالب، فلا غرابة أن يقول عليّ عليه السلام ـ دون غيره ـ «سلوني قبل أن تفقدوني، سلوني فما من آية نزلت في ليل أو نهار إلا وعرفتها وعرفت في من نزلت، سلوني فما من راية تهدي مئة أو تُضل مئة إلا وأنا أعرف بسائقها وناعقها، سلوني عن طرق السماوات فلأنا أعلم بها من طرق الأرض» ونقل عن سعيد بن المسيب «لم يكن أحد من أصحاب رسول الله يستطيع أن يقول سلوني قبل أن تفقدوني إلا عليّ بن ابي طالب».[1] ونقله في حادثة أخرى بعبارة مختلفة في كنز العمال عن مسلم بن أوس وجارية بن قدامة السعدي أنهما حضرا عليّ بن أبي طالب يخطب وهو يقول: «سلوني قبل أن تفقدوني! فإني لا أُسأل عن شيء دون العرش إلا أخبرت عنه».[2]

نماذج من علم أمير المؤمنين:

نهج البلاغة

وأول ما يصادفنا هو عنوان «نهج البلاغة» الذي جمعه الشريف الرضي عليّ بن الحسين الموسوي[3] من كلام أمير المؤمنين،

(1) بن أبي شيبة؛ عبد الله بن أبي محمد: المصنف 14/ 451.
(2) المتقي الهندي؛ عليّ بن حسام الدين: كنز العمال 13/ 165.
(3) مرت ترجمته عند الحديث عن الخطبة الشقشقية.

وقد شرح فكرة الكتاب في مقدمته حيث قال إنه لما شرع في كتابه خصائص الأئمة وبدأ بخصائص أمير المؤمنين أورد فصلاً «يتضمن محاسن ما نقل عنه، من الكلام القصير، في المواعظ والحكم والأمثال والآداب، دون الخطب الطويلة والكتب المبسوطة، فاستحسن جماعة من الأصدقاء، ما اشتمل عليه الفصل المقدم ذكره، معجبين ببدائعه ومتعجبين من نواصعه، وسألوني عند ذلك أن أبتدئ بتأليف كتاب، يحتوي على مختار كلام مولانا أمير المؤمنين عليه السلام، في جميع فنونه ومتشعبات غصونه، من خطب وكتب ومواعظ وأدب، علما أن ذلك يتضمن من عجائب البلاغة، وغرائب الفصاحة وجواهر العربية، وثواقب الكلم الدينية والدنيوية، ما لا يوجد مجتمعًا في كلام ولا مجموع الأطراف في كتاب»[1]

وقد احتوى هذا الكتاب: على ثلاثة أقسام: الخطب: 241 خطبة، والرسائل 79، وقصار الحكم480 كلمة.

وبالنظر إلى مواضيع تلك الخطب والرسائل والحكم نجد عالمًا واسعًا من المعرفة الدينية والإدارية والسياسية وفهم الحياة.

(1) نهج البلاغة ص 34.

ولا يتيسر في هذا المقام أن نشير إلى عناوين تلك الخطب، ولكن يمكن لنا بشكل عام أن نقول: إن كثيرًا منها كان في بيان رأيه لما حصل بعد وفاة رسول الله إلى أيام خلافته الظاهرية والحروب التي شُنت عليه، ومواقف الخط القرشي في ذلك، و«درة التاج» في ذلك كانت خطبة الشقشقية التي سبق البحث الخاص بها. وبالإضافة إلى ذلك فإن خطبه في معرفة الله وتوحيده، وصفاته هي محيرة للعقل من جهة دقة مضمونها وعلوه ومن جهة بلاغتها وفصاحتها. الأمر الذي ما كان يستطيعه أحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، بل حتى لو كانوا هم مجتمعين!

كما أن فيها من المواعظ ما يخترق القلوب الغافلة، وبيان صفة الدنيا والآخرة، والفاسقين والمتقين، وفيها ذكر الملاحم وأمور المستقبل.

وفيها من توجيه الناس إلى الإيمان بعظيم صنع الله وحكمته، ما وصف فيه بعض الموجودات بوصف دقيق بارع.

وأما الرسائل فالغالب عليها أنها توجيهات لولاة المناطق في سلوك السبيل الأمثل للحفاظ على أديان الناس وأعراضهم وتوفير أرزاقهم، بما يلزم على الوالي فعله تجاه رعيته. ومن أهمها وأطولها عهده لمالك الأشتر النخعي.

وكذلك رسائله المتعددة لأعدائه ومن حاربوه. إقامة للحجة عليهم، واستظهارًا بالبرهان.

وننصح القارئ العزيز بالاطلاع على هذا الكتاب بشكل مباشر ليجد نفسه في روضة غناء يتفيأ ظلالها وينتفع بثمارها، ونعتقد أنه سيتحسس أنفاس أمير المؤمنين بين سطور كلماتها.

وللأسف فقد كان الموقف الرسمي لعلماء مدرسة الخلفاء هو التنكر لهذا الكتاب القيم، والخطب البديعة فيه، وذلك راجع إلى ما قاله عليه السلام من مواقف واضحة تجاه مخالفيه من أصحاب رسول الله، وتقييمه الصريح للخلفاء الذين سبقوه، وهو الأمر الذي لا يتحمله هؤلاء العلماء، وأحسن طريقة لديهم هي أن يدّعوا أنه كتاب موضوع بواسطة الشريف الرضي! مع أن أكثر خطبه موجودة في الكتب المختلفة التي سبق تأليفُها ميلاد الشريف الرضي بمئات السنين!

وقد ذكرنا شيئًا من هذا وأجوبته في الفصل الخاص بالحديث عن الخطبة الشقشقية فليرجع إليه.

كتاب عليّ

وثاني تلك النماذج: هو الصحيفة الجامعة، والتي قد تسمى

في الروايات «بكتاب عليّ» وهي كما وصفها الإمام الصادق عليه السلام لأبي بصير عندما أراها له أنها عبارة عن لفائف مكتوبة بإملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبخط عليّ عليه السلام ويبلغ طولها 70 ذراعًا (ما يقارب 35 متر) وعرضها بعرض الأديم، وتحتوي القواعد والأصول التي تمكن الإنسان من الإحاطة بمسائل الحلال والحرام إلى يوم القيامة.

وللأسف فإن هذه الصحيفة «كتاب عليّ» غير موجود بين الناس الآن، وإنما عد من مواريث الإمامة، وهو لدى خاتمهم عليه السلام، لكن ما نقل منه وعنه، في أدوار الأئمة المختلفة لا سيما الإمام الباقر وابنه الصادق يفيد أن فيه ما يغني عن التماس القياسات الباطلة، والآراء السقيمة، ويؤكد معنى ما نقل عن أمير المؤمنين عليه السلام من أنه «علمني رسول الله ألف باب من العلم ينفتح لي من كل باب ألف باب»[1]

وقد تتبعنا في بحث مختصر موضوع كتاب عليّ عليه السلام وما ورد من رواياته في حديثنا عن الإمام الباقر عليه السلام، فليراجع.[2]

(1) الصدوق؛ محمد بن عليّ بن بابويه: الخصال ص 572.

(2) آل سيف؛ فوزي: باقر العلم؛ الإمام محمد بن عليّ بن الحسين 116.

سلوني قبل أن تفقدوني

وثالث تلك النماذج ما كان يصرح به: من أنه عالم بتفاصيل ودقائق أحكام التشريعات في الديانات السماوية السابقة قبل أن تُحرف وتُزيف ولقد أُثر القول عنه «لو ثُنيت لي الوسادة لأفتيت أهل التوراة بتوراتهم وأهل الإنجيل بإنجيلهم»[1] بل لقد أطلق القول، وطلب من سامعيه أن يسألوه مطلقًا، أي في أي شيء سواء كان في الأمور الدينية أو غيرها، فقال: «سلوني قبل أن تفقدوني» من دون أن يحدد ذلك بشيء، وفي روايات سابقة أنه أكمل القول بأن يسألوه عن طرق السماوات، وعن الفئات الهادية والباغية في الأرض، حاضرًا ومستقبلًا، فضلًا عن آيات القرآن متى وأين نزلت وماذا ومن أرادت! بل ما دون العرش!

والغريب أن البعض جعل من هذه الأقوال ـ مع اشتهارها بين الفريقين ـ دليلًا على انتحالها ووضعها على لسانه، ودليله في ذلك أنه لم يؤثر عن باقي الخلفاء والصحابة مثل هذا الكلام!

(1) العجب من بعض أتباع الاتجاه الأموي حين يردون هذا الكلام بالقول إنه ليس فخرًا أن يفتيهم بكتبهم وهي محرفة! أقول: هذا من عمى البصيرة، فإن المعنى المقصود إحاطته بعلوم الكتب السماوية قبل تحريفها وذلك بلا شك مفخرة لا يستطيع غيره ادعاءها، بالإضافة إلى أنه قد خير الله نبيه بأن يحكم بينهم أو يتركهم، وإذا اختار الحكم فليحكم بالقسط وهو واحد سواء في التوراة أو القرآن لما كانت أصول الديانة واحدة. ويؤكد الباري سبحانه على أن تلك الكتب ـ قبل تحريفها ـ فيها هدى ونور راجع آيات سورة المائدة 42و43.

سبحان الله! إنه بدلًا من أن يهتدي إلى أن هذا دليل على تقدم عليّ على من سواه، وفضيلته على غيره ولزوم اتباعه وطاعته بعد رسول الله، وأن من الظلم أن يقرن به غيره، ترى هؤلاء تنكبوا الطريق وردوا الدليل وكسروا المصباح الذي كان يضيء لهم الطريق لولاية الإمام عليه السلام!

أدعية الإمام

ورابع تلك النماذج: أدعية أمير المؤمنين، والتي هي مخازن علم وبحور معرفة وإنارة فكر لمن تأملها وبكى وهذّب النفس بها وارتقى.

وقد جمع الشيخ عبد الله بن صالح بن عبد الله السماهيجي البحراني عددًا من أدعية الإمام عليه السلام بعنوان «الصحيفة العلوية والتحفة المرتضوية» واستدرك عليه المحدث الشيخ حسين النوري الطبرسي فجمع ما لم يجمعه الشيخ السماهيجي من الأدعية مع ذكر مصادرها، وسمى كتابه بالصحيفة العلوية الثانية ويشتمل على 103 من أدعيته عليه السلام.

ومن تلك الأدعية المروية عنه:

1/ دعاء الجوشن الكبير:

وهو مشهور عند العلماء، وقد أفرد له عدد منهم رسائل

خاصة في شرحه وبيانه، حيث أنه بمثابة دورة كاملة في معرفة الله وتوحيده. وذلك أنه يحتوي على مائة فصل من صفات الله سبحانه وأسمائه الحسنى، وفي كل فصل عشر خصال فيكون المجموع في ذلك نحو ألف صفة واسم لله تعالى. ولم نعهد في أي نص من النصوص الدينية (بما فيها الروايات والأدعية الأخرى) وجود ألف صفة واسم في نص واحد منسجم.

وبالرغم من أن البعض قد ذكر أن سند الدعاء ليس بتلك القوة،[1] إلا أنه من مصاديق ما قيل (إن متنه هو سنده).وبحسب المذكور في الوسائل فإن الإمام الحسين عليه السلام ينقل الدعاء عن والده أمير المؤمنين وهو ينقله عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

والكثير من الفقهاء ذكروه[2] في رسائلهم العملية، وأنه يستحب أن يكتب في الكفن.

(1) رواه الحر العاملي في الوسائل في الباب 29 من أبواب التكفين 2 عن السجاد زين العابدين عن أبيه عن جده عن النبي « صلى الله عليه وآله وسلم » قال: نزل جبرئيل على النبي « صلى الله عليه وآله وسلم » في بعض غزواته وعليه جوشن ثقيل آلمه ثقله فقال يا محمد ربك يقرئك السلام ويقول لك اخلع هذا الجوشن واقرأ هذا الدعاء فهو أمان لك ولأمتك، وساق الحديث إلى أن قال: ومن كتبه على كفنه استحى الله أن يعذبه بالنار، وساق الحديث إلى أن قال: قال الحسين عليه السلام: أوصاني أبي عليه السلام بحفظ هذا الدعاء وتعظيمه وأن أكتبه على كفنه...

(2) الخوئي؛ السيد أبو القاسم: صراط النجاة (تعليق الميرزا التبريزي) 7 / 113. اللنكراني؛ الشيخ فاضل: الأحكام الواضحة، ص 71، والسيد روح الله الخميني في تحرير الوسيلة 1/ 76، والروحاني في فقه الصادق 2/ 422.

وحيث أن الدعاء طويل، فلا مجال لذكره هنا، ونرجع من يطلبه إلى كتب الأدعية.

2/ دعاء كميل:

وهو دعاء علمه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أحد خلص أصحابه وهو كميل بن زياد النخعي، وقد ذكره في كتابه شيخ الطائفة الطوسي، ذلك أن كميلًا بن زياد النخعي رأى أمير المؤمنين عليه السلام ساجدًا يدعو بهذا الدعاء في ليلة النصف من شعبان: اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كلّ شيء، وبقوّتك التي قهرت بها كلّ شيء.. «فطلب منه أن يعلمه إياه.[1] ونحن لا نستغرب تسميته بدعاء الخضر وأنه كيف وصل إلى الإمام عليه السلام، فإحاطة علم الإمام بعلوم السابقين من الأنبياء والأوصياء، تجيب عن ذلك.

والناظر في هذا الدعاء والمتأمل فيه يجد من السمو الروحي والارتباط بالخالق ما لا يجده في غيره. وهذا الدعاء ـ بفضل الله ـ أصبح من البرامج الأسبوعية التي يدأب عليها شيعة أمير المؤمنين في كل ليلة جمعة وتصنع تأثيرًا واضحًا في النفوس والسلوك.

(1) الطوسي: مصباح المتهجد: 844 ـ 850 .

3/ دعاء الصباح:

وهو بدوره من الأدعية المروية عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وفيه خزين مهم في طُرق معرفة الله عز وجل وتوحيده، فانظر إلى قوله في الدعاء «يا من دلّ عليه بذاته وتنزه عن مجانسة مخلوقاته وجلّ عن ملائمة كيفياته»، وقس عليها سائر الفقرات. وقد ذكر آية الله العظمى الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء كلاما ينطبق على هذا الدعاء وعلى أمثاله، يصحح به صدوره عن المعصومين عليهم السلام.[1]

4/ المناجاة الشعبانية:

ومما روي عنه عليه السلام في المناجاة، ما عرف بالمناجاة الشعبانية،

(1) كاشف الغطاء؛ الشيخ محمد حسين: الفردوس الأعلى ص 51 «للأئمة سلام الله عليهم أسلوب خاص في الثناء على الله والحمد لله والضراعة له والمسألة منه يعرف ذلك من مارس أحاديثهم وآنس بكلامهم وخاض في بحار أدعيتهم ومن حصلت له تلك الملكة وذلك الأنس لا يشك في أن هذا الدعاء صادر منهم وهو أشبه ما يكون بأدعية الأمير عليه السلام مثل دعاء كميل وغيره فإن لكل إمام لهجة خاصة وأسلوبًا خاصًا على تقاربها وتشابهها جميعًا وهذا الدعاء في أعلى مراتب الفصاحة والبلاغة والمتانة والقوة مع تمام الرغبة والخضوع والاستعارات العجيبة انظر إلى أول فقرة منه (يا من دلع لسان الصباح بنطق تبلجه) واعجب لبلاغتها وبديع استعاراتها.
وإذا اتجهت إلى قوله ـ يا من دل على ذاته بذاته ـ تقطع بأنها من كلماتهم سلام الله عليهم مثل قول زين العابدين عليه السلام بك عرفت وأنت دللتني عليك وبالجملة فما أجود ما قال بعض علمائنا الأعلام إننا كثيرًا ما نصحح الأسانيد بالمتون فلا يضر بهذا الدعاء الجليل ضعف سنده مع قوة متنه فقد دل على ذاته بذاته ـ سبوح لها منها عليها شواهد».

وتبدأ بقوله: «واسمع دُعائي إذا دعوتك واسمع ندائي إذا ناديتك واقبل عليَّ إذا ناجيتك فقد هربت إليك ووقفت بين يديك راجيًا لما لديك ثوابي وتخبر حاجتي وتعلم ضميري ولا يخفى عليك أمر مُنقلبي ومثواي».

الحياة الأسرية
للإمام عليّ عليه السلام

يتناول موضوع حياة الإمام الأسرية ما يرتبط بأسرته من زوجات وأولاد (بنين وبنات) وما يتفرع على ذلك، وبالرغم من الجانب الشخصي للحياة الأسرية للأشخاص، إلا أنه بالنسبة للقدوات بين الناس قد يكون فيه جانب عمومي، وأوضح من ذلك إذا كان الحديث هو عن معصوم من المعصومين.

وذلك لأن بعض تفاصيل تلك تعين على فهم جهات في سيرته العامة وتاريخ حياته، كما أن فيها بعض الجوانب المرتبطة بالعقائد، فمثلا؛ ما يرتبط بزواج الإمام أمير المؤمنين من خولة بنت جعفر (والدة محمد بن الحنفية)، قد حاول فقهاء مدرسة الخلفاء ومتكلموها الاستفادة من إثباته بشكل معين لإضفاء الشرعية على خلافة الخليفة الأول، والاستنتاج من ذلك أن الإمام كان راضيا عن تلك الخلافة بل ورتب الأثر على ذلك من خلال استحلاله أن ينكح ما كان من سبيهم (وهو خولة) ولو لم تكن

تلك الخلافة شرعية عنده لما صح له أن يتملكها وينكحها بذلك. وسيأتي الحديث عن خطأ هذا الاستنتاج بعد قليل.

ونفس الكلام عندما نتحدث عن أبنائه فإننا نجد أن اسم أحدهم كان (عمر) الذي يعرف بالأطرف،[1] فقد حاول البعض من مدرسة الخلفاء للاستفادة من ذلك للإشارة إلى أن هذه التسمية تفيد وجود انسجام بين الإمام وبين جهاز الخلافة وشاهده أنه سمّى أحد أولاده باسم الخليفة الثاني.

فأنت ترى ـ عزيزي القارئ ـ هنا أن الموضوع وإن كان موضوعًا شخصيًا وتفصيليًا في حياته الأسرية وهو تسمية ابنه، إلا أنه يتمَّ ربطه بقضية تاريخية بل عقدية!

ونفس الكلام فيما قيل من وجود ابن آخر له يسمى (أبو بكر)، وإن كان رأي محققين بأنها كنية لأحد أبنائه لا اسم.

وكشاهد ثالث على ارتباط بعض القضايا الأسرية والزوجية، بمسائل التاريخ بل العقيدة؛ ما يذكر في تفاصيل زواج الإمام عليه السلام بأم البنين فاطمة بنت حزام الكلابية، والدة العباس بن عليّ

(1) شكك البعض في كون اسمه عمر، وقال إنه عمرو، ولكن يبدو أن هذا خلاف المشهور، وهو طريق للتخلص من الإشكال، لكن يظهر أن الطريق الذي سلكه المحقق الشهرستاني في كتابه: التسميات بين التسامح العلوي والتوظيف الأموي، هو الأحرى بالقبول..

واخوته، فإنه يذكر هناك أن الإمام عليه السلام، جاء لأخيه عقيل بن أبي طالب وطلب منه أن يخطب له امرأة ولدتها الفحولة من العرب! فخطبها له. فهناك يتساءل البعض كيف يأتي الإمام وهو أعلم الناس بكل الأمور ليسترشد بكلام أخيه عقيل؟ فإن ذلك يلزم منه أن يكون عقيل أعلم منه، على الأقل في هذا الجانب، وهو خلاف المعروف في باب العقائد. ويأتي الجواب عن هذه الأسئلة.

نساء الإمام عليه السلام

زوجاته بالعقد الدائم:

قيل إن زوجاته عليه السلام بالعقد الدائم كن ثمان نساء:

أولاهن: فاطمة بنت رسول اللَّه، وهي أفضلهن بل أفضل نساء العالمين طرًّا، وقد تزوجها عليها السلام في السنة الثانية للهجرة، وكان تزويجه إيّاها سماويًّا بعد أن رد رسول الله كل من تقدم لها قبله، وكان عمرها عشر سنين وعمره نحو خمس وعشرين سنة.

وقد ورد بعض الأحاديث من طريق أهل البيت عن أن النساء كانت محرمة [1] على عليّ عليه السلام في حياة فاطمة، ولذلك لم يتزوج

(1) وقد التزم علماء الامامية بذلك وبمثل ذلك تفند ما افتعله أتباع التيار الأموي من أن عليًّا خطب ابنة أبي جهل أو غيرها، وأنه غاضب فاطمة على أثر ذلك وما ذكروا من القصة المكذوبة الطويلة العريضة التي أساؤوا فيها للنبي ولفاطمة ولعليّ عليه السلام.

أو يتسرَّ عليٌّ عليه السلام بامرأة إلى السنة الحادية عشر، وكل خبر قبل ذلك ينبغي أن لا يلتفت إليه.

وقد ذكرنا بعض الجهات في الفصل الأول ترتبط بزواجهما عليهما السلام، فيحسن الرجوع إليها.

الثانية: أمامة بنت العاص بن أبي الربيع: وأمها زينب بنت[1] رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتكون بنت أخت فاطمة الزهراء، وتشير بعض الأخبار[2] إلى أن زواج الإمام عليّ عليه السلام بها كان بوصية من فاطمة عليها السلام، مراعاة لكون أولاد أمير المؤمنين عليه السلام (الحسنين وزينب وأم كلثوم) صغار السن في تلك الفترة التي استشهدت فيها فاطمة الزهراء، فأكبرهم سنًّا هو الحسن السبط وعمره في ذلك الوقت نحو سبع سنين وأصغرهم سنًّا أم كلثوم وربما يكون عمرها نحو أربع سنوات أو دونها.

(1) هناك كلام بين الباحثين في أن زينب ورقية وأم كلثوم هل هنّ بنات النبي من خديجة أو هن بنات غير النبي ولكن ربتهن خديجة فكنّ ربائب النبي؟ والأول هو الرأي الصحيح في اعتقادنا وقد أشرنا إلى أدلة الطرفين في كتابنا «أعلام من الأسرة النبوية» وقوينا ـ بالأدلة ـ كونهن بنات النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

(2) أُسد الغابة: تزوّجها عليّ بن أبي طالب عليه السلام بعد موت فاطمة عليها السلام، وكانت فاطمة وصّت عليًّا أن يتزوّجها. فلمّا توفّيت فاطمة تزوّجها، زوّجها منه الزبير ابن العوّام؛ لأنّ أباها قد أوصاه بها. فلمّا جُرح عليّ خاف أن يتزوّجها معاوية، فأمر المغيرة بن نوفل بن الحارث ابن عبد المطّلب أن يتزوّجها بعده. فلمّا توفّي عليّ وقضت العدّة تزوّجها المغيرة، فولدت له يحيى، وبه كان يكنّى، فهلكت عند المغيرة.

وبقيت أمامة مع الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إلى حين شهادته. وقد أوصى أن تتزوج المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطّلب وقيل إنها أنجبت له ابنين توفيا صغيرين.

ويفترض أن الإمام عليه السلام قد تزوجها بعد فترة قصيرة من شهادة الزهراء عليها السلام، فإذا كانت قد استشهدت بعد خمسة وسبعين يومًا؛ أي في شهر جمادى الأولى من سنة 11 هجرية، فقد يكون في الشهر الذي بعد ذلك.

الثالثة: هي **خولة بنت جعفر بن قيس الحنفية** (والدة محمد بن الحنفية) ويذكر محمد عادة باسم أمه لتمييزه؛ بسبب تعدد اسم (محمد) في أولاد أمير المؤمنين.

وأكثر مصادر[1] مدرسة الخلفاء تشير إلى أنها كانت من سبي اليمامة وأن الخليفة أبا بكر دفعها إلى الإمام عليّ من نصيبه في المغنم، فنكحها عليّ بذلك وأولدها ابنه محمدًا. ولو صح هذا فإن حجة القائلين بشرعية خلافته عند الإمام عليّ تامة، إذ لا يمكن استحلالها وقبولها كغنيمة إلا بعد كون تلك المعركة والسبي صحيحين.

(1) تهذيب الكمال في أسماء الرجال 26/ 148: «خولة بنت جعفر بن قيس.. وكانت من سبي اليمامة الذين سباهم أَبُو بكر الصديق، وقيل: كانت أمة لبني حنيفة، ولم تكن من أنفسهم» وفي صفة الصفوة 1/ 344 «خولة بنت جعفر بن قيس ويقال بل كانت أَمَةً من سبي اليمامة فصارت إلى عليّ» وهكذا في معرفة الصحابة لأبي نعيم، وتهذيب التهذيب.. وغيرها.

وفي مقابل ذلك فقد نقل شاذان بن جبريل في كتابه الفضائل رواية طويلة عن الإمام الباقر عليه السلام، حاصلها: أن رجلين سألاه: إن كان أمير المؤمنين لم يرض بإمامة من تقدم فما باله نكح خولة الحنفية من سبيهم؟

فطلب من جابر بن عبد الله الأنصاري الإجابة، فأفاد بأنه كان جالسًا لما جاؤوا بسبي بني حنيفة وكان فيهم جارية مراهقة، فسألت عن النبي فأخبروها أنه قبض فسألت عن قبره فأشاروا إليه، فسلمت عليه في قبره وتشهدت بالشهادتين وقالت إننا سبينا من بعدك ونحن نشهد ألّا إله إلا الله وأنك رسول الله! ولما أراد بعض المهاجرين ضمها إليه رفضت وأشارت إلى أنها لا تقبل إلا بمن يخبرها بما قالته أمها وهي حامل بها! وعند ولادتها وإن أُجبرت على من لا تختاره قتلت نفسها! ومع عجز الجميع عن ذلك حيث لا يعلمون الغيب، تقدم أمير المؤمنين عليه السلام وأخبرها بما قالته أمها لها بعد ولادتها وشرح تفصيل ذلك لها. وعند ذلك قالت بأنها زوجت نفسها له. فصارت في نصيب الإمام عليه السلام.[1] وتفيد رواية أخرى بأن الإمام عليه السلام ضمها إلى منزله وأرسل خلف أهلها فجاء إخوة لها،

(1) الفضائل، شاذان بن جبرئيل القمي ص 99.

وخطبها منهم وأمهرها، ونكحها بذلك المهر[1] حيث لم تكن سبية بحق!

يفترض أن هذا الزواج في أيام خلافة الخليفة الأول، أي قبل سنة 13هـ.

الرابعة: أسماء بنت عميس الخثعمية: وهي من اللاتي وصفهن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع باقي أخواتها أنهن من أهل الجنة،[2] وكانت أسماء زوجة لجعفر بن أبي طالب عليه السلام وهاجرت معه مؤمنة من مكة إلى الحبشة وبقيت معه خمس عشرة سنة[3]، أنجبت له فيها أولاده، وعادت معه إلى المدينة المنورة سنة 7 هجرية مع فتح

(1) النمازي الشاهرودي؛ الشيخ عليّ: مستدركات علم رجال الحديث 8/ 569، وإليه أشار الشريف المرتضى. فقال: زوجة أمير المؤمنين صلوات الله عليه. اسمها خولة بنت جعفر بن قيس إنها لم تكن مسبية على الحقيقة ولم يستبحها أمير المؤمنين عليه السلام بالسبي لأنها بالإسلام صارت حرة مالكة أمرها. فأخرجها من يد من استرقها، ثم عقد عليها عقد النكاح.

(2) الصدوق؛ محمد بن عليّ بن بابويه: الخصال 1/ 363 عن أبي بصير، عن أبي جعفر عليه السلام قال: سمعته يقول: رحم الله الأخوات من أهل الجنة فسماهن: أسماء بنت عميس الخثعمية وكانت تحت جعفر بن أبي طالب عليه السلام، وسلمى بنت عميس الخثعمية وكانت تحت حمزة، وخمس من بني هلال: ميمونة بنت الحارث كانت تحت النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأم الفضل عند العباس اسمها هند، والغميصاء أم خالد بن الوليد، وعزة كانت في ثقيف الحجاج بن غلاظ، وحميدة ولم يكن لها عقب.
بعض هذه الأخوات من الأب والأم وبعضهن من الأم فقط.

(3) قد ذكرنا شيئًا من أحوالها بمناسبة الحديث عن شخصية جعفر بن أبي طالب (الطيار) في كتابنا: أعلام من الأسرة النبوية.

خيبر، ومع شهادته في معركة مؤتة سنة 8 هجرية، تزوجها أبو بكر بن أبي قحافة، وأنجبت منه ابنه محمدًا، ثم مع موت أبي بكر في سنة 13 هجرية، تزوجها أمير المؤمنين عليه السلام، وبقيت معه إلى سنة 38هـ حيث توفيت قبل شهادته بسنتين كما تقرر ذلك بعض الروايات التاريخية، وكان عمرها في هذا الوقت قريبًا من 58 سنة.

وأنجبت للإمام عليه السلام عدة أولاد، والطريف أن أولادها: عبد الله بن جعفر واخوته، ومحمد بن أبي بكر، وعون بن عليّ بن أبي طالب، إخوة من الأم وآباؤهم متعددون. وباعتبار عيشهم في بيئة واحدة لا نستغرب أن يكون عبد الله بن جعفر شديد الالتصاق والتأثر بالحسنين عليهما السلام ويكون بمثابة يمينهما، وأن يكون «محمد بن أبي بكر ابني من صلب أبي بكر» كما نقل عن أمير المؤمنين عليه السلام.

«وهي التي مرّضت الزهراء عليها السلام ووصت إليها بوصاياها، ومما قالته لها: ألا ترين إلى ما بلغت فلا تحمليني على سرير ظاهر.

فقالت أسماء: لا لعمري ولكن أصنع نعشًا كما رأيت يصنع بالحبشة. قالت: فأرينيه.

فأرسلت إلى جرائد رطبة فقطعت من الأسواق ثم جعلت على السرير نعشًا وهو أول ما كان النعش فتبسمت فاطمة. ووصتها أن

لا يغسلها إذا ماتت إلا هي وعليّ فأعانت عليًّا على غسلها. ولما توفيت فاطمة جاءت عائشة لتدخل فمنعتها أسماء، فشكتها إلى أبي بكر، فقالت لأبي بكر: إنها أمرتني أن لا يدخل عليها أحد».[1]

الخامسة: أم البنين؛ فاطمة بنت حزام الكلابية وهي أم العباس وإخوته، وقد كتبنا في رجال كربلاء ونسائها[2] شيئًا حول أم البنين أورد هنا خلاصته:

فهناك رَأيَان حول تاريخ ولادتها؛ **الأوَّل**: أنها وُلِدَت قَبْلَ الهجرة بخَمْسِ سَنَوات وهو ما يَتَبَنَّاه الْمُحَقِّق الشَّيخ الكرباسي في كتابه (معجم أنصار الحسين)، وذهب إلى أنَّها تزوجت أمير المؤمنين عليه السلام بعد شهادة سيدتنا الزَّهراء عليها السلام في السَّنة الثانيةَ عشرة للهجرة، وعلى حسب ذلك فإنَّه يُفترض أن يكون عمرها عند زواجها بأمير المؤمنين عليه السلام في حدود السَّابعة عشر عامًا.

والرَّأي الثَّاني: أنها وُلِدَت بَعْدَ الهجرة بخَمْسِ سَنَوات: وهو الذي أشار له الْمُحَقِّق السُّوَيْج في كتابه (أمُّ البنين سيّدَةُ نساء العرب)، وعلى هذا تكون مُقَارِبةً لعُمُر العقيلة زينب عليها السلام وذهب إلى أنَّها تَزَوَّجتْ أمير المؤمنين عليه السلام في عام 25 أو 26 للهجرة.

(1) الكرباسي: معجم أنصار الحسين عليه السلام (الهاشميون) 1/ 150.

(2) لم يطبع بعد.

وعلى التقديرين فقد عاشت معه حتَّى شَهَادته وبقيت إلى شهادة الإمام الحسين عليه السلام، وتوفّيت بعد شهادته.

ويبعّد الرأي الأول أنه لو كانت قد تزوجها الإمام سنة 12 هجرية، وكانت ولادة ابنها أبي الفضل العبَّاس عليه السلام وهو كبير أبنائها في سنة 27 هجرية كما هو المشهور فمعنى ذلك أنها بقيت خمسة عشر عامًا بلا إنجاب، وهذا أمرٌ غيرُ معتاد؛ خاصة وأن غرض الزَّواج من أجل تحصيل الأولاد المدافعين عن الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء بحسب قول أمير المؤمنين عليه السلام: «لتلد لي غلامًا يكون ناصرًا لولدي الحسين في كربلاء».

وهذا بخلاف الرَّأي الثاني: ولادتها بعد الهجرة بخمس سنوات وتَزَوَّجها أمير المؤمنين عليه السلام في السَّنة الخامسة والعشرين أو السَّادسة والعشرين للهجرة، يعني أنَّها أنجبت أبا الفضل العبَّاس بعد عام أو عامين من زواجها وهذا لا يحتاج إلى تكلُّفٍ في التَّفسير لأنَّه أمر طبيعيّ.

اختر لي امرأة ولدتها الفحولة

هناك رأي شائع يُنقل غالبًا من أحد النَّسَّابة وهو السيد ابْنُ عِنبَة الحسنيّ الدَّاوودي في كتابه (عمدة الطَّالب في أنساب آل أبي طالب)، يَنْقُلُ فيه أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام طلب من أخيه

عقيل أن يخطب له امرأة ولدتها الفحولة من العرب وهذا أوَّل نص تلقَّاه أكثر العلماء بالقبول، حيث يقول: «وَقَدْ رُوِيَ أنَّ أمير المؤمنين عليًّا عليه السلام قال لأخيه عقيل ـ وكان نسَّابة عالِمًا بأنساب العرب وأخبارهم ـ: اُنْظُر إلى امرأةٍ قَدْ ولدتها الفحولة من العرب لأتزوَّجَها فتلد لي غلامًا فارسًا، فقال له: تَزَوَّج أمَّ البنين الكلابيَّة؛ فإنَّه ليس في العرب أشجع من آبائها، فَتَزَوَّجَها».

وهناك نصٌّ آخر أيضًا يُنقل ـ لو تمَّ ـ[1] في قضية كربلاء بأنَّ زهير بن القين حدَّث أبا الفضل العبَّاس بحديث عقيل وأمير المؤمنين عليه السلام، حيث يُنقل» أتى زهيرُ بنُ القين إلى عبد الله بن جعفر بن عقيل قبل أن يُقتل، فقال له: يا أخي ناولني الرَّاية.

فقال له عبد الله: أَوَفِيَّ قصور عن حملها؟!، قال: لا، ولكن لي بها حاجة، قال:

فدفعها إليه، وأخذها زهير وأتى فجأة العبَّاس بن عليّ عليه السلام وقال: يا بن أمير المؤمنين، أريد أن أحدِّثك بحديث وعيتُه، فقال: حَدِّث، فقد حَلا وقتُ الحديث، فقال له: اعلم يا أبا الفضل، إنَّ أباك أمير المؤمنين عليه السلام، لما أراد أن يتزوَّج بأمِّك أمّ البنين، فبعث إلى أخيه

(1) نقله الريشهري في موسوعة الإمام الحسين عليه السلام في الكتاب والسُّنَّة والتاريخ 4/ 327 عن كتاب أسرار الشهادات للدربندي.

عقيل، وكان عارفًا بأنساب العرب، فقال عليه السلام: يا أخي، أريد منك أن تخطب لي امرأةً من ذوي البيوت والحسب والنَّسب والشَّجاعة، لكي أصيبَ منها ولدًا يكون شجاعًا وعَضُدًا ينصر ولدي هذا، وأشار إلى الحسين عليه السلام ليواسيه في طفّ كربلاء، وقد ادَّخرك أبوك لمثل هذا اليوم، فلا تقصِّر عن حلائل أخيك وعن إخوانك؟!قال: فارتعد العبَّاس وتمطَّى في ركابه حتَّى قطعه، قال: يا زهير، تشجّعني في مثل هذا اليوم؟ والله لأُرينَّك شيئًا ما رأيتَه قط».

وهنا يأتي سؤالٌ: كيف يمكن لأمير المؤمنين وهو أعلم النَّاس بعد رسول الله وباب مدينة العلم أن يذهب ويسأل أخاه عقيلًا؟ فهل عقيل أعلم منه في هذا الجانب؟

والجواب على ذلك من عدَّة وجوه:

الوجه الأوَّل: إرشاد النَّاس للرُّجوع إلى المتخصّص:

الإمام عليٌّ عليه السلام حين سأل أخاه عقيلًا أراد أنْ يُرشد النَّاس إلى قاعدة عامَّة وهي الرّجوع إلى أَهْل الخِبْرَة في فَنّهم[1] فالإمام المعصوم ـ كما نعتقدُ نحن الشيعة الإِماميَّة ـ أعلمُ أهل زمانه في

(1) وقد أشار إلى الوجهين الأول والثالث: المرحوم السيد جعفر مرتضى العاملي في كتابه الصحيح من سيرة الإمام عليّ عليه السلام.

جميع العلوم، ولكنَّه يريد إرشاد النَّاس للرجوع إلى الخبير في فنّه، ولهذا حين جرُح أمير المؤمنين وبات ليلة إحدى وعشرين وقد سرى السمُّ في بدنه، طلب أن يُؤتى له بـ (أثير بن عمرو السَّكوني) وهو أبرز الأطباء الجرّاحين في زمانه، هذا لا يعني أنَّ أثيرًا أعلمُ من أمير المؤمنين، بل أمير المؤمنين أعلم منه، ولكنَّه أراد أن يُعَلِّمَ النَّاسَ فكرة الرّجوع إلى المتخصّص، إضافة على ذلك أميرُ المؤمنين أراد أن يُخبرنا بإمضاء الشَّارع أمر الرّجوع إلى المتخصّص في كُلِّ فنّ، ففي مجال الطّب يُرجع للطّبيب، وفي مجال الهندسة يُرجع للمهندس، وفي مجال النَّسب يُرجع للنَّسَّابة كعقيل بن أبي طالب الَّذي كان من الخُبراء في علم الأنساب.

الوجه الثَّاني: تعليم النَّاس مبدأ المشاورة:

الإمام عليٌّ عليه السلام حين سأل أخاه عقيلًا أراد أن يُؤسّسَ لهذا المبدأ (مبدأ المشاورة)، وهو أنَّ الإنسان إذا أراد أن يُقْدِمَ على أمرٍ من أمور حياته عليه أن يستشير مَنْ حوله، وأن يستمع إلى غيره حتَّى يزن الآراء والأقوال ويُرْشَد إلى الصَّواب كما جاء في الحديث النَّبَويّ: «ما تَشَاوَرَ قَوْمٌ إلا هُدُوا لأَرْشَدِ أَمْرِهِم»، وأيضًا في القرآن الكريم: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾[1]،

(1) الزمر: 18.

فقد كان عقيلٌ أعلم قريش بأنساب العرب وبمثالب قريش ولهذا تعرّض إلى حملة مضادة من قبل القرشيين لتشويه سمعته ومواقفه وهناك الكثير من الرّوايات التّاريخية الّتي تشوّه سمعته والّتي لا أصل لها وإنَّما وُضِعَت مناكفة له.

الوجه الثَّالث: الإِخْبَار عن قضيَّة كربلاء:

من الطّرق الّتي انتهجها أهل البيت عليهم السلام لإبراز مظلوميّة الحسين هو الإخبار عنها قبل وقوعها بعشرات السّنين، وهذا ما أراده أمير المؤمنين عليه السلام، فلو أنَّ عليًّا خطب أمّ البنين وتزوّجها مباشرة، ما كان يتمّ الحديث عن مظلوميّة الحسين عليه السلام قبل مقتله، وما يجري في كربلاء قبل وقوعها، ولكنّه بهذا الطّريق أخبر عن قضية كربلاء وما يجري فيها منذ عام 25 أو 26 للهجرة، حين أقدم على خطبة هذه المرأة.

الوجه الرّابع: إظهار فضل أم البنين عليها السلام:

ومن الأسباب الّتي دعت أمير المؤمنين لسؤال أخيه عقيل هو أنّه أراد أن يبيّن للنّاس فضل هذه المرأة الّتي ستنتخب إليه هذه الأقمار، وهذا كقول الله عز وجلّ: (وَمَا تِلْكَ بِيَمِيْنِكَ يَا مُوسَى)، فالله يعلم ما بيد نبيّنا موسى ولكنّه أراد أن يتحدّث موسى عنها حتّى تكون المعجزة واضحة لمن يستمع ويقرأ، إضافة على ذلك أراد أن يُخبر بدورها ودور أولادها.

السادسة: محياة بنت امرئ القيس الكلبية: ووالدها امرؤ القيس ممن دخل الإسلام مع من دخلوا من بني قومه عام 10هـ وكان قد وفد من قبلهم جماعة إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فأسلموا ورجعوا إليهم ونشروا الإسلام(2)، ولما كانت أحداث عام 11هـ عندما تولى أبو بكر الأمر ورفضت بعض القبائل مبايعته فأرسل الجيوش لمقاتلتهم. وسموها بحروب الردة، وفي هذه الأحداث انقسم بنو كلب إلى طائفتين طائفة عارضت وطائفة رضيت بالأمر الواقع.. ومضت الأيام والليالي فقصد امرؤ القيس المدينة وبصحبته ثلاثة من بناته المحياة وسلمى والرباب وذلك أيام عمر بن الخطاب (13 ـ 23هـ) ودخل على عمر بن الخطاب فسأله عمر من أنت؟

قال: أنا امرؤ القيس بن عدي الكلبي.

فلم يعرفه عمر، فقال لعمر رجل من القوم، هذا صاحب بكر بن وائل الذي أغار عليهم يوم فلج.

وكان يريد البيعة لعمر بن الخطاب بعد تلك الأحداث، فبايعه وعرض عليه عقيدته، فنصبه عمر أميرًا على قضاعة. ثم إنه التقى بعليّ بن أبي طالب عليه السلام فما أمسى ذلك اليوم إلا وخطبت بناته الثلاث لآل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فخطبت المحياة لأمير المؤمنين عليه السلام.[1]

(1) الكرباسي؛ مصدر سابق 160

وقد احتمل المحقق الكرباسي أن يكون وقت زواج أمير المؤمنين بها في سنة 19هـ. وأن وفاتها كما جاء في جدول الكتاب سنة 20هـ. ولم أجد معلومات عنها غير ما ذكر في بعض الكتب أنها أنجبت جارية ماتت وهي صغيرة.

السابعة: ليلى بنت مسعود النهشلية: وقد تزوجها أمير المؤمنين عليه السلام حين قدم إلى البصرة سنة 36 هجرية، وقد أقام أمير المؤمنين عليه السلام اثنين وسبعين يوما ثم رجع إلى الكوفة، وقد أنجبت له ولدين استشهدا في كربلاء مع الإمام الحسين عليه السلام.

الثامنة: أم شعيب المخزومية، فولدت له أم الحسن ورملة.. هكذا ذكر في أحوالها.

وكان له من النساء بملك اليمين نحو (17) أو (19) امرأة، وقد تتبع اسماءهن وأحوالهن المحقق الكرباسي في كتابه أنصار الحسين (الهاشميون) بمناسبة الحديث عن الشهداء من أبناء أمير المؤمنين عليه السلام، فليرجع إليه من أحب التفصيل في هذا الجانب.

ملاحظتان

الأولى: ربما يتساءل القارئ أو القارئة عن العدد الكبير لزوجات أمير المؤمنين عليه السلام وما هو مبررها؟

والجواب على ذلك: أنه عليه السلام كسائر المسلمين لا يحق له أن يجمع أكثر من أربع نساء بالعقد الدائم في وقت واحد، ولكن له أن ينكح بملك اليمين ما يشاء من العدد.

فالتحديد بـ ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾[1] لكل المسلمين ومنهم الإمام عليه السلام بينما لم يحدد بعدد في ملك اليمين. نشير فيه إلى أن الزواج كمسألة اجتماعية تتأثر بالوضع الاجتماعي وبالثقافة السائدة تبعًا للظروف المعاشة، فقد يكون الزواج باثنتين ضمن ظروف اجتماعية معينة يعتبر شيئًا كثيرًا، بينما الزواج بعشر في بيئات أخر أو جغرافية مختلفة تعتبر شيئًا عاديًّا. بل ربما كان في بعض الظروف والبيئات ضروريًّا ويشكل نوعًا من التأمين المعاشي والاجتماعي لبعض النساء.

ونحن نعيش في هذه الأزمنة وضمن الثقافة السائدة قد يستكثر وجود زوجتين فضلًا عن الثلاث في عصمة رجل واحد، بينما لم يكن هذا في الزمان السابق على الإسلام في البيئة العربية، بل كان التعدد الكثير هو السائد والمعتاد، وينبغي تقييم العدد (كثرة وقلة) ضمن الظروف الاجتماعية السائدة في زمن الحادثة.

(1) النساء: 3.

وقد جاء الإسلام فجعل حدًّا أعلى لعدد النساء اللاتي يستطيع الرجل أن يتزوجهن في وقت واحد وهو أربع نساء (باستثناء النبي صلى الله عليه وآله وسلم) كما سيأتي الحديث عنه.

هذا بالنسبة إلى النكاح بالعقد الدائم، وأما النكاح بملك اليمين فحيث أن غرضه كان القضاء على ظاهر الرقيق والجواري بالتدريج وخارج الفرض السلطوي، فكان أحد الطرق هو هذا النحو من النكاح، فقد كان قسم ممن يمتلكون الجواري يعتقوهن ثم يتزوجوهن بالعقد الدائم، كما أن من لم تعتق بهذه الطريقة لو أنجبت لزوجها ابناً أو بنتًا ثم توفي عنها زوجها فإنها تصبح حرة بعد ذلك وتخرج من الرق إلى الحرية وهي التي يطلق عليها عنوان (أم ولد).

إذن: نحن نعتقد أن هذا العدد من النساء بالعقد الدائم والذي لم يكن يتجاوز الأربع (مجتمعات) فإذا توفيت احداهن تزوج رابعة، بحسب الأجواء والظروف الاجتماعية السائدة آنئذ لم يكن كبيرا، بل كان أكثر الرجال يتزوجون بهذه الطريقة وهي ممضاة شرعا. خاصة أن الزواج في تلك الأزمان كان شبيها بالضمان الاجتماعي للكثير من النساء.

وكذلك الحال في النكاح بملك اليمين حيث أنه كان طريقا لتحرير المرأة الجارية من الرق، فلم يكن له حد في العدد.

والثانية: أن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وإن كان نفس رسول الله بمقتضى آية المباهلة، إلا أن النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، كان له خصائص مشهورة بين المسلمين ومنصوصة، ومنها جواز أن ينكح ما يزيد على الأربع إلى تسع نساء، وأنه يجوز له أن يتزوج من وهبت نفسها له،[1] من غير أن يمهرها. بل وكذا فإنه لا يجوز لنساء النبي أن يتزوجن بعده أبدًا[2] وفي هذه الأحكام يتميز النبي صلى الله عليه وآله وسلم، دون سائر الخلق بمن فيهم الأئمة المعصومون، فإنه لا يسوغ لهم ما ذكر.

ولأجل ما ذكر من أن عليًّا عليه السلام لا يسوغ له أن يجمع بين أكثر من أربع نساء بالعقد الدائم، فقد حصل اختلاف في ترتيب زوجاته، وفي أيهن اجتمعن مع بعض، وأيهن توفين قبله وأيهن بقين معه إلى حين شهادته، والمهم أنه لا يمكن أن تجتمع عنده أكثر من أربع دائميات.

من أولاد أمير المؤمنين

وأما أولاده: فقد اختلف المؤرخون في عددهم بنفس القدر الذي اختلفوا فيه في أسمائهم، وفي عدد الذكور والإناث، وفي

(1) الأحزاب: 50 ﴿وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ﴾.
(2) الأحزاب: 53 ﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًا﴾.

أمهات هؤلاء الأولاد، ولعل القول الوسط هو ما ذكره الشيخ المفيد رحمه الله أنهم (27) ولدًا، بين ذكر وأنثى.

وأفضلهم:

1/ أبو محمد الحسن السبط عليه السلام، وقد تحدثنا عن سيرته وشؤونه في كتابنا: «سيد الجنة» في هذه السلسلة.

2/ وأبو عبد الله الحسين الشهيد عليه السلام، وأحواله أظهر من أن تخفى على المؤمنين، وقد تعرضنا لسيرته وشهادته في كتابنا: أنا الحسين بن عليّ، أيضًا في هذه السلسلة.

3/ ومنهم العقيلة زينب بنت عليّ عليها السلام، ودورها سواء أيام ابيها أو في كربلاء دور مهم، يحتاج إلى تخصيص كتاب حوله، وقد كتبنا شيئًا من سيرتها في كتابنا عن أبطال كربلاء من النساء والرجال، نسأل الله أن يوفق لطباعته.

4/ ودونها في الفضل أختها أم كلثوم (أو زينب الصغرى) وقد كانت معها في كربلاء وأسرت كما أختها الكبرى، ولها خطبة في الكوفة.

5/ المحسن وهو شهيد الهجوم على دار الزهراء عليها السلام، بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فهؤلاء الخمسة هم أولاد عليّ من فاطمة

الزهراء عليها السلام، وبالحسنين امتد نسل رسول الله وبقي، على رغم أنف العاص بن وائل، الذي زعم بأن النبي سينقطع نسله، فكان هو الأبتر، وكان في الحسنين للرسول الكوثر.

6/ ومنهم أبو الفضل العباس بن عليّ (26 ـ 61هـ)، وأمه أم البنين، وقد ذكرنا شيئًا عن سيرته وخصاله في كتابنا عن أبطال كربلاء من النساء والرجال، فليرجع إليه.

7 ـ 9/ وكذلك الحديث عن إخوته الثلاثة لأمه؛ عبد الله وعثمان وجعفر، وهم شهداء كربلاء مع أخيهم الإمام الحسين عليه السلام.

10/ ومنهم محمد بن عليّ المعروف بابن الحنفية (16 ـ 81هـ) وقد كان معروفًا بالقوة والشجاعة، ويسمّى أحيانًا بمحمد الأكبر وقد شارك إلى جانب إخوته في معركتي الجمل وصفّين وكان يحمل راية أبيه في معركة الجمل. وله مواقف محمودة فيها. وكان يأتم بأخويه بعد أبيه لكنه لم يشهد كربلاء وقيل إن أخاه الإمام الحسين قد خلفّه في المدينة ليقوم ببعض المهمات، كما قيل إنه كان غير قادر على القتال، وقد تعرضنا لهذه الجهة في كتابنا قضايا النهضة الحسينية.

كان من الشخصيات البارزة في أثناء حركة المختار الثقفي وكان

الواجهة الهاشمية في تأييده، لعزوف الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام عن ذلك، وتوجد بعض الروايات تشير إلى أنه ادعى الإمامة بعد أخيه الحسين، وأنه أخبر الإمام السجّاد بذلك، لكن على أثر تحاكمهما إلى الكعبة وشهادة الحجر الأسود بإمامة السجاد كما تقول تلك الروايات، تراجع عن ذلك الادّعاء. بينما نفى بعض العلماء جدية ادعائه الإمامة ورأى أن ذلك من أجل أن يظهر لمن يعتقد بإمامته أن الإمام الحق هو ابن أخيه عليّ بن الحسين عليه السلام.

11/ ومنهم عمر بن عليّ (المعروف بالأطرف) وأمه الصهباء التغلبية، وحضور اسمه واضح في مصادر مدرسة الخلفاء، وذلك لما يرتبونه على هذا الاسم من آثار تاريخية بل عقدية،[1] وهكذا الحال في المسمى بأبي بكر، ومع أننا أشرنا إلى هذا الموضوع عند الحديث عن عمر الأشرف بن الإمام عليّ بن الحسين السجاد، وأشرنا إلى البحث القيم الذي كتبه المحقق الشهرستاني في كتابه: التسميات بين التسامح العلوي والتوظيف الأموي. إلا أننا نشير هنا إلى جهة أخرى أيضًا. وهي أنهم يرتبون استدلالًا بهذا النحو:

(1) ومن ذلك ما نقل في فتاوى الشبكة الإسلامية 8/ 352 بترقيم الشاملة آليًّا؛ «ونؤكد على ملاحظة مهمة وهي أن عليًّا رضي الله عنه وأرضاه سمى كثيرًا من أولاده بأسماء الصحابة أبي بكر وعمر وعثمان، وهذا يدل على حبه لهم وعظيم منزلتهم عنده بخلاف ما يروج له أهل البدع».

لقد سمى أهل البيت أبناءهم بأسماء الخلفاء الثلاثة، والتسمية دليل على المحبة والانسجام، فإذن كان أهل البيت منسجمون ومحبون للخلفاء ومعترفون بخلافتهم!

وقد سلك الباحثون من الشيعة طرقا متعددة لتخطئة النتيجة؛ فبعضهم: رأى عدم الاعتراف بالتسمية، مثلما قال بعضهم ـ واعتمد في ذلك مصادر ـ أن الأسماء المنقولة عن أبناء أهل البيت مصحفة، فعمر هنا هو تصحيف عمْرو، وقد كان جد بني هاشم يسمى بعمرو العلى! فإذن لا تسمية! وأبو بكر في الابن الآخر ليس اسمًا وإنما هو كنية، والاسم غير هذا.

والبعض الآخر؛ قال إن هذه التسميات ليست جدية؛ وإنما فرضتها ظروف خاصة، منها التقية ومنها غير ذلك. فإذن لا دلالة فيها.

ومنهم من نفى الارتباط بين التسمية والانسجام والقبول بشرعية الخلفاء، فلا ارتباط بين الأمرين، إذ ليست هذه الأسماء ملكًا للخلفاء بحيث لا يستطيع أحد الاستفادة منها إلا بإذنهم وبشرط أن يكون محبًّا لهم، وإنما هي كسائر الأسماء الأخر لها أغراض مختلفة وغايات متعددة. وما لم يصرح الإنسان المسمي بأنني سميته بهذا الاسم لهذا الغرض المحدد لا يمكن ادعاء ذلك!

وأظن أن الطريق الثالث هو أفضلها.

وأعتقد بالإضافة إلى ما سبق بأن هذا النحو من الاستدلال الذي يمارسه بعض علماء مدرسة الخلفاء هو من نمط الاستدلالات السطحية التي تتم بها مغالطة الأذهان البسيطة، ولذلك فإن قبولها في هذه الأوساط سريع، ولكن دقيق النظر يمكن له أن يقول: ما هي الملازمة بين الأمرين؟ فهل هي ملازمة عقلية أو لفظية أو عادية؟ أو لا ملازمة أصلًا؟

وهذا يذكرني ببعض ما قيل في شأن عمر الأطرف بن عليّ نفسه، باعتبار أن موقفه في نصرة أخيه الحسين في كربلاء كان سلبيًّا، بل لم تكن سيرته إجمالًا موضع ثناء عند الهاشميين، فقال بعضهم: إن ذلك بسبب اسمه! فهنا أيضًا يقال له: وأي ملازمة ضرورية بين الأمرين؛ سوء السيرة والتسمية باسم معين؟

12 ـ 14/ ومنهم شهداء كربلاء؛ أبو بكر وعبيد الله ومحمّد الأصغر. وباقي أولاده الذكور لا توجد معلومات مهمة حولهم.

كلمة شكر

تطول قائمة الشكر للإخوة والأخوات ممن شارك في هذا الكتاب أسأل الله أن يتفضل عليهم جميعًا بطَوْله وأجره، وذلك أنني ألقيت محاضرات عن أمير المؤمنين عليه السلام، خلال ما يزيد عن خمس وثلاثين سنة، في ليالي شهادته في شهر رمضان (3 ليال) وفي مناسبات كثيرة في سائر السنة، فكان أن قامت هذه الثلة الطيبة من الإخوة والأخوات بتدوين ما تمَّ إلقاؤه، وبذلك حفظت المادة الأصلية لهذا الكتاب، الأمر الذي سهل عليَّ تحريرها من جديد، فشكر الله للجميع سعيهم وأنالهم ـ وإياي والقراء الكرام ـ شفاعة أمير المؤمنين.

سأبدأ بشكر الأخوات الفاضلات لكثرتهن وحماسهن في المبادرة؛ أم سيد رضا، وزهراء محمد، وعلا نور، وليلى الشافعي، وياسمين السيهاتي، وأم حسين آل نور، وأفراح البراهيم، وزهراء اليوسف، ومعصومة الخضراوي ورباب آل محيسن، وزهرة المسكين، وزهراء الضامن، وزينب المعراج، وفاطمة الخويلدي،

ومها السيهاتي، وأصيلة الحسينية، وانتصار الرشيد، ورقية الطويل، وزهراء الحجاج، وغدير الغزيوي.

كما أشكر الإخوة الفضلاء؛ د. نبيل الخنيزي، وعبد الله العسكري، وعبد الله السلطان، وأمجد الشاخوري، وكمال الدوخي، ورياض العطية، ومحمد عاشور.

ربما نسي بعض من ذكرت أسماءهم، لا سيما مع بعد المدة الزمنية، مساهمتهم في الخير لكن عمل الخير محفوظ عند الله سبحانه، وباق في الأرض بما ينفع الناس.

شكر الله سعيكن وسعيكم جميعًا.

المصادر

- ابن أعثم الكوفي؛ أحمد: الفتوح، تحقيق: عليّ شيري، دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع1411 .
- ابن أبي الحديد؛ شرح نهج البلاغة، دار إحياء الكتب العربية ـ عيسى البابي الحلبي وشركاه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم 1378.
- الإربلي؛ عليّ بن أبي الفتح كشف الغمة في معرفة الأئمة، دار الأضواء ـ بيروت 1405 ـ 1985 م.
- الأزري؛ التميمي كاظم: الأزرية، دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع، 1409.
- ابن أبي شيبة العبسي؛ عبد الله بن محمد: المصنف، ت سعدبن ناصر الشثري، دار كنوز إشبيليا، الرياض، 1436 .
- الأصفهاني؛ أبو الفرج: الأغاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ابن أبي عاصم الشيباني؛ أحمد بن عمرو: كتاب السنة (ومعه ظلال الجنة في تخريج السنة بقلم: محمد ناصر الدين الألباني)، المكتب الإسلامي، 1400هـ.

- ابن عبد البر، يوسف النمري القرطبي: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ت عليّ محمد، دار الجيل، بيروت1412.
- ابن كثير الدمشقي إسماعيل بن عمر: البداية والنهاية، تحقيق عليّ شيري، دار إحياء التراث العربي 1408.
- الألباني؛ محمد ناصر الدين: سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، 1415هـ ـ 1995 م.
- الأمين؛ السيد محسن: أعيان الشيعة، تحقيق حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات ـ بيروت .
- الأميني، عبد الحسين: الغدير في الكتاب والسنة والأدب، دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ 1397.
- الأندلسي، ابن عبد ربه: العقد الفريد، دار الكتب العلمية ـ بيروت 1404هـ.
- البخاري؛ محمد بن إسماعيل: التاريخ الأوسط، ت: محمود إبراهيم زايد، دار الوعي ، مكتبة دار التراث ـ حلب 1397.
- البخاري؛ محمد بن إسماعيل بن إبراهيم: صحيح البخاري، الطبعة السلطانية، بالمطبعة الكبرى الأميرية، ببولاق مصر، 1311هـ.
- البروجردي؛ السيد حسين الطباطبائي؛ جامع أحاديث الشيعة، المطبعة العلمية ـ قم 1399 هـ .

- البَلَاذُري؛ أحمد بن يحيى: جمل من أنساب الأشراف، تحقيق: سهيل زكار ورياض الزركلي، الناشر: دار الفكر ـ بيروت 1417هـ ـ 1996 م.
- البُستي؛ محمد بن حبان: صحيح ابن حبان، ت محمد عليّ سونمز، دار ابن حزم ـ بيروت 1433 .
- البغدادي ابن سعد؛ محمد بن سعد بن منيع: الطبقات الكبير، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ـ بيروت 1410هـ .
- البلاذري؛ أحمد بن يحيى: جمل من أنساب الأشراف، تحقيق: سهيل زكار ورياض الزركلي، دار الفكر ـ بيروت 1417هـ.
- التستري، الشيخ محمد تقي: بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة، تحقيق: مؤسسة نهج البلاغة، الناشر: دار امير كبير للنشر 1418 هـ ـ 1997 م.
- التستري؛ الشيخ محمد تقي: قاموس الرجال، تحقيق ونشر: مؤسسة النشر الإسلامي1410.
- ابن تيمية؛ أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام: منهاج السنة النبوية، تحقيق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1406هـ ـ 1986 م.
- الثقفي؛ إبراهيم بن محمد: الغارات، تحقيق السيد جلال الدين الحسيني الأرموي المحدث، مطبعة بهمن.

- الجزري؛ ابن الأثير عليّ بن محمد، أسد الغابة، دار الفكر ـ بيروت 1409هـ .
- الجوزي؛ سبط بن: تذكرة الخواص، منشورات الشريف الرضي ـ قم 1418 .
- الحر العاملي؛ محمد بن الحسن: وسائل الشيعة، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث قم 1414.
- الحرّ العاملي؛ محمد بن الحسن: إثبات الهداة بالنّصوص والمعجزات، خرّج أحاديثه: علاء الدّين الأعلمي.مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ـ لبنان.
- الحسيني الخطيب؛ السيد عبد الزهراء: مصادر نهج البلاغة وأسانيده، دار الزهراء بيروت 1409.
- ابن حنبل؛ أحمد بن محمد: فضائل الصحابة، تحقيق وصي الله محمد عباس، مؤسسة الرسالة ـ بيروت 1403 ـ 1983.
- ابن حنبل؛ أحمد بن محمد: مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة.
- الخطيب البغدادي، أحمد بن عليّ، تاريخ بغداد، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت .
- الدَّيلَمي؛ أبو شجاع شيرويه بن شهردار: الفردوس بمأثور الخطاب، تحقيق: السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية ـ بيروت 1406هـ ـ 1986م .

- الدينوري ابن قتيبة أبو حنيفة أحمد، الأخبار الطوال، تحقيق: عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتب العربي -- عيسى البابي الحلبي وشركاه القاهرة 1960.
- الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز: سير أعلام النبلاء، تحقيق الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة 1405هـ / 1985.
- الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز: ميزان الاعتدال في نقد الرجال، ت عليّ محمد البجاوي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، 1382هـ - 1963 م.
- الزَّبيدي: محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، تاج العروس، دار الهداية..
- السبحاني؛ الشيخ جعفر: بحوث في الملل والنحل، مؤسسة النشر الإسلامي - مؤسسة الإمام الصادق ع - قم.
- آل سيف؛ فوزي: أعلام من الأسرة النبوية، دار المحجة البيضاء بيروت.
- آل سيف؛ فوزي: من قضايا النهضة الحسينية، دار أطياف للطباعة والنشر، القطيف .
- آل سيف؛ فوزي: نساء حول أهل البيت، دار الصفوة - بيروت 1414 .
- شرف الدين؛ السيد عبد الحسين: النص والاجتهاد،: ت أبو مجتبى، سيد الشهداء عليه السلام - قم، 1404 هـ.

- الشريف الرضي؛ محمد بن الحسين: نهج البلاغة، خطب الإمام عليّ عليه السلام تحقيق د. صبحي الصالح، بيروت 1387 هـ ـ 1967 م.
- الشيباني الجزري؛ ابن الأثير عليّ بن أبي الكرم محمد: أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ لبنان. وأيضًا دار الفكر ـ بيروت 1409هـ ـ 1989م.
- الشيباني الجزري؛ ابن الأثير عليّ بن أبي الكرم محمد: الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت ـ لبنان 1417هـ / 1997م.
- العبسي: أبو بكر بن أبي شيبة، المصنف في الأحاديث والآثار، تحقيق كمال الحوت، مكتبة الرشد ـ الرياض.
- الصدوق؛ محمد بن عليّ بن بابويه: الأمالي، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية ـ مؤسسة البعثة ـ قم.
- الصدوق؛ محمد بن عليّ بن بابويه: الخصال، تعليق عليّ أكبر الغفاري، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية قم، إيران.
- الضبي؛ العباس بن بكار: الوافدات من النساء على معاوية بن أبي سفيان، تحقيق سكينة الشهابي، مؤسسة الرسالة، بيروت 1403 هـ ـ 1983 م.
- الصدوق؛ محمد بن عليّ بن الحسين بن بابويه: الخصال، جماعة المدرسين في الحوزة العلمية قم .

- الصدوق؛ محمد بن عليّ بن الحسين بن بابويه: الأمالي، تحقيق قسم الدراسات الإسلامية ـ مؤسسة البعثة ـ قم.
- الطبراني؛ سليمان بن أحمد بن أيوب: المعجم الكبير، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة.
- الطبري؛ أبو جعفر، محمد بن جرير: تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، ت محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر1967.
- الطبري؛ أبو جعفر محمد بن جرير: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ت: عبد الله التركي، دار هجر للطباعة والنشر .
- الطوسي، محمد بن الحسن: تهذيب الأحكام، تحقيق السيد حسن الموسوي الخرسان، دار الكتب الإسلامية طهران ـ 1390 هـ.
- الطوسي؛ محمد بن الحسن شيخ الطائفة: الأمالي، ت: مؤسسة البعثة، دار الثقافة ـ قم 1414.
- الطوسي؛ الشيخ محمد بن الحسن: مصباح المتهجد مؤسسة فقه الشيعة ـ بيروت، 1411.
- العاملي؛ السيد جعفر مرتضى: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، دار الحديث للطباعة والنشر، قم 1426هـ.
- ابن عبد البر؛ يوسف بن عبد الله بن محمد: الاستيعاب في معرفة الأصحاب تحقيق: عليّ محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت ـ لبنان 1412هـ ـ 1992م.

- العسقلاني: أحمد بن عليّ بن حَجر: الإصابة في تمييز الصحابة تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ عليّ محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان 1415هـ..
- العسقلاني أحمد بن عليّ بن حجر: تهذيب التهذيب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان. 1404هـ ـ 1984م.
- الفيض الكاشاني، محمد محسن، كتاب الوافي، منشورات مكتبة الامام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام العامة أصفهان.
- القرشي، باقر شريف، حياة الإمام الحسين عليه السلام، مدرسه علميه ايروانى ـ قم 1413.
- القرطبي؛ محمد بن أحمد بن أبي بكر: التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، ت الصادق بن محمد بن إبراهيم، مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض 1425هـ.
- ابن كثير الدمشقي، إسماعيل بن عمر: تفسير القرآن العظيم، ت سامي بن محمد السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، 1420هـ.
- ابن كثير الدمشقي؛ إسماعيل بن عمر: البداية والنهاية، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، 1418هـ ـ 1997 م.

- الكليني؛ محمد بن يعقوب بن إسحاق: الكافي، تعليق عليّ أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية طهران إيران 1388هـ.
- الكنجي الشافعي؛ محمد بن يوسف: كفاية الطالب في مناقب أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب: دار إحياء تراث أهل البيت عليهم السلام، طهران، 1404.
- المازندراني؛ محمد بن عليّ بن شهراشوب: مناقب آل أبي طالب، المكتبة والمطبعة الحيدرية، النجف 1376.
- المبرد؛ أبو العباس محمد بن يزيد: الكامل في اللغة والأدب، ت محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي ـ القاهرة 1417.
- المتقي الهندي؛ عليّ بن حسام الدين: كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، تحقيق: بكري حياني ـ صفوة السقا، مؤسسة الرسالة 1401هـ/ 1981م.
- المجلسي؛ المولى محمد باقر: بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء بيروت 1403.
- المزي؛ أبو الحجاج يوسف: تهذيب الكمال في أسماء الرجال، ت د بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة ـ بيروت 1400هـ.
- المنقري، نصر بن مزاحم، وقعة صفين، تحقيق عبد السلام هارون، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة.
- النسائي؛ أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب: خصائص أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، ت أحمد ميرين البلوشي، مكتبة المعلا ـ الكويت، 1406.

- النيسابوري؛ أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله: المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ـ بيروت 1411 .
- النيسابوري؛ مسلم بن الحجاج القشيري: صحيح مسلم، ت محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، 1955.
- النقدي؛ الشيخ جعفر: الأنوار العلوية والأسرار المرتضوية، المكتبة الحيدرية في النجف 1962.
- النمازي الشاهرودي؛ عليّ: مستدركات علم رجال الحديث مستدركات علم رجال الحديث، نشر حسينية عماد زاده ـ أصفهان 1412 هـ.
- النوري الطبرسي؛ ميرزا حسين: مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، 1408 هـ ـ 1987 م.
- الواقدي؛ أبو عبد الله محمد بن عمر: الردة، ت يحيى الجبوري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1410.
- اليعقوبي؛ أحمد بن أبي يعقوب بن واضح: تاريخ اليعقوبي، دار صادر ـ بيروت ـ لبنان.

الفهرس

مقدِّمة 5

الإمام عليّ ما قبل الميلاد إلى الاستشهاد 11

1 / عالم ما قبل الميلاد 11

2 / ولادته في الكعبة 14

ميزات حكيم بن حزام! 20

3/ والده ووالدته 22

4/ اهتمام النبي بابن عمه عليّ 23

5/ عليٌّ من بعثة النبي إلى هجرته 25

خليفة النبي وإمام ووصي من يوم الدار 26

أول ممارسة لخلافة النبي ووصايته 29

6/ أول قتال من عليٍّ لقريش 30

7/ زواج عليّ بفاطمة الزهراء 31

8/ فارس الحروب ورجل المهمات الصعبة 36

ورجل المهمات الصعبة والمختصة بالنبي 40

9/ مناقب لا تحصى 42

10/ عليّ ووفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم 44

11/ علاقة الإمام عليّ عليه السلام بالخلفاء الأوائل 47

12/ عليّ بن أبي طالب خليفة ظاهري بعد **25** سنة 50

13/ حروب عليّ مع أعدائه في خلافته 53

حرب الجمل 54
حرب صِفّين؛ شهر صفر سنة 37هـ 57
معركة النهروان وحرب الخوارج 64
14/ شهادة الإمام عليه السلام سنة **40هـ** 65
الشقشقية توثيق 30 سنة من تاريخ الإسلام 69
صحة نسبة الخُطبة لأمير المؤمنين عليه السلام 73
نظرة في مواضيع الشقشقية 77
أدوار الامام عليّ عليه السلام في عهد الخلفاء 89
الإمام عليّ عليه السلام والناكثون 103
البيعة والنكث 104
طرف ثالث في الميدان 110
ماء الحوأب وتحذير الرسول**!** 112
الاحتجاج قبل القتال 113
بدء القتال 115
نُبْلٌ لا مثيل له 117
الإمام عليّ عليه السلام والقاسطون 119
معركة صفين 126
قصة التحكيم 130
الإمام عليّ عليه السلام والمارقون 137
سبب التسمية 137
روايات مقتل الإمام عليّ وشيء من التحليل 145
الأولى: في كيفية الاغتيال ووقته 146
والثانية: هل كان لأهل الشام وقيادتهم دور 146

والثالثة: هل كان الإمام يعلم بوقت مقتله؟ 146
برنامج إصلاح في خمس سنوات 165
مظلومية الإمام عليّ في أمة الإسلام 175
1/ ظلامة عليّ عليه السلام في زمانه 177
2/ الظلامة المستمرة لليوم 181
منها: إنكار فضائله تمامًا 181
ومنها: التضعيف والتوهين 186
ومنها: التأويل والتفسير 187
ومنها: نسبة فضائله ومناقبه لغيره 191
مناقب الإمام خارطة طريق لإمامته 199
بعض مناقبه المشهورة 217
ما جاء في كتاب الله 217
الروايات عن رسول الله 220
الإمام عليّ من لسان عليّ 225
من التراث العلمي للإمام عليّ عليه السلام 227
نماذج من علم أمير المؤمنين 229
نهج البلاغة 229
كتاب عليّ 232
سلوني قبل أن تفقدوني 234
أدعية الإمام 235
1/ دعاء الجوشن الكبير 235
2/ دعاء كميل 237
3/ دعاء الصباح 238

4/ المناجاة الشعبانية 238
الحياة الأسرية للإمام عليّ عليه السلام 241
نساء الإمام عليه السلام 243
زوجاته بالعقد الدائم 243
اختر لي امرأة ولدتها الفحولة 250
الوجه الأوَّل: إرشاد النَّاس للرُّجوع إلى المتخصّص 252
الوجه الثَّاني: تعليم النَّاس مبدأ المشاورة 253
الوجه الثَّالث: الإِخْبَار عن قضيَّة كربلاء 254
الوجه الرّابع: إظهَار فضل أم البنين عليها السلام 254
من أولاد أمير المؤمنين 259
كلمة شكر 265
المصادر 267
الفهرس 277